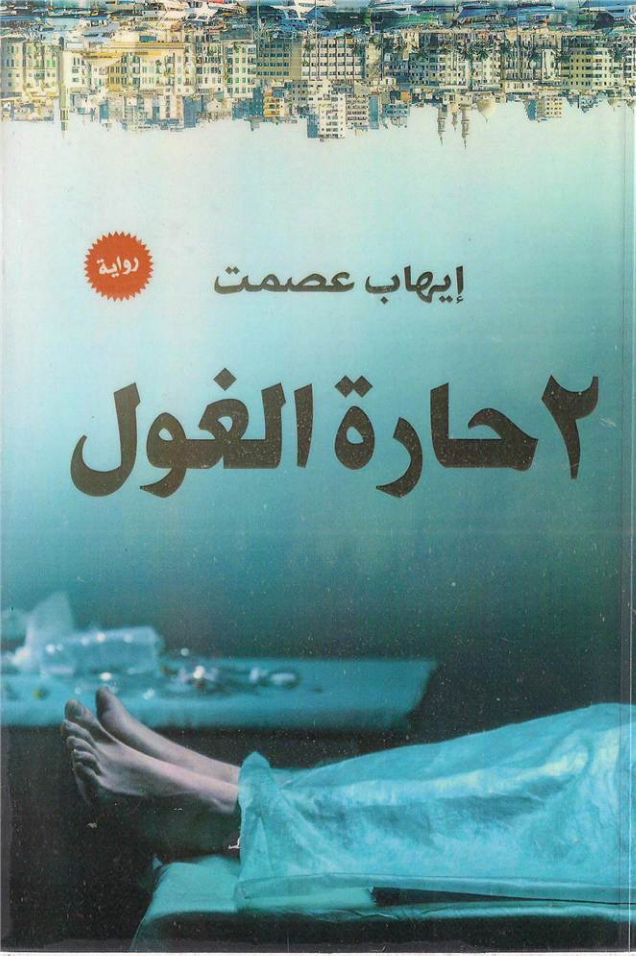


رواية
إيهاب عصمت
حارة الغول ٢

إيهاب عصمت

# ٢ حارة الغول

(الموت على الطريقة الملكية)



هذا العمل من وحى خيال المؤلف، وأى تشابه فى الأحداث والأسماء، فهو على مسئولية من فهم العمل من وجهة نظره الشخصية، دون وقوع مسئولية على المؤلف أو الناشر .

# إهداء

إلى أُستاذى العظيم، والأب الرائع الدكتور: عبد العزيز شاهين
(الرئيس السابق لشركة فايزر للأدوية)

رحم الله يدًا، امتدت لِيّ بخير. ستظل دومًا، فكرة عظيمة وذكرى طيبة، لكل أبنائك وتلاميذك، الأفكار العظيمة لا تموت.

رحمك الله رحمةً واسعة.

**إيهاب**

# - 1 -

الإسكندرية، عام ١٩٩٩م، ليلة رأس السنة :

جلس ساكنًا فى الميكروباص المُتجه لمنطقة المنشية العريقة ليلة الخميس، اقتربت الساعة من الثانية عشرة مساء، والكُل فى حالة استرخاء، وكأن الناس قد اجتمعوا على إشباع مُتعهم الخاصة فى تلك الليلة التى لولاها لانفجروا فى الشوارع. نظر إلى الكورنيش القريب حيث تظهر قلعة قايتباى وقد سُلطت عليها الأضواء المُلونة احتفالاً بالألفية الجديدة، وانعكست ألوانها الجميلة فوق صفحة المياه الناعمة، مر بجوارها عدد كبير من مراكب الصيد التى أضاءت أنوارها القوية الملونة لتزيد الكورنيش بهجةً وراحة. عربة الأيس كريم الشعبية، المُزينة بالأعلام الخضراء، والصفراء، والحمراء، المكتوب عليها (حمادة العفريت )، شاب وشابة يتناولان الترمس، ويتجاذبان أطراف الحديث، وتحتهم مُباشرة، كُتبت عبارة باللون الأخضر العريض.»الاتحاد سيد البلد«. يعرف كل من بالإسكندرية، من يكتب تلك العبارة(جمال الدولى) الذى صنفته موسوعة جينيس بالمشجع الأكثر جنونًا فى العالم . شاهد أب مكافح يجلس مع زوجته الهزيلة وثلاثة أطفال يأكلون الساندويتشات، تذكر أمه المسكينة التى اعتدى عليها بالضرب مُنذ ساعة، ليحصل منها على إسورتها الذهبية؛ ليبيعها من أجل المخدرات!! نفض من رأسه ذلك اللوم المفاجئ الذى يُعد خطرًا بالنسبة لشخص مثله، مات فيه كُل شيء . نظر لسائق الميكروباص، الذى جلس يستمع إلى الست، وهو فى حالة استرخاء تام . الكل له مُتعته ومزاجه الخاص، إذن لماذا

اللوم والعتاب، هو الآخر يبحث عن متعته التى لا تنتهى. اقتربت السيارة من النصب التذكارى للجندى المجهول. أمر السائق بصوته المُتحشرج الخارج من حنجرة أهلكتها الكيوف:

- على جنب هنا لو سمحت.

سار عبر الشارع الطويل، بينما الباعة يجمعون بضاعتهم استعدادًا للرحيل . أشعل سيجارته وسار فى الطريق الطويل المؤدى لشارع النصر، ثم انعطف يسارًا حتى وصل إلى (حارة البطارية)، حيث المُخدرات، هى سيدة الموقف. رمى سيجارته ودلف إلى الشارع الضيق، صعدت إلى أنفه رائحة دُخان (الجوزة) المُختلط بالحشيش، اقترب من بيت يكاد يظهر من تحت الأرض، ببوابته الخشبية القذرة، ونوافذه الحديدية التى دُفن نصفها أسفل الأرض، وتم دهان زجاجها باللون الأزرق، وكأنه مخبأ من زمن الحرب العالمية الثانية. إنه بيت (زوبة الجمل)، نظر يمينًا ويسارًا، خوفًا من أعين المُخبرين، طرق الباب عدة طرقات خفيفة، لتظهر سيدة سمينة سمراء اللون ضيقة العينين، قبيحة المنظر. نظرت له من نافذة صغيرة فتحتها فى الباب، تفحصته قليلًا بعينها وكأنه يمر بكشف هيئة، طمأنتها نظرة الضعف فى عينيه، ففتحت له الباب على الفور. دخل إلى المنزل وهو يعرف طريقه، مركز شباب الإدمان. مكان لزج قذر، تختلط فيه رائحة التبغ بالمخدرات. الحوائط مطلية بالجير، وفوقها لون سماوى باهت مال إلى الرمادى، بفعل ترسب كميات الدخان اللانهائية، فوق الجدران. على الأرض مجموعة من صفائح العسل الصدئ، تم وضعها كمناضد صُفت عليها أطباق المُخدرات، ومجموعة أخرى من الكنب المُتهالك، والمُغطى بأكلمة رخيصة باهتة، من التى تباع للبحارة الفقراء.

سار بأقدامٍ مُرتعشة، وهو يتفحص المكان، الغرفة التى أمامه قد نُصبت فيها (الجوَّز)، وجلس فيها عشرة رجال يدخنون الحشيش، اتجه مباشرةً للغرفة

التى تحت السلم، دخل إليها وجلس مُستلقيًا على أريكة خشبية ساقطة، بلا أرجل، استرخى تمامًا، وكشف ذراعه المعروقة، التى ظهر بها الكثير من البُقع الحمراء والزرقاء، دليلاً على قطعه شوطًا كبيرًا فى رحلة الإدمان، كان المكان يُشبه الحظيرة القديمة، فقد كانت أقفاص الطيور الفارغة تنتشر فى كل مكان، استغلها المدمنون فى الجلوس عليها، أو النوم فوقها. كان (حسين) ينظر إلى سقف الحظيرة المُغطاة بسعف نخيل،ومُدعم بعرقين كبيرين من خشب الشجر القوى، ثم نقل بصره إلى الجثث المُلقاه بجواره بعد الحقن، شباب وبنات فى ريعان الشباب، تبدو على ملابسهم علامات الثراء.

ابتسم فى وهنٍ مُتساءلًا، ما الذى يجعل هؤلاء الشباب (المستريح )، يلجأ إلى هذا النوع القذر من (المخدرات ). دلفت (زوبة) وبيدها كفة صغيرة بها بودرة بيضاء، نظرت له فى ثبات فنفحها النقود التى بحوزته، تأملتها قليلًا فى امتعاض ودستها فى صديريتها، ثم وضعت الكفة تحت لهب سبرتاية خفيف، حتى بدأ المزيج الأبيض ينصهر، لتلتقط بخبرتها الحُقنة سريعًا، وتسحب المزيج بداخلها، ثم ربطت على يد (حسين) بأنبوب أخضر مطاطى بدا فى شدة القذارة، وضربت بيدهاالسمينة على يديه، حتى ظهر أحد عروقه الهاربة، فغرست الإبرة المُلوثة فيه، ثم انصرفت إلى زبون آخر.تكوم حسين بعدها فوق كومة القش مُنتشيًا، وهو ينظر إلى السقف، ويتابع فرد الحمام الرشيق الذى يسير فوق عرق الخشب المُعلق فى سقف الغُرفة، التى كانت يومًا إسطبلًا للخيول .شعر أن جسده يتقلص ويصغر، حتى صار فى حجم عقلة الإصبع، تسلق العرق الخشبى وصعد فوق جناح ذكر الحمام الزاجل الذى طار به. كان الهواء مُنعشًا وهو يتقلب به فوق صفحات الميناء، رأى البحارة فوق سفنهم العملاقة، يحتفلون ببداية العام الجديد، وهم يرقصون، الرقصات الفلكلورية لبلادهم، تأمل صيحاتهم الثملة، ورقصاتهم الرشيقة، وهم يكسرون الأطباق، ويقذفون بعضهم بالفواكه والمشروبات، على أنغام، التانجو الأرجينتينية، والزوربا

اليونانية، والسامبا البرازيلية، والفاندانغو الإسبانية. يطيرويحط على مراكب الشحن الكبيرة الرابضة فى الميناء. طار مرة أخرى إلى الجامعة حيث حصل على شهادة تخرجه، من كلية التجارة، بعد سبعة أعوامٍ متواصلة، من المُعاناة والجلوس على مدرجات سُلم الكلية، بجيتاره العتيق، ظنًا منه، أنه سوف يُصبح ( مُصطفى قمر) جديد، أفاق على شهادة مقبول بالكاد، وعلى أنه لن يُصبح مُصطفى قمر، بعدما طرده (الأُستاذ حلمى بكر) من اختبارات الغناء وقال له مُتعضًا :

- الغُنى مش ناقص بلاوى يابنى!

طار به الطائر مرةً أُخرى إلى منزلهم القاطن بحارة الغول بمحرم بك، حيث منزل من دورين مكتوب عليه (عاصم الغول تاجر).كانت أُمه تجلس على سجادة الصلاة تبكى، بعدما دفعها فى صدرها، وأخذ قطعة مجوهرات وكل ما لديها من نقود؛ ليُنفقها على المُخدرات. كانت رغم كُل ذلك تدعوله بالهداية فى بداية هذا القرن الجديد .

- ربنا يهديك، ياحُسين يا بنى

طارمرة أُخرى حيث وكالة كبيرة لبيع الأقمشة، مكتوب عليها ( منى فاتورة عاصم الغول) وأولاده، كان الحاج عاصم يجلس فى سعادة على مكتب أنيق وحوله مئات الأتواب القماشية الملُونة من كل الأصناف، بينما السيدات والفتيات لا تنقطع أسئلتهن له ولعماله:

- عندك صوف إنجليزى يا حاج، عندك حرير هندى، عندك موهير، كان الحاج وصبيانه يُجيبون على الأسئلة ويُلبون طلبات السيدات بمهارة مُنقطعة النظير، سمع إحداهن تقول :

- وكالة الغول، أحسن وكالة قُماش فى إسكندرية كلها .

طار إلى حانة (سبيت فاير) حيث جلس والده عاصم، وهو فى عنفوانه مع

صديقته (أماليا) الحسناء اليونانية، وطار مرة أخرى إلى المنزل، حيث مرض والده بشدة، وانقطع عن العمل، وزادت مصروفات العلاج وضاعت الوكالة!! ووقف بها صبيه، وابن شقيقه (محروس )، تابع والده وهو يخرج من المنزل فى المساء مُتخفيًا، ثم يعود منهكًا فى اليوم التالى، ولا أحد تقريبًا يعرف إلى أين يذهب ولا أين يعمل، قالت له والدته يومًا عندما سألها أنه يعمل عاملاً فى أحد المُستشفيات، وفى أوقات فراغه يبيع الأقمشة والملابس الرخيصة بالتقسيط للموظفات والعاملات.

حط فرد الحمام فوق كتف شاب قوى يبتسم وهو يحرس موقعًا عسكريًا فى الليل، تمنى حسين أن يهبط من فوق الطائر ليقبل رأسه، ثم طار مرة أخرى ليشاهد زحامًا شديدًا، وعربة تحمل صندوقًا ملفوفًا بعلم مصر. بكى حسين بشدة وهو يشاهد الشاب الشهيد وهو يُزف إلى مثواه الأخير. وأخيرًا زار طائر الحمام، أجمل مكان فى الدنيا .شُرفة (منى ) حبيبة عمره وسبب بلواه وآلامه. كانت تقف فى الشرفة تسقى ورودها وشجيراتها الصغيرة بفستان أحمر رائع، بينما يقف هو من بين خشب الشباك يراقبها وكأن الحياة توقفت، لكنه عرف بعد ذلك لماذا كانت تقف ولمن كانت تقف فى ذلك الموعد المحدد من كل شهر، تنتظر شقيقه (فضيل) أو الشهيد فضيل وهو عائد من الوحدة العسكرية !.ظل (حسين) مُحلقًا وروحه تطير بعيدًا مع ذكر الحمام الزاجل . لقد عشق تلك الرحلة التى رأى فيها نفسه، لكن شيئًا ما كان يرفض عودته من فوق جناح الطائر.

****

## - 2 -

نفس الليلة- مقهى بيومى بحى محرم بك

ليلة رأس السنة احتفالية( الميلينيوم )

جلس رجل ستينى قوى البنية على مقهى (بيومى ) بحارة الغول، مُرتديًا بنطالأرماديًا أنيقًا مكوى بعناية، وبلوفر رمادى سبعة تحته قميص سماوى جميل، وحذاء لامع، يبدو الرجل نظيفًا دائمًا، وهو يضع كوفية رمادية مُطعمة بالأزرق حول رقبته، لحيته البيضاء الخفيفة وعلامة الصلاة ووجهه الوضاء، يعطيان أمارات بالتقوى والهدؤ.كان يتابع تلك الاحتفالية الغريبة، بحلول الألفية الجديدة، والتى أطلق جهابذة الإعلام عليها، اسم - روش وجديد، وهو" احتفالية الميلينوم" .

حاول الجميع معرفة،مالذى تعنيه، كلمة (ميلينيوم ) والتى تنطقها المُذيعة الدلوعة بطريقة هيسترية، تدل على أنها جلست تحفظها عشرات المرات، قبل أن تُلقى بها فى وجه أعزائها كُل أفراد الأُسرة.جاءتهم النجدة، من الأُستاذ ( فؤاد فواز) الكاتب الصحفى السكندرى المثقف، والملقب بفرفور،اسمًا حركيًا كان الصحفيون يتخذونه أيام الاستبداد، حتى يُفلتوا من السجن بتهم عديدة،أقلها خطورة العيب فى ذات الحاكم المُقدسة من وجهة نظرأنفسهم بالطبع . وما إن جلس بجوار صديقه (عاصم )، وتبادلا بضعة كلمات، حتى انهال على رؤوسهم وابل من الأسئلة من (بيومى ) صاحب المقهى الذى يرغب فى الانضمام بشدة لطائفة المُثقفين، ولكنه يفشل دائمًا بسبب قدرته المحدودة على الاستيعاب،

ومحاولة مُجاراة عاصم وصديقه الأستاذ فؤاد، وهى مُحاولة أشبه بمُحاولة حِمار أعرجْ اللحاق بفرسٍ مُنطلق بأقصى سُرعة.

نظر إلى التليفزيون، وقد تلون الهرم الأكبر بالكثيرمن ألوان الليزر، ووقف المخرج الأجنبى (مايكل جار) يستعرض مهارته فى إخراج الاستعراض، والذى لم يُلاقَ استحساناً بالقدر المُتوقع، تقول الصحف: إنه قد تلقى مبالغ طائلة من أجل تلك الاحتفالية العقيمة! .رشف الأُستاذ (فؤاد فواز) رشفة من كوب الحِلبة الذى أمامه، وهويتابع الاحتفالية العجيبة، وعلامات السُخرية، واضحة على وجهه، ثم قال لهم:

- هى تعنى الاحتفالية بألفية جديدة، أى كل ألف عام، فهمت يا بيومى، هز بيومى رأسه ببلاهة!!، وبالطبع بدا أنه لم يفهم شيئاً، لكن كبريائه منعه من قول ذلك. فباده أحدهم

- بيقولوا: إنها نهاية العالم !! الكمبيوترات هاتقف، والطيارات فى السماء هاتقع، وهايبقى يوم القيامة!حوقل الجميع فزعًا وضربوا كفًا بكف، لمجرد تخيل، أن ذلك سيحدث، فقال عاصم :

- والله لو حدث ذلك، فلا عاصم لنا من أمر الله، وربنا يحسن خواتيمنا. غمغم الجميع

- اللهم أمين.

رد الأستاذ فارس محى، مدرس أول الكيمياء بالثانوى، وهو يرتدى ملابس أنيقة بدت أصغر من سنه الذى شارف على الستين، وهو يضع كوفية حمراء أنيقة، و يتحسس شعره المصبوغ بعناية. كان مُدرسًا شابًا جميل الطلعة فى الستينيات، والده يعمل مُدرسًا للغة العربية والقرآن فى مدرسة (نبوية موسى)، أرسلته الحكومة المصرية فى الستينيات مع مائة مدرس إلى روسيا، كمنحة لتطوير التعليم؟!... لم يتطور التعليم، لكن الأستاذ فارس تمكن من تطوير

علاقاته النسائية! فتعرف على فتاة فى حانة تدعى( تاتيانا)، وتزوجها، وقرأ كل ما وقعت يده عليه من أفكار لينين، وستالين، وكارل ماركس، وعاد بعد عام وزوجته فى يده، كما عاد برأسٍ تحول إلى كهفٍ خرب، تُلقى فيه كُل الأفكار والمزاعم الإلحادية بدعوى الحرية. لا تستدل على وجود شىء ولاتؤمن بشىء حسى ولا تقتنع إلا بما هو ملموس، وعلى لسانه جُملة واحدة مُكررة.

- لكل شىء سبب علمى، بطلوا جهل بقى! استهجن الجميع جرأته، واستغفروا بينما تأفف عاصم من وجوده، إلا أن الأستاذ فؤاد فواز كان صبورًا وقال:

- هناك نهاية للعالم،وهناك عالمٌ آخر، وبعث، وحساب، وجزاء. هزَّ الأُستاذ فارس رأسه فى عناد وهو يحمل جريدة الوفد التى لا يقرأ غيرها، ونهض قائلاً:

- بقالنا تلاتين سنة، يافؤاد، بنتكلم فى الموضوع ده، وما حدش فينا ها يقتنع برأى التانى! وقف بيومى فى وجهه قائلاً

- يا أخى إحنا ما بنحبكش، أنت عار على الحتة، إزاى أنت بتدرس لولادنا ؟!أنا مش فاهم. علا صوت الأستاذ فارس فى غضب

- عيب يا بيومى، احترم نفسك!

- أنت اللى تحترم نفسك، راجل ناقص بصحيح . رفع بيومى يده ليضرب الأستاذ (فارس )، لكنها توقفت فى الهواء قبل أن تهوى على وجه الأستاذ (فارس) بفعل يد عاصم التى تصدت للضربة برشاقة فى آخر لحظة على الرغم من كبر سنه .

عاصم: عيب يا بيومى، ده مهما كان مترِبى معانا، هو حر، ومهما اختلفنا مش لازم نتطاول على بعض.

عاد الجميع للجلوس مرة أُخرى، بعدما هدأت موجة الغضب المؤقتة.

وبينما كان بيومى يعتذر للأستاذ (فارس)، كان أحدهم يجلس على أطراف المقهى ويتابع المُشاجرة فى ضجر، كان رجلًا قوى البنية، مُستقيم الشارب، ملابسه تخلو من ذوق، وكأنه ابتاعها من سوق الكانتو، جاكت كاروهات وقُبعة رياضية رمادية،على بنطال قماشى أسود قديم، ويحمل فى يده مُفكرة سوداء كبيرة، وقلم رصاص، وأمامه (خميس الحلوانى ) صديقهم فى المقهى الذى أوقعته ضائقته المالية بين فكى هذا الثُعبان المُخيف،"نصر" الذى أطلق عليه أهل الحى منذ زمن "نصر اليهودى"، نظرًا لبخله الشديد وحبه للمال، لدرجة العبادة، لكنه فى الحقيقة، لم يكن يهوديًا،ولا نصرانيًا، ولم يعرف له أحد ملةٌ على الإطلاق! له مال كثير، ولا أحد يعلم من أين اكتسبه، ولكن الجميع يعرفون كيف تضاعف إلى هذا الحد، يُشارك صديقه، ومُعلمه،(يعقوب الصائغ)، رجل نحيل له شعررمادى، ونظارة فرنسية مُستديرة، ينحدر من أُصول لُبنانية، ويعيش وحيدًا رغم سنوات عُمره التى قد تخطت السبعين!.كان (نصر)يسمع كلمات (يعقوب)،وكأنها مصابيح تُضئ له الطريق. (مالك هو سندك، وظهرك، وولدك)، الفقراء فقط هُم من يقولون: إن السعادة ليست فى المال! وعندما يأتى المال، يتقاتلون عليه كما تتقاتل الكلاب على قطعة من اللحم. (الزوجة والأبناء هم أكبر مُضيع للمال، ولذلك لم أتزوج)!!!كان (نصر) يحفظ كلمات (يعقوب الصائغ)، وكأنها كلمات كتاب مُقدس، لم لا!! وهو الذى علمه عشق المال إلى حد القُدسية!!. التفت (نصر) إلى خميس قائلاً:

- سيبك يا حبيبى منهم، دول هجاصين، وتملى يعملوا الحركات دى .أنت عارفهم أكترمنى .. بقالهم كده أكترمن ثلاثين سنة على ده الحال !! ؟ رد عليه خميس فى قلق .

- أيوه .. لكن الخناقة جامدة المرة دى.

- دول لاجئين، وصيع ...هُما ليهم متوى إلا هنا، المهم. هتاخد الخمسمائة جنيه، وها ترجعهم يا سيدى، مد يده بآلته الحاسبة البغيضة قائلا

- سبعمائة جنيه، بعد ستة أشهر، قُلت أيه ؟!

- قلت لا إله إلا الله. رد عليه بسخرية

- محمد رسول الله ! هه موافق، ولا لأ. تنهد خميس فى قلة حيلة قائلاً:

- موافق يا عم (نصر)، وأمرى لله .

****

## - 3 -

- تأخر كالعادة، مفيش فايدة .المُخدرات لحست مُخه ! لازم أروح علشان أقدر أصحى، قالها (عاصم) لنفسه فى غضب ونادى حسونة صبى المقهى قائلاً:

- الحساب يا حسونة، نقده الحساب وتحرك صوب المنزل، كان الأسى قد استبد بعاصم، لعلمه بما يفعله (حسين) فى هذه الساعة. غادر المقهى بخطوات بطيئة، ورفع حقيبته التى تُشبه الجِوالَ على ظهره، واستمر فى السير حتى دلف إلى (حارة الغول) القريبة من المقهي والشارع الرئيسى. تطلع إلى المنزل المُتهالك ذى الدورين الواقع فى نهاية الحارة، وإلى اللوحة النحاسية الصدأة، المكتوب عليها. (عاصم الغول - - تاجر). وكعادته فى كل مرة يقرأ فيها تلك اللوحة، يشرد ويُفكر، ثم يهز رأسه قائلاً، وهو يصعد على السُلم، "الحمد لله". بدا كأحد حُكماء التبت العِظام الذين يتحكمون فى طاقة الغضب لديهم، ويُحولونها إلى طاقة بناءة مُفيدة ...واصل صعوده على السلم الخشبى المُتهالك، فتح الباب الخشبى العتيق. وأضاء المصباح، لتظهر صالة مُتسعة قديمة الطراز تحوى أريكة قديمة مُغطاة بكسوة من الورود الحمراء، وفوقها نتيجة قديمة بتاريخ.(٣١- ١٢- ١٩٩٩ ). تُشير إلى أخر يوم فى الألفية الثانية، وأمامها منضدة زجاجية شفافة ذات عجل، موضوع فوقها جهاز تليفزيون توشيبا كبير الحجم، وعلى اليمين ثلاجة إيديال بيضاء أربعة عشرة قدمًا.

اتجه بسرعة إلى غرفة (حسين) ... ولد مفسود !! ...قالها فى غضب، وهو يتأمل فى دهشة مُقتنيات ابنه العجيبة. لم يدخل الغرفة منذ زمن، ولم

يكن أبدًا صديقًا له، كما كان صديقًا للمرحوم فُضيل ابنه الأكبر، هل ظلم هذا الولد؟! تأمل مقتنياته مرة أخرى فى دهشة، آلة جيتار باهتة من زمن الكُلية، مكتب عتيق الطرازمن السبعينات، عشرات البوسترات المُعلقة على الحائط لنجوم الأغنية الشبابية، حميد الشاعرى، محمد منير، مُصطفى قمر، سيمون، مادونا، فريق (بينك فلويد)، فريق (بيتى شا)، كان عاشقًا للموسيقى والرسم.

مد يده وتناول (ماكيت) بيت، يُشبه كوخ إنجليزى، كونه حسين من علب السجائر المارلوبورو. تأمله الشيخ فى إعجاب، فهو يراه بارعاً فى أشياء كثيرة، ولكنها أشياء خائبة على حد قوله! فهو يهوى جمع التحف الصغيرة، غليون خشبى قديم، صدفة كبيرة فوق المنضدة، علب سجائر فارغة، شاهد لوحة رائعة من رسوماته لصياد قوى مفتول العضلات يُلقى بشبكته المفرودة فى وسط الماء، بينما الشمس تعكس أشعتها الذهبية على وجهه، أعجبه تناسق الألوان وقوتها .تأمل سريره الخشبى الفوضوى الذى رسم عليه الكثير من الجماجم، وفوقه صورة شابة (خوجاية ) ترتدى السالوبيت الجينز الشهير "بالعفريتة" فى التسعينيات، تُمسك بسيجارة فى يدها، بينما رأسها مائل إلى الخلف فى إغراء، ومن فمها تخرج كمية كثيفة من الدخان، بينما صديقها الوسيم (الهيبى)، ذو الشعر المعقوف يقف خلفها، وهو يستنشق ذلك الدخان مُغمض العين، مُستمتعًا، مُرتديًا نفس العفريتة،،وعلى صدره مجموعة من السلاسل الغريبة، والتى تحوى الكثير من الجماجم . تهد فى ألمٍ قائلاً

- يا خسارة يا حسين، ربنا يهديك يا بنى، أغلق غُرفة (حسين )، واتجه إلى الغرفة الواسعة المُطلة على الشارع، حيث يعيش هو وزوجته (الحاجّة فيروز)، سرير خشبى قديم مُطعم بالصدف والعاج، وبجواره خوان أنيق من نفس الطراز، مُلحق به مكتبة أنيقة من الأرابيسك، صُفت بها أُمهات الكُتب "كالعقد الفريد" و"الأغانى للأصفهانى"، و"عجائب الأخبار"، وغيرهم الكثير.

يعكف عاصم على قراءة تلك الكُتب بالأيام، وخاصةً ذلك الكتاب الأسود الكبير، والموضوع باستمرار على الطاولة، بجوار الراديو الفيلبس العتيق، الذى لا يتوقف ليلَ نهارَ عن بث إذاعة القُرآن الكريم .السرير المعدنى العتيق ذو العمدان الذهبية والمُعلق عليه صورة له، هو وزوجته الحاجة ( فيروز)، يحكى أيامًا من الهناء انقضت بوفاة فضيل، أحب الأبناء لقلوبهم .صورة أُخرى بجوار المكتبة وهو يحمل(حسين) رضيعًا، وبجواره زوجته تبتسم وهى تحتضن الصبى الآخر.كان الصبى الآخر" فضيل "ذو السبع سنوات وقتها، يقف فى ثبات رافعًا يده بالتحية العسكرية، فاردًا كُل أصابعه ببراءة، كُل صوره كانت هكذا، فهل كان يتبنأ بما سيحدث له؟! طفرت دمعة من عينيه وهو ينظر فى عينى فُضيل. يا الله!! كم كان جميلاً حلو القسمات. انتقل إلى البرواز الخشبى الآخر، وبه صورة فضيل بملابسه العسكرية، نفس العيون الجميلة، وإن خالطها، قسوة الرجولة، وشظف الحياة العسكرية، لكنه ظل باسم الوجه مؤمنًا بقضية، تشع ابتسامته نورًا. ابتسم له وهو يُتمتم ببعض الآيات ثُم همس فى حُب.

- سامحنى يابنى .

مد يده إلى المذياع الخشبى العتيق، وأدار زره الأصفر الكبير، لينساب صوت الشيخ المنشاوى فى تناغم، ويملأ الحُجرة بالسكينة .استوقفته نهنهات قادمة من تحت الغطاء، اكتشف أن زوجته لم تكن نائمة، بل كانت تستمع له، وهو يُناجى الصور، فقهرها الحنين هى الأخرى، وانخرطت فى البكاء. حاول إزاحة الغطاء من على وجهها، لكنها قاومت فى البداية. قائلة

- سيبنى أنام يا (أبوفضيل)، كان يحُب ذلك اللقب كثيرًا.

- أنتِ لسة صاحية، أنا فكرتك نمتى .

- ومين بس يجيله نوم، الصداع ها يموتنى .

كانت تُخفى جزءًا كبيرمن وجهها بإيشارب حريرى أخضر، مُتعللة بالمرض، وهى تديروجهها قليلاً عنه، ضحك فى مجون قائلاً:

- إنتى زعلانة منى ولا أيه، خلينى أشوف وشك يا قمر. ردت عليه فى جفاء:

- أنا تعبانة وعاوزة أنام !!

عاصم:لأ- - ورينى وشك

دفع رأسها بقوة، فصرخت صرخة خفيفة.كان وجهها مُصاب بعدة كدمات، وتورم فى العينين.

- هو ضربك تانى؟! حاولت الدفاع عنه:

- معلش يا خويا، كان زعلان،علشان رفضت جوازه من (مُشيرة ) بنت حميدة.

عاصم: العيب مش فى حميدة، حتى لو كانت بتخدم فى البيوت، الشُغل مش عيب. المشكلة فى البنت نفسها!هوناقص انحراف لما نجوزه البنت المنحرفة دى؟!، ( مُشيرة) الممرضة بنت ملعب، الحارة كلها بتتكلم عنها. لكن لا!!— الموضوع ملوش دعوة بمشيرة... نظر إلى الزُرقة الواضحة فى رسغها الأيمن قائلاً: فين أسورتك. لم تكن الأسورة فى مكانها بينما ظهر الارتباك على وجهها قائلة

- أصل؟! قاطعها قائلاً:

- من غير كدب، أنا المرة دى ها طلب البوليس.

*****

## - 4 -

الساعة الرابعة صباحًا.

صوت الشيخ (الحُصرى ) ينساب من مذياع عاصم، لكن سريره بدا خاليًا، وكأنه نفض عن نفسه النوم. صوت خرير الماء ينساب، كان يتوضأ أمام الحوض الكبير، الفاصل بين الحمام والمطبخ، ويُتمتم بأذكار الوضوء. دائمًا ما ينشط في هذا الوقت من الليل، تختفى آلام المفاصل، وخشونة الركبة ويصير أكثر خفة. سمع صرير باب الشقة، حيث دخل (حسين) صامتًا، ثم إستلقى على الأريكة القريبة من الباب، ونفسه يعلو، ويهبط، وكأنه يحتضر. حوقل الشيخ فى غضب، واقترب منه قائلاً، وهو يجذبه من ملابسه:

- أنا، كُنت رايح أبلغ البوليس، لولا أُمك اللى ضربتها وسرقت فلوسها، وغويشتها - هى اللى حاشتنى، لكن أقسم بالله، لو كررتها تانى هاطردك من البيت، وأبلغ عنك.

اعتدل حسين جالسًا. كان شاحبًا كالموتى، أحمر العينين، بارز العظام. نموذجًا للضياع مُتجسدًا فى هيئة إنسان، لدرجة انخلع لها قلب الأب الطيب، هو إنسان مريض، يحتاج لعلاج أكثر من احتياجه للوم والتقريع .تحدث بلسان ثقيل، وبصوت مبحوح

- ششش، مش عاوز أسمع أى حكم ومواعظ، كُنت أولى انصح نفسك، مانا طالعلك يا حاج. أدار الأب ظهره مُتجهًا إلى الباب العتيق وهو يحمل فوق

كتفه حقيبة قماشية خفيفة بها زجاجة ماء وقطع من البسكويت الجاف. أغلق الباب خلفه ونزل إلى الشارع، بينما علا صوت حسين وهو يهذى:

- خمارة سبيت فاير لسة موجودة ! وصاحبتك اليونانية اللى خلصت فلوسنا عليها لسة عايشة !!. هبط الشيخ على السلم، ودموعه على وجهه وهو يناجى ربه فى الظلام بدعاء سيدنا يونس:

- لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . ربنا يغفرلى. هو عنده حق أنا مش أب مُحترم علشان أنصحه . تغلب على أحزانه، وحاول رفع صوته الحزين كما يفعل كُل ليلة مُنذ سنوات طويلة .

- الصلاة، الصلاة يا عباد الله، الصلاة خيرمن النوم، الرحلة طويلة والزاد قليل فقم وتزود . مسته تلك الكلمات، تذكر ابنه وهو يُذكره بذنبه، فتطلع إلى السماء، وهمس فى رجاء.

- لعل الله يغفر ذنبى. مر بشوارع محرم بك ومحطة مصر، وهو يرفع صوته، ليذكر الناس بصلاة الفجر التى تنتهى، مع آذانها الأول، رحلته اليومية، حيث يعود من عمله منهك القوى، بعدها يدخل إلى المسجد، ويستكين فى هدؤ. تذكر كلمات ابنه (حسين)

- كنت نصحت نفسك الأول!!. جاءه صوت النقشبندى، الصادح من مذياع المسجد القريب، كان الصوت جميلاً وجهوريّاً، يلف الأنحاء، وكأن الله يبعث له بهدية تُسرى عنه .

فَلَقَد عَلِمتُ بِأَنَّ عَفوَكَ أعظَمُ

فبِمَن يَلوذُ وَيَستَجيرُ المُجـــرِمُ

أدعوكَ رَبِّ كَما أَمَرتَ تَضَرُّعاً فَإِذا رَدَدتَ يَدي فَمَن ذا يَرحَـمُ

استند على العامود الرخامى البارد، وهويُحرك مسبحته العاجية السوداء، ودموعه تُبلل لحيته البيضاء، كانت الكلمات، تتخلل إلى عظامه وكأن الشاعر أبو نواس قد نظمها من أجله .أطرق برأسه المُتعَبة، وهو يقول: يارب، انتبه لليد الحانية التى ربتت على كتفه قائلاً:

- سيستجيب الله لك إن شاء الله .فتح عينيه، لمحه لثانية واحدة، شيخ وقور أبيض الوجه، يزوره كثيرًا فى أحلامه، وأحياناًيراه طيفاً فى المسجد .حاول أن يُكلمه، لكنه كعادته، إختفى . جذب إنتباهه صوت بكاء رجل، رقيق الحال، هزيل الجسد، يبدو أن الأيام قد أدارت لها ظهره .كان يقف متعلقاً بأحد الأعمدة الحديدية للمقام، وهو يُحرك شفتيه وكأنه يُحادث أحداً. يعلم تماماً أنه قد وصل من القهر مبلغه، لكنه استنكر ما يفعل، اقترب منه قائلاً:

- مالك يا بنى، خير.

جفف الشاب دموعه بيديه قبل أن ينظر للشيخ قائلاً:

- ضاقت بيا الدُنيا يا عم الشيخ، علشان كده قلت آجى لضريح مولانا أشتيكى له حالى.استغفر عاصم قائلاً

- وحد الله يا بنى، ربنا موجود، هايعملك إيه بس مولانا. ولا غيره !!

- مش هو ولى وواصل لله.

- ربنا نفسه موجود، وسامعك، مش محتاج وساطة من حد.

لاحظ وجود معول صغير ومنديلاً محلاويًا بجواره، نظر ليديه وقدميه، وضاقت عينيه فى فراسة

- أنت بتشتغل إيه؟!

- والله كنت بازرع أرض، لكن المرض هدنى، ودلوقتى أنا بسرح على باب الله،

جنايني بالأُجرة، ثلاثة أولاد وأمهم، همَّ سبب نكبتى، محتاجين حاجات كتير، والرزق ضيق.

- ربنا ها يرزقهم إن شاء الله، أنت صليت؟!

تردد الرجل قليلاً، حينما تذكر أنه لم يُصل، فهزرأسه نافيًا

عاصم: الصلاة هى أهم خطوة يا بنى فى الرزق، روح صلى وربنا يفرجها .

تحرك الشاب فى تباطئ تجاه غُرفة الوضؤ، بينما عاصم يُتابعه فى إشفاق وهو يُمسك بمسبحته ويتفكر، صاربحكم عمله الغامض خبيرًا بلغة الأجساد، ذلك المسكين الذى ضل طريقه فى الحياة صار كالكتاب المفتوح بالنسبة له، يبحث عن رزقه ولا يطلبه من الرازق، كمن يتوقع أن تسيرسيارته بلا وقود .نظر له وهو يُصلى صلاة المُضطرب الخائف، يعرف تلك الصلاة جيدًا، سيستمرفى ممارستها حتى يطمئن قلبه ويعلم أن أمره كله بيد خالقه، ولا علاقة لضريح الولى بأى شىء !!.وإنما هو قرب، حب لا أكثر.

أخرج من جيبه ورقة أخذ يكتب فيها ويرسم بعض الأشياء. انتهى الشاب الفقير من صلاته . تلفت يمينًا ويسارًا لكنه لم يجد الشيخ فى مكانه، أصابه اليأس، كان ينتظر أن يُساعده لكنه رحل !. والآن الموقف كما هو، وسوف يعود إلى أُسرته خالى الوفاض. مد يده إلى الفأس الصغير المُتهالك، ورفعه فوق كتفه فى عصبية، وجذب المنديل، لكنه حملق فى الأرض عندما سقطت على أرضية المسجد ورقة صغيرة مطوية، فتحها فى شغف ليجد شيئاً جعله يطير فرحًا، ورقة مالية كبيرة من فئة المائة جنيه. لم ينتبه الشاب إلى الكلمات المكتوبة بالورقة، عاد وقرأ الورقة وهو جالس على ركبتيه، تساقطت دموعه من الدهشة:

- إيه ده، سبحان الله !!

كان عاصم قد كتب له :

لست مُزارعًا، ولاتعرف كيف تمسك فأسًا، إذا كنت تبحث عن عمل شريف، فاذهب إلى هذا العنوان، وقل لهم: إنك من طرف الشيخ عاصم الغول، وهم سيوجدون لك عملاً شريفًا، تُنفق منه على أسرتك . واذا رفضت، فأنت تحتاج أن تعيد حساباتك من جديد، لأنك تكذب !!

(هذا المبلغ هدية منى لأبناء ك الصغار،)، ليُعينك على أن تبدأ مرة أُخرى .

قرأ الشاب الورقة فى قلق، تلفت يمينًا ويسارًا، فلم يجد حوله شيئًا. كان الشيخ قد انطلق حاملاً جواله المجهول، ثم دلف إلى ذلك المبنى القصير ذو الحديقة الوارفة فى هدؤ، ودون أن يلحظه أحد .

****

## - 5 -

ونظرًا لظروف الجفاف، التى مرت بالمملكة فى العام الماضى، ومع استمرارهذه الظروف، قررت المملكة العربية السعودية أداء صلاة الاستسقاء اعتبارًا من اليوم، وعلى مدار يومين حتى صلاة الجُمعة القادمة، وتشكر كُل من سيؤديها من الأشقاء حتى يهطل المطر على البُقعة الطاهرة. كان تلفاز مقهى بيومى يُذيع الخبر، والشيخ عاصم يجلس بجوار صديقه (فؤاد فواز) وحولهم مجموعة من الأصدقاء، يُتابعون باهتمام، بينما جلس الأستاذ (فارس مُحى)، يتناول قهوته، وهو يضع ساقًا فوق ساق، فى عدم ارتياح، ظل صامتًا لكن حركات جسده كانت تشى بانفجار سيحدث قريبًا، لكنه صمت احتراماً لرفقائه، وكعادته سأل بيومى فى فضول :

- أول مرة أسمع عنها الصلاة دى، ابتسم عاصم وهو ينظر إلى فؤاد، الذى رد بمرح وهو يُحرك حواجبه الثقيلة، ويسحب نفسًا من صدره الذى يجثم عليه صديرى ثقيل وجاكت من الصوف الإنجليزى الفاخر.

- علشان أنت عايش طول عمرك فى إسكندرية، وغرقان أنت وأهلك فى الشتا، ها تسمع عنها فين يا بهيم . ضج المقهى بضحكة ماجنة اشترك فيها الجميع حتى، (نصر اليهودى)، الذى عادةً لا يُشاركهم أى شىء، ضحك على تلك الجُملة . فعقب بيومى .

- صح والله يا أُستاذ فؤاد، بس إحنا خايفين نصلوها هنا، نصحوا

مانلاقوش بيوتنا !!. ضج المقهى بالضحك مرةً، أُخرى وكأن الجميع قد إشتركوا فى جلسة أُنس مُكبرة . انفجر صوت الأستاذ فارس كالقنبلة.

- إيه الكلام الفارغ ده ؟!، كفاية تخريف بقى، العالم كله بيتقدم، وأنتم هاتفضلوا مُتخلفين، أنا زهقت!!، أنا هارجع روسيا تانى! أنا نفسيتى تعبت من التخلف ده، تابعوه وهو يغادر المقهى، لكن بيومى أكمل قائلاً:

- روح لجورباتشوف خليه يغسلهالك!! . وضج المقهى بالضحك، ليمسحوا قسوة الكلمات، لكن الشيخ عاصم والأستاذ فؤاد لم يضحكا هذه المرة، بل بدت المرارة واضحة على وجههما . تذكر عاصم ابنه (حسين )، فقال فى رجاء:

- اللهم أهدى العاصى، فغمغم الجميع يارب. زفر( نصر) فى ملل، تركهم ورحل دون سلام، فصرخ خميس الحلوانى

- صلاة الاستسقا جابت نتيجة ونضفتنا. ضحكوا كثيرًا . لكن الشيخ قال لهم:

- صلاة الاستسقاء سُنة مؤكدة، واستخدمها الرسول والخلفاء الراشدون من بعده؛ لجلب المطر

، وهى بإذن الله تؤتى بثمارها، شرط أن تؤدى بتقوى وصلاح . نظر له فؤاد قائلًا.وكأنه يريد للجميع الاستماع .

- نفس الموقف ده حصل، فى الجزائرمن كام سنة، مع صلاة الاستسقاء و الجماعة المُلحدين. ابتسم عاصم لفؤاد قائلاً

- آه!! قصدك، حادثة الشيخ الشعراوى، والملحدين وصلاة الاستسقاء.

فؤاد:أيوة .ده كان موقف غريب فعلاً . أطرأ الجميع آذانهم فى براءة تتنافى مع شواربهم الكثة وكروشهم الضخمة، وكأنهم عادوا أطفالاً يسترقون السمع لحواديت الجدات . انفلت لسان بيومى الأكثر فضولاً فى العالم قائلاً:

- إيه اللى حصل للشيخ الشعراوى يا عم عاصم ؟!.

- لما الشيخ الشعراوى كان فى بعثة تبع الأوقاف فى الجزائر، شح المطر، وكانت البلد فى حالة جفاف، واحتار الرئيس هوارى بومدين فى المشكلة اللى تسببت فى خُسارة كبيرة للاقتصاد، وساعتها اقترح الشيخ الشعراوى، والشيخ بلقايد، صلاة الاستسقاء على الحكومة والشعب، فما كان من بعض الشخصيات ذات المراكز الكبيرة فى الحكومة إلا أن اتهموهم بالجهل والتخلف، وأن المطر لا ينزل بهذه الطريقة ! بل يجب تحرى الأساليب العلمية فى إنزال المطر! وقبلوا التحدى وقالوا للشيخ الشعراوى

- أرنا كيف سينزل الله المطر! والعياذ بالله والعهدة عليهم. فما كان من الشيخ ومن معه من المؤمنين، إلا أن قاموا وصلوها، بينما جماعة العلمانين، والمُلحدين يقفون خارج المسجد، وماهى إلا دقائق بعد انتهاء الصلاة، وقد انهمر المطر بشدة، واضطر جميع من بالخارج إلى دخول المسجد وقد ابتلت ملابسهم تمامًا، وكأنهم قد سقطوا فى الماء، فابتسم الشيخ فى سعادة وحمد الله. ضج مقهى بيومى بالتكبير فى صوت واحد .

الله أكبر - ماشاء الله، الله أكبر ربنا يرحمه ويزيدكم. وفى قمة التهليل، ربتت يد على كتف الشيخ قائلة:

- أحسنت ياشيخ عاصم .

تلفت الشيخ عاصم إلى الرجل الخمسينى، الذى كان يبتسم له فى ثبات، كانت النعمة ظاهرة عليه، يرتدى جلباباً بنى فوقه عباءة مُطرزة بالقصب المُذهب وعلى رأسه، عمامة صعيدية بيضاء، وفى يده خاتم ذهبى كبير فى حجم البندقية وعصاته الأبنوسية الأنيقة، تشى بثراءٍ فاحش . بدا هذا الشخص غريبًا على عاصم، فلأول مرة يرى هذا الوجه فى الحى .فرد عليه بفتور .

- ربنا يكرمك

- ممكن نتكلم خمس دقائق فى الركن بعيد عن الجماعة ؟!

- حضرتك مين؟

- هاقولك على كل حاجة . انتقلا إلى الطرف الآخر الأكثر هدوًا فى المقهى، والذى اعتاد (نصرعبدالله)، التاجر المُرابى الجلوس فيه، لكنه غادر المقهى مُبكرًا فى هذه الليلة الغريبة .جلس عاصم فى توجس تحت بصر (الشلة ) التى كانت تنظر فى شك، إلى الرجل الغريب الذى انفرد بالشيخ فى تلك الساعة.

- محسوبك ( حنا عجايبى )، مقاول، وعندى عمارات فى الحى هنا ..

- أهلًا وسهلا

- أنا جاى أعرض عليك عرض، إن شاء الله يخليك تعيش بقيت عُمرك مرتاح.

ابتسم (عاصم ) وهويعلم باقى العرض، فارتشف رشفة من كوب الينسون وهو يقول:

- عاوز تشترى البيت وتهده، وتبنى مكانه عمارة جديدة .اندهش الرجل قليلاً، ولكنه ابتسم فى ثقة تاجر، يُجيد اللعب بالبيضة والحجر.

- اللى دلونى عليك، قالوا لى إنك ذكى . ابتسم عاصم وقرر أن يُشاركه اللُعبة قائلًا، وهو ينظر فى عينيه بقوة

- وقالوا لك عنى أيه كمان؟! . أكمل الرجل ثباته قائلًا :

- حكولى كتير الصراحة !. نظر له عاصم فى هدوء قاتل.

- وماخفتش؟

- بالعكس ده شجعنى أكتر إنى أقابلك .

- تشرفنا يا سيدى بالمقابلة، وبعدين؟!عايز أيه تانى

- عاوز أشترى البيت!! بصراحة الحتة تُحفة، وخسارة تفضل كده على بيت قديم بدورين . نظر له عاصم فى وجل.

- إنت مجنون ياجدع إنت !!ولا حد يقدر يعمل إللى بتقول عليه ده، أنا بس اللى ممكن يسكن البيت ده، والمُشكلة إنك سمعت الكلام اللى بيتقال ومع ذلك بتعاند!

- بص ياعم الحاج، الكلام ده كله إنت عامله، علشان ما تبعش، وكلها تخاريف، أنا ها دفع نص مليون جنيه تمن البيت، أنا عارف ظروفك، والعرض ده ممكن يخليك تعيش مرتاح باق حياتك . حدث عاصم نفسه ساخرًا وهو يبتسم ابتسامة مُزعجة جعلت وجه (حنا) يحمر توترًا. بعض البشر الجُهلاء يظنون أنهم ماداموا امتلكوا المال، فيمكنهم كسر كُل القوانين، حتى قوانين الكون غير المرئية . رد عليه بعبارة مُقتضبة وهو ينهض من أمامه

- أنا لو وافقت على العرض، ها تعيش إنت تعبان طول حياتك !!

****

## - 6 -

معامل السلام للتحاليل- د: محمد الشحات .

وقف (حسين ) يتطلع إلى اللافتة النيون مُستندًا على دراجته البُخارية الحمراء ماركة (جاوا)، مُرتديًا جاكيت من الجلد الأسود، وبنطلون جينز "ليفايس". كم هى رائعة محطة الرمل فى الشتاء. تطلع إلى أضواء المعمل، الساعة الآن الثامنة مساء، دقيقة وتنطفئ اللافتة. نظر فى سعادة إلى تذاكر حفلة التاسعة مساء، بسينما فريال، فيلم" شورت وفانلة وكاب" . دقائق أخرى، وجاءت تتهادى، كفرسٍ بريٍ جامح، لم يعرف الترويض بعدْ. جسد ممشوق، مُدر للتستوستيرون[1].، ملفوف فى بنطال من الجينز الأزرق الداكن، وتحته،(بادى ) هاي كول أبيض، وجاكيت من الجلد الهافان، وبوت من نفس اللون. فتح حسين فمه فى إعجاب، لكن سرعان ما زاره الغضب، عندما رأى مائة وعشرين زوجًا من العيون تخترقها!!. ساد الصمت الرهيب، فى القهوة التجارية، بمجرد مرورها أمامهم.احترق دمه، بينما قابلته هى بابتسامة ساخنة، وهى تُحرك شعرها الأسود الفاحم فى دلال، فرسم دور الغضب على وجهه، وان كانت أنزيماته الاخرى تئن!

مائة مرة قلت لأمك ما تعديش من قدام القهوة الزفت دى. ابتسمت، وهى تضع يدها الباردة فى جيب سترته المشتعلة من فوق جسده قائلة فى غُنج:

مشيرة: بتغير علىّ يا سحسى.حاول أن يتماسك قائلًا فى غضب:

---

(1) التستوستيرون (باللاتينية: Testosteronum) هو هرمون موجود لدى الذكور.

- أيوة طبعًا، وهانولّعو فى أى حد يبص عليكى.

مشيرة: طيب شد حيلك، واخطبنى علشان زيزو ابن عمى ها يجّنن ويتجوزنى، وكل يوم يزن على أمى، وأنا واقفالهم علشانك.

حسين: أنا والله سُقت عليهم ناس يا ما، بس مش عارف ليه راكبين دماغهم؟

مشيرة: معلش أصل إحنا مش قد المقام السامى ؟! بدت غاضبة ولكنها استطردت، وبعدين دى إسكندرية تِمًا ما فيهاش زى حلاوتى ولا جسمى !! فلتت منه كلمة كادت تفسد الليلة:

- ما هو ده اللى مخوفهم؟!

مشيرة: تقصد أيه يا حسين ؟ أنا مشى بطال؟ طيب بتمشى معايا ليه يا عين أمك، أنا ماشية. جذبها من ذراعها فى استعطاف قائلاً:

- لا يا مشمش، ماعاش اللى يقول كده، بس هما ليهم تفكيرهم، وربنا يسهل،ها نزورو أهلك عن قريب. تأبط ذراعها وقادها إلى رُدهة صالة السينما، جلس بجوارها فى استرخاء، بكت مشيرة عندما أخذوا بطلة الفيلم (نور) من حبيبها أحمد السقا، وقبضت الشُرطة عليه، أما هو فقد أعجبه المشهد الذى تزوج البطل فيه حبيبته (ابنة الوزير)، على مرأى ومسمع من العالم، ومن كاميرات التليفزيون، التى كانت تُغطى المؤتمر الاقتصادى. أخذ يُفكر فى ظلام السينما:

- لازم تعمل حاجة، ياحسين قبل البت ما تروح منك – هو يعنى أحمد السقا أجدع منك فى أيه ؟!ابتسم ابتسامة خافتة فى الظلام، وهو يمسك بيد (مُشيرة)، خرجا من الفيلم مُتأثرين بنهايته السعيدة، كانا يضحكان، وإن بدت ابتسامتها متوترة، ووجهها يبدو وكأنه أحد تماثيل (مدام توسو) الشمعية [2] .

---

2) سمي هذا المتحف نسبةً إلى مدام توسو مؤسستهُ. ولدت مدام توسو التي أسست هذا المتحف عام 1761 في ستراسبورغ، ويعد أشهر متحف للشمع في العالم .

ابتسم لها قائلًا : تتعشى . أومأت برأسها موافقة، اندهش من موافقتها سريعًا فلقد كانت، الساعة قد قاربت من منتصف الليل. اشترى ساندويتشات الفول والفلافل من مطعم (جاد )القريب من السينما .سارا متأبطين أمام فندق سيسل، عبرا طريق الكورنيش، واستقرا على البحر مُعطيين ظهرهما للشارع، وهما يُراقبان المراكب، وقد انعكست أضواء قلعة قايتباى المُهرة عليها، فبدت وكأنها ألعابًا مُلونة، تسير فى ظلام البحر. قال لها :

أول مرة ما تبقيش مستعجلة بعد السينما، ابتسمت، ابتسامة باهتة:

- أُمى، النهاردة، بايتة عند خالتى فى بحرى. قطب حاجبيه فى استنكار قائلاً:

- وازاى تسيبك مع جوزها لوحدكم؟!:

- عنده نقلة النهاردة فى أسيوط ؟! هوَ قالُها كده ؟!

. كانت تنظر إلى صفحة المياة فى حزن، والدموع تتحجر فى مُقلتيها. أعطاها ساندويتش، فأشاحت بوجهها قليلاً، سألها فى قلق:

- قالها كدة؟! يعنى ما سافرش؟!

مدت يدها فى جيبه، وأخرجت علبة السجائرالكيلوباترا البوكس، تناولت واحدة وأشعلتها فى حزن، وهى تنظر فى شرود لصفحات المياة، وقد بدت غائبة عن الدُنيا قائلة:

- ياريته كان سافر.

حسين:فيه إيه ؟!مالك

مشيرة:لأ مافيش ! تعالى روحنى ؟!

ركبت خلفه على الدراجة البُخارية، فانطلق مُتوغلاً فى عُمق الشوارع الجانبية، بينما المطر قد بدأ يُعلن عن (نوة ) شديدة القوة .وصلا سريعًا،بدا المنزل مُظلمًا، والشتاء قارس. كانت تصرفاتها غريبة فى تلك الليلة، لأول مرة - 7

تتركه يصل بها إلى باب المنزل، دون أن تعبأ بالقيل والقال، لكنه قال لنفسه:

- يمكن علشان الدنيا شتا، والشارع فاضى، سمع صوتها وهو يرتجف:

- معلش، اطلع معايا وصلنى --- أنا خايفة ؟! رد عليها فى دهشة:

- إنتى مش خايفة إن حد يشوفنا ؟

- اطلع بس ؟!

كان الشارع خاليًا ومدخل البيت القديم مُظلمًا تمامًا. صعدا على الدرجات الحجرية القديمة، وهما يُمسكان ببعضهما، ويستندان إلى الدرابزين الخشبى القديم.كان الظلام موحشًا، ورائحة العطن تفوح من جنبات المنزل القديم، زاد صوت الرعد من اصطكاك أسنانهما.دوت صرخة من تحت قدميهما لشىء يجرى بسرعة، جمدت الدماء فى عروق( حسين) بينما شهقت (مُشيرة) وهى تتنفس بصوت مسموع، فلقد كانت الصرخة لقطٍ سخيف قررالنزول من على الدرج فى ذلك التوقيت الغيرمناسب، فداست مُشيرة على قدمه.

صعدا الأدوار الثلاثة فى مشقة، وكأنهما يصعدان الهرم، فلقد أنهكهما الخوف تمامًا، وبالكاد وصلا إلى سطح المنزل، حيث تسكن مُشيرة وأُمها، وزوجها( سبع الليل مناع )، فى غرفتين خشبيتين تصحبهما (عفشة مياة ) غاية فى القذارة، كانت مُشيرة تسكن فى واحدة، بينما زوج أُمها الخرتيت وزوجته (حميدة أبو النور) يسكنان الحُجرة المُلاصقة، وبالطبع كانت أعظم هوايات (سبع الليل)، هى التلصص على جسد مُشيرة الفائر، من بين ثقوب الغُرفة الخشبية التى لا تستر شيئًا، أو تعمد الاصطدام بها بمناسبة وبدون! كطريقة بدائية ومكشوفة من طرق التحرش. عبرا باب السطوح الخشبى، لاحظ حسين ذلك السلم الخشبى المُرتفع بشكل حلزونى فى الهواء، أكثرمن ثلاثة أمتار، ينتهى بغية حمام خضراء كبيرة تسبح فى الفضاء كقُبة ولى من أولياء الله، تستخدمها أمها( حميدة ) فى تربية الحمام وبعض الدواجن، وفى تخزين عدة الغسيل،

من (بواجير) و(طشوط ) وعصيان خشبية، ويستخدمها( سبع الليل)، أحياناً لمزاجه. ظهرت فى الطرف الآخرلسطح المنزل حُجرة أسمنتية مُتوسطة، يُلاصقها حُجرة خشبية بها عدد لابأس به من الثُقوب. لم تُمهله مُشيرة كثيرًا بل فتحت الباب سريعًا، ليسقط حسين بعدها على ركبتيه، ويُفرغ ما فى جوفه .

****

## - 7 -

لم يُصدق (حسين) ما رأى، بمُجرد أن أضاءت (مُشيرة) مصباح الغرفة، التى تحولت إلى سلخانة بشرية! قطع آدمية، رأس، وأفخاذ سمينة، وبجوارهم، كمية كبيرة من الأكياس السوداء، ومنشار حدادى ضخم، و أنواع مُختلفة من السواطير. ظل يُفرغ ما فى جوفه وهو يصرخ:

- أيه ده !!، الله يخربيتك، ويخربيت الليلة السودة دى . قالت مُشيرة بتوتر:

- ده سبع الليل!جوز أمى، بصقت عليه فى اشمئزاز، ثُم استطردت وهى تبكى، مُحاولةً أن تستدر عطفه:

- الكلب ده، فهم أمى إنه مسافر، وعرف إنها رايحة تبات عند خالتى المريضة، علشان ترعاها بعد العملية، واستنى ودخل علىّ وأنا نايمة على الكنبة، وكبس على نفسى، قاومته ووقعته من فوق الكنبة، جريت وسحبت السكينة، وغرزتها فى كرشه .شعر أنه قد دخل كابوساً رهيباً بقدمه اليُسرى،ولايعرف كيف يخرج منه، تراجع عدة خطوات فى ذهول، فانتبهت مُشيرة إلى أنه قد يُفكر فى الهرب فأخذت تبكى وتستعطفه:

- أرجوك ياحبيبى ساعدنى نخلص من البلوة دى، قبل ما حد يصحى، لسة قدامنا كام ساعة على لفجر، والدنيا شتا والشارع كُحل . كانت يده ترتعد من البرد ومن المشهد المُخيف، فقال لها :

- لأ مش هاعمل كده، مش قادر. نظرت له نظرات ساخنة وهى ترتمى فى حضنه قائلة:

- احمينى يا حسين، مش أنا حبيبتك برضه، أنا عملت كده علشان أحافظ على شرفك، وإنت كده بتدافع عن شرفك!! تعالى معايا، وأنا هاريحك. شعربالخُدريسرى فى أعصابه، من جراء ملامستها المُستمرة، لأجزاء حساسة من جسده، سحبته على غرفتها، وأغلقت الباب، دفعته فى دلال فوق سريرها وهى تقول له فى همسٍ ماجن:

- أيه رأيك فى سريرى، رهيب مش كده ؟! ولسة هاوريك ؟! ضحكت بصوتٍ هامس، فشعربدوار، أمسكت يده فى نُعومة، وكشفت ذراعه، حاول أن يُخفى ندبات الحُقن المُخدرة عنها، لكنها بالعكس قبلتها فى شبقٍ أصابه بالجنون، وهى تقول:

- خُد راحتك ياحبيبى، مفيش حد مالوش مزاج، أنت ناسى إنى مُمرضة، أنا عارفة من أول يوم، وعلشان تعرف إنى بحبك هاضرب معاك أنا كمان .انثنت أمامه وهى تُخرج دستة من الأمبولات المُخدرة، أخرجت منها أمبولاً، وبمهارة فائقة أفرغت سائلة البُنى فى الحُقنة الرفيعة، وأمسكت بيده فى دلال، وهى تدفع بالسائل البارد فى عروقه، اشتعل جسده عندما كشفت ذراعها، وأفرغت الأمبول الآخرفى عروقها. صرخت فى انتشاء، ثم احتضنته، وسقطت بجواره على سريرها .

****

# - 8 -

اليوم التالى

حالة لا مُتناهية من النشوة قد دبت فى جسد حسين، وهو يعمل معها فى تعبئة وتقطيع جُثة( سبع الليل) من الليلة الماضية . كان تأثيرها، وتأثير الحُقنة المُخدرة، قد أصابه بحالة لا مُتناهية من النيرفانا، لم يحصل على سعادة بهذا الحجم من قبل !! ولذلك فقد سار خلفها مُخدرًا، ونجحت هى فى قيادته، عشرون كيسًا من الحجم الكبير امتلأت بهم جُثة سبع الليل مناع . قال لها ضاحكًا بعدما عاد من رحلة توزيع، ألقى فيها ثمانية أكياس للكلاب فى عدة مناطق نائية مُتفرقة :

- سبع الليل ده، فشر العجل! ده مُمكن ياكل حى بحاله، ضحكت قائلة، وهى تقوم بتشفيته بمهارة تفوق جزارى المذبح :

- طيب خلص يا ظريف، لسه‌عندنا شُغل كتير، أحسن نتكشف، أمى جاية بُكرة ولازم نخلصوا على العجل ده قبل ما تيجى . وضعت مجموعة من الأكياس داخل جوال فارغ كبير وقالت له:

مشيرة:هانستنوا آخر الليل، ونحدفوهم زى ما عملنا إمبارح .نظر إلى الهيكل العظمى المُغطى بأحد ملاءات السرير قائلاً:

- وهانعملوا أيه فى المُصيبة دى؟ قالت فى هدؤ، وكأنها ليست المرة الأولى .

مشيرة:- هانشوفله صرفة! ما تقلقش، بس فى حاجة لازم نعملوها الأول ؟

حسين:أيه هى؟

- خلاص، إحنا بقينا شركاء فى المصيبة دى، وما ينفعش نسيب بعض. نظر لها فى شبق قائلاً:

- ما ينفعش حد يعرفك ويسيبك يا مشمشة، نظرت له فى حزم:

- مش بالكلام – لازم نتجوزوا النهاردة ؟! .

- بس !!، قاطعته فى غضب:

مشيرة:لازم النهاردة نخلص، أنت مصلحتك معايا، وأديك شفت .

- آه شفت، بس إنتى ودتينى فى داهية! ابتسمت بوجه مكشوف :

- كُل شىء بتمنه يا حبيبى؟! نظر لها فى اندهاش لكنها أردفت:

- ماتستغربش قوى كده؟! إنت ساعدتنى، وأنا ساعدتك، وكده خالصين، وماتنساش أنت بتحتاج كيفك، وأنا أقدر أجيب، وببلاش، وأديك بتظبط من كُله !

حسين: آه يا بنت الكلب، كنت فاكرك سهلة.

مشيرة :السهل بيتاكل فى الزمن ده يا حبيبى !! خليك مع مشمش حبيبتك تكسب.لم يكن مُنزعجًا من كلامها، بل كان يحتاج شخصية قوية مثلها

الساعة الواحدة صباحًا.

هبطا السُلم العتيق، بعدما تأكدا من خلوه من السُكان، فلقد كان الشتاء لايزال يُلقى بظلاله الثقيلةعلى أهل الإسكندرية، مما دفع الجميع للجؤ مُبكرًا إلى منازلهم . كان السُلم مُظلمًا تمامًا، فأشعرهما ذلك بالراحة، حمل حسين الجوال الثقيل على كتفه بينما سارت هى خلفه تحمل حقيبة حمراء كبيرة، عاد

بها سبع الليل مؤخرًا بعد رحلة عمل فاشلة من ليبيا . فاجأهم صوت سُعال ثقيل على باب البيت، لمحته مُشيرة فى الظلام، بجسده الضخم وصلعته التى تلمع على ضوء عمود الإنارة الخارجي، ورائحة المعسل الثقيلة التى تُغطى ملابسه، إنه (لمعى ) صاحب المنزل، وصاحب محمصة للب والسودانى، وزوج مدام( أزهار)، والتى يطلق عليها العوازل، والجارات الكارهات، اسم "مدام حنفى" نظرًا للشبه القاتل بينها وبين الفنان العظيم (إسماعيل يس ) فى فيلم الآنسة حنفى، لكنها تتمتع بغرور وثقل ظل تحسده عليها أنثى الطاووس. عندما شكت (أزهار) لزوجها (لمعى) من اللقب، لم يتزعج كثيراً، فهو أكثر شخص فى العالم يراها قبيحة، بل هو يئن تحت هذا الكم من القبح، لكن المنازل، والعقارات حولت القرد إلى غزال. تراجعا قليلًا، ولحسن حظهما أنه كان مسطولاً، فلم يتمكن من رؤية شيء .اختبئا قليلًا فى بئر السلم، ريثما يصعد لمعى السلم فى الظلام، ويختفى داخل شقته، إلا أنه كسر توقعاتهما، حيث شعر بشيء يتحرك فى الظلام، فعاد وهبط الدرجات واقترب من ذلك التجويف المُظلم فى بئر السلم، ليجدهما متكومان هناك كزوج من القطط الخائفة .

- إيه ده، استنوا إنتوا مين .أطلق صيحته كعسكرى دورية، إلا أن عاجلته ضربة قوية، من جسم جلدى، أسقطته أرضاً، وفرا بعدها. وهو يصرخ:

- آه – عورتونى ياولاد الكلب.

اقتربت دراجته الجاوا، من منطقة المجيرة القديمة على الأطراف الغربية من الإسكندرية أطفأ الأنوار، ونزلت (مُشيرة) ترتدى عباءة سوداء ومعها الحقيبة الحمراء، التى حملت عظام (سبع الليل). وقف حسين وفى ذلك الليل الموحش، يُتابع الحركة السريعة للسيارات على الطريق، قذف إليها بمعول صغير، حيث دخلت إلى المجيرة، وهو ينظر يمينًا ويسارًا للطريق. اقتربت مُشيرة

من إحدى (الجور) الغائرة، وحفرت فى حرص، حتى وصلت إلى عُمقٍ كاف، وأخرجت الحقيبة، وأفرغت عظام سبع الليل بداخلها فى عصبية، ثم أهالت عليها الجير، الذى أصابها بسُعال شديد، وحول لون جلبابها الأسود إلى أبيض. أنهت عملها ودفنت الحقيبة فى مكان بعيد، كادت تخرج، إلا أنها سمعت صوت سارينة سيارة شرطة تقترب، وصوت موتوسيكل حسين ينطلق بعيدًا، فاختبأت بين مجموعة من البراميل الفارغة.

****

## - 9 -

- الولد بقاله مدة طويلة برا البيت، أنا خايفة يكون جرى له حاجة ؟

كانت الحاجّة فيروز تجلس في صالة المنزل، وأمامها صينية نُحاسية عتيقة عليها أكواب صغيرة مُذهبة، و(سبرتاية) صغيرة، فوقها (كنكة) نُحاسية جميلة، وأمامها عاصم، يجلس مُستمتعًا بكوب القهوة المُحوجة العظيم الذى تُعده، بينما بدت يدها مُرتعشة . كان صامتًا، فدفعته بالجملة المصرية الشهيرة

- ما تقول حاجة ياراجل؟!

عاصم: ها نقول أيه، لا إله إلا الله .

فيروز: محمد رسول الله، يعنى مش ها تقوم تدور عليه ؟! ياراجل ساعده. ارتشف آخر قطرة من القهوة، وهو يبتسم فى يأس قائلاً:

- أساعده ؟!هو مش قادر يساعد نفسه، ضيعت فلوس كتير على علاجه من الإدمان، ومفيش فايدة! لا بيثبت فى شُغلانة، ولابينفع فى حاجة، بعته الوكالة يشتغل مع محروس ابن عمه، بهدله وسمعه كلام زفت! وطايح بالموتسيكل بتاعه فى إسكندرية كُلها، هو والبت المُرضة الصايعة، بنت حميدة، اللى عاوز يتجوزها.

فيروز: مش يمكن حاله ينصلح لما يتجوزها؟ وأهى برضه أمها غلبانة ومنكسرة وبتساعدنى.

عاصم: أنا ما ليش دعوة بأمها،غلبانة ومنكسرة، بس مش قادرة عليها،

وبعدين، صمت قليلًا ثم قال، أستغفر الله العظيم ماتخلينيش أقول كلام أكتر من كده، علشان الذنوب. صمتت ومصمصت شفتيها قائلة، أستغفر الله العظيم .

- تصبحي على خير،علشان ألحق ميعاد صحياني.استبد به القلق لغياب حسين هذه المُدة الطويلة، لكنه بدا أمامها غير مُهتم، حتى تتوقف هى عن القلق عليه، لقد دللته كثيرًا،بعدما أصبح الحيلة، وهذه هى النتيجة، صار نبتًا شيطانياً لن ينفعهم بشىء. صلى ركعتين ودعا له كثيرًا، ثُم نام. رآه يسير فى ردهة مُستشفى كبيرة بدراجته النارية الحمراء، و(مُشيرة) تنتظره فى نهاية الرُدهة الطويلة، وهى تجلس فى خلاعة، كان يسيربصعوبة،ف مع كُل خطوة كانت تروس الدراجة، تُمزق قطعة من ساقه، فينزف دمًا، وكلما زادت سرعتها، زاد نزيف الدم من ساقيه، حتى تحولت أرضية المُستشفى البيضاء، إلى بركة عميقة من الدماء غرق فيها (حسين) و(مُشيرة):

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .نهض وجلس فى سريره مفزوعًا، امتدت يدها له بكوب ماء قائلةً

- مالك بس يا بو فُضيل – وحد الله يا خويا .

- لا إله إلا الله . نهض من سريره واتجه إلى الحوض الكبير، توضأ، وتناول طعام إفطاره على عجل، وخرج إلى الشارع الكبير

****

## - 10 -

اليوم التالى.

الساعة الثامنة والربع مساء

نزلت (مُشيرة) من المعمل، فوجدته مُستندًا كعادته على دراجته البخارية، لم يكن فى حالة مزاجية عالية، ويُدخن بشراهة، حدجته بنظرة نارية وهى تقول:

- كويس اللى إنت عملته إمبارح، أنا كنت هاموت من الخوف والبرد، نظر يمينًا ويسارًا قائلاً:

- ما ينفعش هنا، اركبى .انطلق بها حيث وقفا أمام قلعة قايتباى، البحر فى هذه البقعة هادئ، وله تاريخ عظيم. وقف بجوارها متوترًا، بينما سألته غاضبة:

- إزاى تسيبنى إمبارح وتهرب كده .ابتسم فى برود

- يعنى كُنتى عاوزانى أعمل فيها شجيع، واتعارك مع الحكومة ؟!

- طب كُنت رَجعت وأخدتنى؟.

- حاولت لكنهم كانوا واقفين بيلفوا فى المنطقة، وبعدين لما لقيتك استخبيتى، اطمئنيت عليكى. ابتسمت فى سُخرية، وتأكد لها حُسن اختيارها له، جبان، ومُستهتر، وضعيف، خامة طيبة للانقياد! لانت لهجتها، وكأنها اقتنعت بكلماته.

- أنا كنت ها موت، وفضلت قاعدة فى مكانى، استحملت الأذى، والبرد، والحشرات لحد الفجر ما شقشق، وشاورت لعربية خضار كانت معدية ومروحة

البلد. كان ينظر فى الأفق وكأنه يسبح فى ملكوت آخر، وهو يرتجف من البرد فقالت له، وهى تلتصق به من الخلف:

- مش هانفذوا اتفاقنا بقى، أنت واحشنى جدًا. كان مُترددًا فلم يُعقب لكنها عاجلته فى دلال:

- خلاص ياحبيبى، إحنا بقينا شُركاء فى الموضوع ده، سواء تمينا المشوار، أم لأ، عمومًا إنت الخسران!

كان شاردًا يُفكر، لقد زلت قدمه فى المُستنقع، وما كان قد كان. إذًا فليستمتع بالحياة لآخر قطرة، وليتزوج تلك الماكينة الألمانية الجبارة، والتى ستوفر له أهم شيئين فى حياته، الحُقن والحُب. كان مُتجهًا ناحية منزلها، لكنه عدّل اتجاه دراجته البُخارية، وسار فى اتجاه آخر، أما هى، فلم تتحدث معه مُطلقاً، كانت تشعر بالمعركة التى تدور فى رأسه، فتركته يحسمها بمفرده؛ لأنها مُتأكدة من كونه سيختارها فى النهاية، بعدما ذاق السُم والعسل فى آنٍ واحد!.هى تحتاجه أكثر ما يحتاجها، فهو فى هذه المرحلة أفضل ما تطلبه. قوى كالثور، ضعيف الشخصية، يسير وراء رغباته، كما يسير الكلب الجائع خلف قطعة من اللحم، ليس غنيًا، لكن أهله ناس مستورين، ويسكنون فى بيتهم الملك، الذى سيؤول إليه بعد موت والديه.كما أن بيئته أنظف، وسُمعتهم طيبة فى الحارة. وقف أمام بيت صغير فى منطقة( المنشية )، جذبها من يدها، وصعدا إلى الدور الثانى، وقفا أمام باب خشبى أحمر اللون، مُعلق عليه يافطة نُحاسية—(محمد المناهرى ) مأذون شرعى، دق الجرس، ففتح لهما شاب فى العشرينات، يرتدى لباسًا أزهريًا. كان الشاب وسيمًا جدًا، وفى وجهه علامات السماح، جعل تلك الشيطانة تستملحه! إلا أنه هرب منها ببصره وهو يتلو آياتٍ من سورة يوسف. اغتاظ حسين قليلاً، عندما لاحظ ذلك، فقال له بحدة :

- إنت المأذون، ابتسم الشيخ الصغير قائلاً:

- لا أنا ابنه ومساعده، هل جئتم فى زواج، أم لا قدر الله فى طلاق. قالت له فى خلاعة:

- حرام عليك يا مولانا، إحنا لسة مادخلناش دُنيا، بدا وكأنه يُسمّع ما يحفظه من والده :

- إذن سأذهب وأستدعى الشهود. تفضلوا فى غرفة المكتب، ريثما يأتى الشيخ. دخلا غُرفة المكتب، غرفة بسيطة، بها طقم مكتب أرابيسك رائع مكون من مكتب أنيق منقوش عليه بعض أسماء الله، الحسنى، وأربعة كراسى، كل كرسى على رأسه اسمًا من أسماء الله الحُسنى، أو حكمة جميلة، "الرزاق"، "الواسع"، "حُسن الظن من حُسن الفطن"، مكتوبة بخط كوفى مُنمق . دخل رجل وقور أبيض الوجه واللحية، نموذجًا مُكبرًا من الشيخ الصغير يزيد عنه، كرش بارز، وأرداف مُمتلئة، كان فى تمام الصحة، وهو يقول عبارته التاريخية:

- زواج مبارك إن شاء الله .. أخرج دفتره الكبير، ماركة الشمرلى، وأخذ يدون التاريخ وبعض المعلومات، وهو يتفرس فى ملامحهم جيداً، وكأنه يتأكد من أهليتهم، فقال لهم:

- على ما الشيخ محمود يأتى بالشهود، من فضلكم أعطونى البطايق، مدت مُشيرة يدها فى جيب بنطالها الجينز، لتخرج البطاقة فى ثوانٍ، لكن (حسين) أخذ يُقلب فى جيوب سترته فى قلق، كما انتقل القلق إليها هى الأُخرى قائلة:

- فيه إيه؟

إنتفض حسين واقفاً، وهو يُقلب داخل جيب قميصه، وفى جيوب سرواله.

- مش عارف كانت هنا، فى جيب الجاكيت، لكن مش عارف راحت فين؟!، امتقع وجهها، فلايجب أن تضيع البطاقة فى ذلك اليوم النحس أبدًا .

****

## - 11 -

عادت إلى منزلها مُحطمة، كانت تُحدث نفسها فى الشارع، غير عابئة بنظرات شباب الحى التى تلتهمها

طول عمر حظك زفت يا مُشيرة. ما هو لو كان عدل ما كانش(زفت الليل) ده وقع فى طريقك، وما كانتش بطاقة المعدول ضاعت .إيييه .

اقتربت من سطح المنزل، حيث تسكن، اقتحمت أنفها روائح المُنظفات النفاذة، كلور، بوتاسا كاوية، وصابون غسيل رخيص. وسمعت هسهسات أربعة (بواجير جاز) كبيرة الحجم تأكدت من عودة أمُها من عند خالتها. لا تتوقف عن الغسيل للجيران وللزبائن، لدرجة أنها قد صارت تعرفها من رائحة الكلوروالمنظفات التى لا تُفارقها أبداً، والتى باتت جُزءًا منها . كادت مُشيرة أن تُصاب بالجنون، عندما وجدت (حميدة) تجلس أمام "طشت الغسيل"، مُرتدية جلبابًا بُنيًا فقيرًا، به ورود فاقعة اللون خالية من الذوق وتحته سروالًا أسود باهت، وعلى وجهها أسى،وهمّ العالم أجمع . ندت شهقة فزع خافتة من مشيرة، وهى تنظر إلى (عُشة الحمام) الخضراء، وهى تحدث نفسها :

- يا دى المُصيبة ؟! حاولت أن تتماسك، وهى تقول بصوت مُتهدج .

- إزيك ياما ؟.

لم ترد (حميدة) بل أكملت (فُم الغسيل) حتى نهايته!!

كانت العلاقة قد ساءت بينهما كثيرًا فى الآونة الأخيرة، وبالطبع كان لسبع الليل دور لايقل عن دور "هيلارى" فى الربيع العربى .بعدما انتهت حميدة، نهضت فى هدؤ قائلة:

- كُنتِ فين ؟

- مشيرة: يووه ... هو أنتِ كل ما تشوفينى، مفيش غير السؤال ده؟!،كُنت فى الشغل

- كدابة، كنتِ مع الواد الصايع ابن الحاجة فيروز.

مشيرة :أيوة .. وها نتجوزوا كمان .

- أمه كانت هنا وبتشتكى منك، ومش عاوزاك لابنها . قطبت (مشيرة) حاجبيها فى غضب

- إيه اللى جابها هنا ؟!

حميدة: كانت عاوزانى علشان أغسلها .

مشيرة: هو أنتِ مش ها تبطلى الزفت ده، والولية دى بالذات ..بلاش ؟!

حميدة: هى دى أول مرة، احنا بقالنا سنين على كده . صَرَخَتْ فى غضب:

مشيرة: دى ولية سِمّاوية وشايفة نفسها أحسن من الكل . نظرت(حميدة) لابنتها فى حزن، لقد تعبت كثيرًا حتى تجعلها إنسانة صالحة، كم سهرت الليالى مُنكبة على(طشت) الغسيل البارد فى ليالى الشتاء حتى توفر لها مصاريف الدراسة، والطعام، والملبس المناسب، لكنها للأسف بدت كنبتة شيطانية وسط حقل قمح، لا تعرف متى وأين تسرب كل هذا الكم من الشر والحقد داخل نفسها ! قالت لها حميدة :

- لما أبوكِ مات وأنتِ لسة صغيرة، ماحدش شالنا غيرها، وياما أكلتك، وشالتك لكن نقول إيه، قليلة الأصل وناكرة جميل ... لو كنت أعرف أنك زرعة

شيطانى كنت بركت عليكِ موتك .صمتت (مُشيرة)، فلقد ذكر أحدهم القتل الآن. لكنها ردت فى تحفز:

- هاتجوزه، غصب عنك وعنهم .

حميدة: عاشقاه إياك؟ لاهو اللى زيك يعرف حُب ولاعشق .كانت (مُشيرة) فى كل لحظة، ترفع رأسها وتنظر فى اتجاه غية الحمام

مشيرة:أهو عيشة، أحسن من العيشة الزفت مع جوزك البغل . تغيرت ملامح (حميدة) وسقطت الدموع من عينها، وهى تمد يدها تحت الأريكة وتلقى بكيس بلاستيكى أسود تحت قدم (مُشيرة) وهى تقول لها .

- سبع الليل ما كلمنيش من يوم ما سافر، دى خلجاته اللى كان مسافر بيها، فيها دم وفى عشة الحمام، أمسكت بتلابيبها فى غضب وكأن جانًا مسها، بينما تسمرت مشيرة من هول الصدمة.

حميدة: عملتى كده ليه يا مُشيرة، وفين جثته ؟؟

مشيرة: وأنا أيش عرفنى ياما، أنا كُنت فى شُغلى وجيت نمت. أكملت حميدة، وكأنها لم تسمعها :

حميدة: طول عمرك، وأنتِ لكِ غية فى قتل خلج الله، ولا نسيا إياك القطط والكلاب اللى كنتِ مالية بهم السطح، وبتعطهم من الجزايز اللى بتحضريها بيدك !!. طول عمرك بتحبى القتل، كيف عندك، كانت مُشيرة تتنفس فى غضب بينما أمها مُسترسلة فى الكلام. وسط نوبة بُكاء هيستيرية:

- ده جالّى إنه مسافروعطانى فلوس علشان زيارة أختى، أيه اللى خلاه عاود تانى .لم تتمكن من كبح جماحها هذه المرة وقالت لها وهى تبكى.

مشيرة:اسألى نفسك أيه اللى رجعه تانى، علشان هو قذر، وطول عمره بيأذينى، وياما اشتكيت لكِ، وأنتِ كُنتِ بتبصى لنفسك وبس ! مش مهم شرف بنتك ولا لحمها اللى بيتعرى !! حتى لما كبرت، رمتينى فى أودة خشب وسخة الحمام

بتاعك عايش فى واحدة أحسن منها. كانت (حميدة) جالسة على الأرض تولول، بينما تحولت مُشيرة إلى نمرة جائعة، تُثيرها رائحة الدم .

مشيرة: أنا كنت هانلم هدومى ونعيشوا فى شُقة مفروشة، من أول الشه، لحد ما نتجوزوا أنا و(حسين )، لكن الكلب ده دخل علىّ وأنا نايمة، وعلشان كده خلصنا عليه .

- ليه كده يا مشيرة – ليه كدة؟ . كانت قد جمعت متعلقاتها فى حقيبة كبيرة، وارتدت ملابسها وقررت مغادرة السطوح .

- خلاص ياما –ياروح ما بعدك روح، بس لو بلغتى عنى، أو قلتى حاجة هانزعلوا منك، لم تتخيل حميدة أنها ستسمع تلك الكلمة من تلك القطة البريئة اليتيمة التى بُريت يدها من غسيل الملابس حتى تُطعمُها وتُعلمها، ولكنها سمعتها وهى تنظر لها بشراسة مُتناهية .

- وأديكى يامَا، شُفتى زعلى وحش إزاى ؟؟!

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ»[3]

****

3) سورة التغابن، آية : 14.

## - 12 -

ثلاثة أسابيع كاملة، داخ دوخة (ينى) فى بلاد المُسلمين، حتى ختم البطاقة الجديدة، واستوفى باقى الشروط. شعر أنه قد عبر المانش الإنجليزى، بمجرد أن نادت الموظفة الكئيبة على اسمه، بصوتها الرفيع الممطوط

- (حسين عاصم الغول) .

- أفندم، قالها بفخر شاب، يقف فى منطقة تجنيد العامرية. استلم البطاقة، تأملها قليلًا، ثم اتجه بدراجته البُخارية ناحية محطة الرمل، وجلس على المقهى ينتظر مُشيرة ريثما تنتهى من عملها، أنطلقا مرة أخرى إلى مكتب الشيخ (محمد المناهرى)،حيث أتما زواجهما، ثم اتجها بعد ذلك إلى منزل (حسين).. ٢ حارة الغول.

صرخة مُدوية، أطلقتها الحاجّة فيروز، وهى ترى ابنها (حُسين)، وهو يدفع باب الشقة، ويقف ب- (مُشيرة )، التى وضعت حقيبة كبيرة أمامها .

- خلاص تجوزتها؟!اهو إحنا مالناش أى كرامة عندك ؟

حسين:ياما إهدى وأنا هافهمك، أُمها طردتها ودى غلبانة ومالهاش حد .

- أهدى إيه، بقالك مدة غايب واحنا قلقانين عليك، وفى النهاية، جاى ومعاك دى !خلاص يا بنى عليه العوض، أنا كنت حايشة عنك أبوك، اتصرفوا سوا، وقفت مُشيرة فى حالة لامبالاة وهى تنظر إلى سقف الغرفة فى ملل، بينما الأُخرى تصب غضبها على ابنها

- مالقيتش غيردى، تتجوزها. هنا كشرت مُشيرة عن أنيابها:

- بقولك أيه يا ست أنتِ، أنا محترماكِ علشان أنتِ قد أمى، لكن ماتغلطيش، بدأ فاصل من الاشتباك بين فيروزومشيرة، حيث مدت (فيروزيدها) وضربت( مُشيرة)على وجهها، قائلة:

- أمك، هو أنتِ بتحترمى أمك من الأساس، الست اشتكت منك، وحطت صوابعها فى الشق، من أيام ما كانت بتشتغل عندنا فى البيت الكبيرزمان .

مشيرة : خلاص ياحاجة - الله يرحم أيام زمان، الحال من بعضه دلوقتى!!

فيروز: فضل ونعمة يا حبيبتى، المهم الرضا، وأنتِ وهو، ملعونين، ولا بترضوا بنصيبكم أبدًا .

كانت مشاجرة النسوة قد اجتذبت عددًا كبيرًا من الجارات، منهن من جاء من أجل الفضول، والأغلب جاء لمحاولة تهدأة الأوضاع ! ظن عاصم بأن مكروهًا حدث لزوجته، لكنه عرف ما حدث من ابنه، دخل وشهد المشاجرة بين (فيروز)، و(مشيرة )، بينما ابنه( حسين)، يقف بينهما كشبكة الكرة الطائرة، وهويحاول ألا تعتدى إحداهماعلى الأخرى. دخل الأب إلى المنزل المُزدحم بالجيران فى حزم، والفضائح تذاع بث مُباشرعلى الهواء! فقال بحكمة :

- خلاص مش عاوز حد يتكلم، شكرًا ياجماعة تفضلوا، نجيلكم فى الخير. كان قلبه مُنقبضًا،عندما تذكر الحلم الذى حلم به فى الصباح الباكر، لقد وقع ابنه فى الشر، وما كان قد كان، وطرده قد يُزيد الطين بلة، الأمر لله، نظر له فى حزن قائلًا .

- دخلها غرفتك، وتعالى نقعد شوية على القهوة.أذعن له فى صمت بينما قال لمشيرة بحزم:

- صوتك ما يعلاش فى البيت ده، إحنا طول عمرنا محترمين فى الحتة، فلو سمحتي اللى حصل ده، مايتكررش تانى، ثم نظر إلى فيروزقائلاً

- وأنت ياحاجّة، استهدى بالله مش عاوزين فضايح .. هزت فيروز رأسها فى ضجر، بينما أصبح الموقف لا يشى بخير.

جلس معه على المقهى صامتاً.

- شوف يابنى، أنا خلاص تعبت منك، مش عاوز تتعلم حاجة، ولاعاوز تبقى راجل.

- خلاص يا حاج ماعدش عندنا حاجة نبكى عليها، اشتغل أيه وأروح فين؟

- أنا كلمتلك محروس ابن عمك فى الوكالة القديمة ! روح اشتغل معاه وربنا يرزقك

- قصدك أشتغل عنده، محروس بقى صاحب الوكالة، أخد كل حاجة بتراب الفلوس!!

- محروس وقف معانا جامد فى مرضى، وبعنا نصيبنا علشان نسد الديون، لكن عارف، لو اشتغلت معاه، واتعلمت ممكن تبقى أكبر تاجر فى البلد دى، فى ظرف خمس سنين بس، لسة اسمنا موجود فى السوق، بس أنت شد حيلك، وسيبك من سكة المُخدرات، والطريق الأعوج اللى أنتِ ماشى فيه. رد عليه بسخرية قائلاً:

- طيب ما أنت بتسرح بالقماش ده، بقالك خمس سنين، مابقتش ليه أحسن تاجر فى البلد، ورجعت تجارتك؟.ابتسم فى انكسار:

عاصم: أنا يا بنى بسعى، وبعدين أنا راجل كبير، وطاقتى مش زى طاقتك!! ومع ذلك بشتغل، والحمدلله، مش محتاج لحد.

حسين: بص ياحاج.. أنا ماليش فى الجو ده، الكفاح والعرق، واللقمة، والكلام، اللى لا يودى ولا يجيب!!

وبعدين يعنى بعد ما كنا أصحاب الوكالة،عاوزنى أروح أشتغل صبى عند محروس ابن عمى .. ده مستحيل.

- عاوز أسألك سؤال يا حسين:

حسين:اتفضل.

تفتكر لو كنت سيبتلك نصيبك فى الوكالة كنت هاتحافظ عليها؟! صمت حسين، فاستطرد الشيخ،أبداً – كنت هاتضيع كل حاجة على مزاجك؟! يابنى لازم تبدأ بنفسك . إحنا اللى عملنا الوكالة، واحنا باذن الله قادرين نرجعها .

- ده كلام يا حاج، مجرد كلام، ابتسم عاصم فى هدؤ قائلًا:

- أحب أشوف منك الفعل يا حسين، ياريت يابنى، هو أنا أكره. زفر (حسين) فى غضب:

- عاوزنى أنا اللى أحارب، وأعمل كل حاجة لوحدى !!.

- تحارب، خلاص يابنى، اللى حارب ربنا رحمه، واستشهد.

- هاترجع تانى لسيرة فضيل .. كل حاجة هو، كنت بتفضله علىّ فى كل شيء.

- اثبت لى إنك أحسن منه فى أى حاجة، وأنا أشيلك على راسى. سخر (حسين)، من كلمته مُتهكمًا : قائلاً

- منافسة مع راجل ميت!!، منافسة عادلة فعلاً!. تجمدت ملامح عاصم، بدا وجهه كقطعة من صلصال، جففتها الشمس قائلًا، وهويميل للأمام، ويطلق نظرة ساحقة فى عينى حسين، الذى انكمش رعبًاً:

- الله أعلم مين هو الميت، ومين هو الحى؟! المُهم، مادمت تجوزت، دور على شغلانة شريفة تصرف بيها على نفسك، و مراتك، ولا عاوز تعيش عالة عليها، خصوصًا وهى بتشتغل.زفر حسين فى ضيق، بعد كلمته الأخيرة قائلًا:

- ربنا يسهل، قطع حوارهما، تجمهر مجموعة من رجال المقهى، وهم يحوقلون، نادى عليهم عاصم فى اهتمام .

- خيريا رجالة ؟! فيه إيه ؟

- الأستاذ فارس مُحى،عمل حادثة ونقلوه إلى المشرحة. ارتبك الجميع على المقهى، بحث حسين عن والده ولكنه كان قد اختفى.

****

## - 13 -

اقترب من ذلك المبنى القصير، ذا الدور الواحد والحديقة الكبيرة، الملاصق لمبنى المستشفى الضخم، وضع حقيبته، وارتدى ملابسه الرسمية، عفريتة خضراء تنتهى بحذاء بلاستيكى طويل له رقبة، وقفاز مطاطى خفيف، ومريولًا جلديًا يغطى معظم جسده، بدا كأحد جزارى المذبح، بمجرد دخوله فى ذلك الزى، لايقترب أبدًا من البوابة الكبيرة، ولا يحتك بالناس حرصًا على عدم إثارة فزعهم، يعرف أن مهنته هى الأكثر رعبًا فى العالم!!.غالبًا ما يبدأ عمله فى المساء، داخل ثلاجة الموتى، بسحب أحد الأدراج، ليخرج الضيف الذى بها ويُكرمه، يعتبرهم ضيوفًا، يستضيفهم بضعة أيام، وقد تطول المدة لمن لا هوية له، صاريعرفهم ويعرفونه، لغة ما نمت بينهم، فى هذا المكان الذى تنكشف فيه الحقيقة وتسقط فيه كُل الأقنعة.

- جهز الحالة الموجودة فى درج ١٢ يا عم عاصم، علشان هاتخرج بكرة .

عبارة روتينية سمعها (عاصم) آلاف المرات، من الدكتور سامح العدوى، كبيرالأطباء الشرعيين فى الإسكندرية . خرج الدكتور سامح كالطاوس، ووراءه مساعدوه، رحلوا جميعاً، وجلس هو، بجوار الباب الحديدى هادئًا، فتح الباب ودخل إلى ثلاجة الموتى، ذلك الكيان الرهيب، المقسم إلى مجموعة من الأدراج، يحترم عاصم تلك الأدراج كثيرًا، فهى عنده ليست مجرد أرقام، فبداخل كل درج، نهاية حكاية، بطلها ذلك المسكين، الذى بات لا حول له ولاقوة، نهاية كل شىء، حب، زواج، أسرة، منصب، أموال طائلة! صراعات على المناصب والمال؟!

وفى النهاية .. لا شىء؟ فتح درج رقم ١٢، لأول مرة يرى ذلك الهول المرسوم على وجهه، سحبه ووضعه على الطاولة الكبيرة، وبمجرد أن مد يده، انقطعت الكهرباء!!جفل قليلاً، قبل أن يسعفه مولد الكهرباء الاحتياطى، خرج إلى الحديقة، وقف أمام الشباك الموجود بالدور الثانى، وهو ينادى على (عبودة) صديقه، (تومرجى معمل السموم، والطب الشرعى) الذى يسلم له معظم حالات الوفاة داخل المستشفى، والذى يساعده فى كثيرمن الأحيان بسبب مرض مساعده (جابر) مرضًا نفسيًا، منعه من ممارسة هذا العمل، ومن المضحك أن عبودة كان جبانًا، يخاف كثيرًا من الجثث، لكنهم أجبروه على هذا العمل، نظرًا لعدم انشغاله، كما أنهم أغروه بالمكافأت، التى يحتاجاها للإنفاق على أسرته الفقيرة،

- يا عبودة، ياعبودة . أطل رجل ثلاثينى، قصير نحيل، أبيض البشرة دقيق الوجه، طيب القسمات من غرفة فى الدور الثانى، قائلاً:

- أيوة يا عم عاصم، أنا نازل حالًا.

كان عاصم متوترًا،على الرغم من خبرته الطويلة التى تجاوزت العشر سنوات، جهز فيها، وساعد فى تشريح آلاف الجثث، لكنه يعرف هذا الشخص جيدًا،الأستاذ (فارس محى) جاره فى الحارة، وزميله المشاغب فى المقهى، الحادث شوه جسده ولم يجعله نضرًا كما كان، إزْرَقّ لونه وعبس وجهه .

بسم الله الرحمن الرحيم (يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا)[4]

كان يستغفر كثيرًا، وهو يسمع كلماته تتردد فى أذنه:

ما فائدة الصلاة، ماهذه التخاريف، أنا لا أؤمن بالغيبيات والخرافات!! الأديان موجودة علشان تعطلنا، أستغفر الله العظيم، لعلك عرفت فائدة كل

---

4) سورة طه، آية : 102

هذا، فالكون لا يسير دون إله ينظمه. كان يتكلم معه كما كان يكلمه على المقهى، لقد صار صديقًا للجثث، يكلمهم ويشكو إليهم، ويعرف منهم ما حدث، صارت تلك عادته، منذ أن حضر غُسل ابنه الشهيد بنفسه لقد صار يتكلم معهم ويكلمونه بطريقة ما !

- الله يسامحك يا أستاذ فارس ويغفرلك، ربنا موجود وما بينساش حد، أنا عارف أنك تعبان وخايف دلوقتى، يا ما قلتلك، لكن خلاص بقى ربنا يرحمك، سمع طرقات قوية على الباب الخارجى، تبعه صوت رجالى رفيع

- إفتح يا عم عاصم .اتجه عاصم بخطواتٍ هادئة نحو الباب الخارجى، فتح الباب ليجد (عبودة) مُتسمرًا أمام الباب، ووجه شاحبٌ تمامًا، ابتسم له عاصم ابتسامة مرح، تتنافى مع رهبة المكان، يعلم أنه جبان، ويخاف من الموتى، لكنه يحبه كابنه، لطيبة قلبه وأمانته، فهو لا يُفشى سرًا أبدًا، كما أنه مصدر ضحك هائل بالنسبة إليه، وكثيرًا ما يجلس معه، يشربان الشاى فى حديقة المشرحة، يفسح له عاصم للدخول.

- مالك ياعبودة، واقف كدة ليه ما تدخل، زفر عبودة، آخر نفس من سيجارته، قبل أن يدوسها بقدمه، قائلاً بفمٍ مرتعش

- اللى يسمع كدة، يقول: إنك عازمنى فى صالون بيتكم؟!والنبى ياعم عاصم، قولى عاوزنى فى إيه، وخلى الليلة دى تعدى على خي، جذبه عاصم من يده وغلق الباب، وهو مُستغرق فى الضحك. قائلاً

- يعنى ها كون عاوزك فى إيه؟! فى حالة عايزك تساعدنى فيها، اكفهر وجهه، وحوقل قائلاً

- يادى النيلة، يا عم أنا قلتلك، جتى بتتلبش، من حالاتك الزفت دى!إشمعنا أنا؟، ابتسم عاصم قائلاً:

- أعمل إيه، ربنا يشفيك يا (جابر)، حوجتنى للى يسوا واللى ما يسواش؟!نظر له عبودة فى غضب، فازداد ضحكًا

- يشفيه من إيه يا عم الحاج، هو كان عنده برد، ولا حتى سُكر، ده اتجنن ...إتجنن، وأنت اللى جننته بعفاريتك دى، وشكلى كدة هانحصلوه، حسبى الله ونعم الوكيل فى الدكتور سامح، وفيك أنت كمان، علشان أنا مش قادر على الشغلانة دى، غيرش لقمة العيش بنت ال...قالها، وهو يخبط يده فى رأسه بطريقة هيستيرية، أصابت عاصم بنوبة ضحك، كان يحبه كثيرًا ويشفق على حاله، فهو دائمًا ما يكسر جو الرتابة والحزن فى هذا المكان، بحركاته الخفيفة المضطربة، ويهدأ بعد أول رشفة من كوب الشاى فى الحديقة، يتسامران ويتضاحكان، وكأن شيئًا لم يكن . قال له عاصم

- بقالك سنة على الحال ده، كل مرة، بتعمل الهليلة دى، وبتشتغل بعدها، وبتبقى زى الفل، وبعدين ده رزق وربنا باعته لعيالك يا حمار!، صمت (عبودة) بعدها، وكست الجدية ملامح عاصم قائلاً:

- سمى الله، وتعالى ورايا بهدؤ، وما تعملش حاجة من غير ما قولك، كالعادة .ابتلع عبودة لعابه بصعوبة، وكست الجدية وجهه وهو يتبع عاصم بهدؤ. كانت جثة (فارس محى) ممدة على الطاولة الكبيرة . أغمض عبودة عينيه، من بشاعة المنظر، جسدٌ ممزق تمامًا، قطع طولى مخيف من الصدر إلى تجويف البطن، قطوع طولية فى الوجه، لاحظ عبودة تلك الأسياخ الحديدة الملوثة بالدماء، والمُلقاه على الأرض فى أحد الأركان، يبدو أنه تم استخراجها من تلك الجُثة البائسة، ارتدى عاصم مريوله، وقفازه، وبجواره أدوات الجراحة، تابع عبودة مهارة عاصم وسرعته، وهو يقوم بخياطة الجروح الكبيرة، بسرعة ومهارة عالية، صارت جثة الرجل تشبه تلك الدمية التى خاطتها زوجته لابنته (سحر)، تم خياطة بطنه من المنتصف، بخيط أسود عريض، كما نالت الخياطات فمه

من الجانبين، فبدا وكأنه يضحك ضحكة سوداء مرعبة، فهم بخبرته، أن هذه، هى عملية (التقفيل) الذى يقوم بها فنى التشريح، حتى لا تنزف الجثة أثناء التغسيل والتكفين. أنهى عملية التقفيل. فلت سؤال برئ من (عبودة) :

- إيه ده، هو متبهدل كدة ليه، وإيه الأسياخ دى ؟ حدجه عاصم بنظرة غاضبة أخرسته تمامًا، يعلم أنه لا يتكلم أبدًا، وقت الشغل! إلا فيما هو مهم. أعطى عبودة ملابس بلاستيكية، تحميه من البلل، فلبسها عبودة، أهال الماء عليه، ناطقاً باسم الله ومُتمتمًا ببعض الآيات، كان يشعر بالجسد يتصلب، مع كل آية يقرأها، ورعشات خفيفة، صادرة من المصباح الفلورسينت الكبير، مع أزيز مزعج، كان الأزيز يزداد، وجثة الرجل تهتز بعنف، وكأنما تم وضعه على شاحن!! حاول أن يستجمع قواه، بينما عبودة يشهق فى فزع، وهو يرى الرجل يهتز بقوة، ومصباح الفلوريسنت الذى يأزّ فى غضب، لم يجرؤ على الكلام، على الرغم أنه شعر بتوتر عاصم، الذى أكمل عمله فى عناد وهو ينهى غسل الجزء الأيمن، وبدأ يقلبه على الجانب الأيسر، بدأ بكتفه . نظرة واحدة على الكتف جعلته يصرخ :

- ما هذا ..!، وشم دائرى كبير، بداخله رأس تيس ضخم له قرون حادة، ونظرة مغناطيسة مخيفة!، زاد اهتزاز الرجل، وسمع الرجلان صوتًا غليظاً قادمًا من جثة الرجل، يُلقى بعض الكلمات المنظمة غير المفهومة، بدت وكأنها تعاويذ أو طلاسم. عاد عاصم إلى الوراء وهو يصرخ بقوة

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، سمع فرقعة قوية قادمة من سقف الغرفة، التى أظلمت بعدها تمامًا، شعر بسقوط عنيف، لجسدٍ على الأرض، بالطبع لقد كان جسد عبودة الذى لم يتحمل الصدمة.

****

## - 14 -

عبودة، قوم يا عبودة

نهض عبودة فى فزع قائلًا، وهو يتلفت يمينًا ويسارًا:

- فيه إيه ؟ إيه الى حصل؟ الراجل كان بيتكلم!.هدأ عاصم من روعه، وهو يقول له:

- أنت بخير، بس خليك هنا أوعى تتحرك.

جذبه عبودة من ذراعه فى ذعر قائلا

- لأ ما تسيبنيش هنا، نظر له فى حزم :

- عشر دقائق بس، أخلص، وارجعلك .

جلس عبودة فى حديقة المشرحة، يلتقط أنفاسه، ويشرب الشاى، بعدما شاهد بعينيه الرجل يتكلم، بينما عاد عاصم بشجاعة الانتحارى إلى الداخل وهو يقول .

- استرها يارب، نفسك معايا يا شيخ هريدى، أول مرة أتعامل مع حالة زى دى ؟! يالله ما هذه الليلة العصيبة!!،، انفجر المصباح، وانكسر صنبور المياة، وكاد (عبودة ) التمرجى أن يقف قلبه رعبًا، عاد بخبرته وأضاء المصباح الاحتياطى، بالطبع لم يستجب الأستاذ (فارس) للغسل الشرعى، فلقد كاد جسده يصبح كقطعة من حجر، بمجرد ذكر الله !! هؤلاء القوم لهم طقوسهم، التقط أنفاسه فى رعب، ثم عاد ووقف أمام وجه الأستاذ (فارس) الذى كان

يخرج صوتًا غليظًا. تغيروجه عاصم فجأة، وظهرت عليه بعض إمارات الجنون، وهو يضع يده على رأس الجثة، ويلقى ببضع كلماتٍ غيرمفهومة، أخذ يتمتم بها حتى هدأت ثم قال وهو يحدثها:

- أنا هنا فى مُهمة، سيبنى أخلصها، وأخرج راجلك من هنا!!، بدون أذى، بدون أذى!!

علمته التجارب أن يحترم تلك الحالات الخاصة، ولايزدريها، ولا يفرض عليها منطقه، بل يتحرك هو وفق منطقها!! فهى الآن قد وكل أمرها إلى القاضى الأعظم!، وليس المطلوب منه سوى أن يحافظ على ستر الله عليها. خاصة أولئك الذين يُخفون أمرهم بين قومهم، ويتحولون فى السر. سارت الأمور بعدها بهدؤ .أنهى عمله، ووضع الأستاذ (فارس) مرة أخرى داخل درج ١٢، انتظارًا لتسليمه غدًا، تأكد أن غدًا، سيكون يومًا عصيبًا على الرجال الذين سيتسلمون جثته، لكنه لا يمكن أن يخبرهم، فهم لايعرفون طبيعة عمله.خرج إلى الحديقة، فوجد (عبودة) يدخن وهو يضرب كفًا بكف :

- الله يخربيت اليوم اللى عرفتك فيه !! أيه اللى شفته ده .

تجاهل عاصم كلمات عبودة وقال له فى هدؤ، وهو يشير إلى البراد الأسود الموضوع فوق راكية النار:

- صبلى كباية شاى! كاد عبودة أن يُجن من برود أعصاب ذلك الرجل، لقد رأى الموت بعينيه منذ لحظات، ومع ذلك يطلب كوبًا من الشاى، وكأنه فى نُزهة !

- ولك نفس تشرب شاى كمان، والله أنا ندمان على صحوبيتك إللى هاتربيلى الخفيف؟ أيه الأسياخ الحديد دى، وأيه النجمة الكبيرة اللى فيها الجدى ده؟؟ وازاى الراجل تكلم كدة ؟! كان عاصم يحتسى الشاى فى هدؤ قائلاً بجدية وهو ينظر نظرة مُخيفة فى عين عبودة .

- أنت عارف السرده لو طلع براك ها يحصل أيه، نظر له عبودة مُنكمشًا فى فزع، فأجاب عاصم بحزم:

- حياتك كلها هتتشقلب!!،علشان كدة أنسى أى حاجة شفتها النهاردة. صمت عبودة فى خوف قائلًا:

- طيب أشرحلى بس، أفهم أيه أسياخ الحديد دى؟

عاصم: الراجل ده جارى، وعمل حادثة عربية شايلة أسياخ حديد، دخلت فى جسمه!

عبودة: طيب أيه الختم الفظيع ده؟ نظر له عاصم فى حزنٍ قائلا

- ده ختم الشيطان!!شفته على ظهر واحد من البحارة من خمس عشرة سنة.

عبودة: طيب والصوت ابتسم عاصم بجنون، قائلًا:

- ده صوت الشيطان اللى لابسه، بيعترض على الغسل الشرعى!! صرخ عبودة فى فزع وجرى من الحديقة مهرولاً، وخرج من الباب، وهو يسبه، بينما عاصم يضحك كالأطفال. أنهى كوب الشاى، وهو يتثاءب فى تعبٍ واضح، تكوم على سريره الصغير داخل الغرفة الصغيرة، فى نهاية الحديقة، فرآه واقفاً أمامه. كان فارس يسير عاريًا على ممشى من شوك يمزق قدميه، بينما هو ومرزوق وخميس الحلوانى يسيرون فى الاتجاه الآخر، على ريحان أخضر. كانت حلوقهم جافة - تكاد تتمزق من حرارة الشمس، هطل المطر بشدة، ففتحوا أفواههم، كانت كل قطرة مطر تسقط، تملأهم وترويهم حتى شبعوا، بينما فارس موليًا ظهره، عاريًا كما ولدته أمه، وعلى ظهره وشم كبير لنجمة سداسية ضخمة يتوسطها "تيس"، له نظرة مغناطيسية رهيبة، كان يسير على الممشى الشوكى دون أن يستمع لنداءات رفاق الحى المُتكررة، وهم يحاولون إرشاده للطريق العكسى الأكثر رحابة وظلًا، ظل سائرًا والطريق يزداد حرارة حتى وقف أمام

ربوة عالية، والعرق الغزير ينفجر من جسده، سمع نفيرًا عميقًا قادمًا من خلف الربوة، تبعه مجموعة الجنود الأقوياء مفتولى العضلات، لهم وجه يقترب من وجوه الحيوانات!!، وهم يصطفون احترامًا لدخول ذلك الكيان المُغطى بغطاء أسود حريرى كبير، وله غطاء رأس، وكأنه "بُرنس" ملاكم وزن ثقيل. و قف (فارس محى) مشدوهًا فى إحترام لذلك المُغطى بالبُرنُس، وانتظر حتى انطلق النفير الثانى، تبعه نفس الصوت، الذى كان بداخل المشرحة، أزاح عنه البرنس، فَخَّر الجنود سُجّدًا، بينما سجد (فارس محى) فى احترام، وقف هو هناك، جسد قوى كأجساد المصارعين، ورأس "تيس" رهيب يثغو بصوت مخيف كالذى سمعه (عاصم) فوق منضدة المشرحة، كان باقى الرجال، قد استراحوا تحت الشجرة الوارفة، يشربون ماء باردًا من الجدول، وينظرون لذلك المخيف فى ترقب، لم يستمر وقوفه بعزة فوق الربوة سوى ثوانٍ معدودة، بعدها اندفع سائل بركانى رهيب، أصفر اللون مائل للبرتقالى من فوق قمة الجبل؛ ليغمر الجهات الأربع، ويغرق الوادى والرجال، بينما التيس الضخم يحاول تفاديها، والرجال يصرخون من حوله ومعهم (فارس)، ويحاولون التشبث بملابسه، وهو يدفعهم بيديه، ويلقى بهم فى وادى النيران، بينما الرجال يتابعون ذلك المشهد المرعب، تحت الشجرة الوارفة .

استيقظ عاصم خائفًا . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ربنا يعافينا من هذا المصير، انتبه على صوت جلبة بالخارج، لكنه تراجع عندمارأى (شلة المقهى) وأبناء الحى، ينتظرون استلام جثة (فارس ). كم هم طيبون !! لقد قرروا أن يستروا عيبه، على الرغم من غضبهم منه، ومن كلماته التى كانت تبعث على السقم. سمع صديقه بيومى الطيب يقول .

- لا ياجدعان حرام عليكم - ده فى البطاقة مسلم، ولازم يتستر، ويكرم، والباقى ده مش بتاعنا، ده بتاع ربنا . ابتسم وهو جالس على الكرسى الخشبى بالداخل .

- لك الله يا بيومى، أنت طيب القلب وخيّر. ولذلك تستحق ما رأيته لك.
اقتربت سيارة إسعاف سوداء، ضخمة مكتوب عليها أرقام أجنبية،عبرت بظهرها بوابة المشرحة الحديدية، ثم استقرت حتى يتمكن العمال من وضع جثمان (فارس محى بدخلها)، تابعها عاصم، متواريًا عن الأنظاربقلق، يعرف هو كل السيارات التى تعمل فى هذا المجال، بل ويعرف معظم سائقيها بحكم عمله، لكن تلك السيارة بدت غريبة، بلونها الأسود اللامع، وشعارها الفضى الخارجى، وأرقامها الأجنبية!! لاحظ وجود أربعة رجال بداخلها، يرتدون ملابس سوداء تمامًا، ويغطون وجوههم بنظاراتٍ سوداء، بدت ملابس رسمية وكأنهم ينتمون إلى جهةٍ ما؟!، وبمجرد أن دعاهم زميله (محسن)، لاستلام الجثة هبطوا من السيارة، فى نظام، بينما شهق عاصم فى فزع، لقد رآهم بالأمس فى الحلم، إنهم حراس ذلك "التيس" الرهيب!! بل العلامة الفضية على السيارة، قريبة من الختم الذى كان على كتف (فا رس). حاول بيومى ركوب السيارة إلا أن الرجال أزاحوه بغلظة دون أن يتكلم أحدهم، فأعطى بيومى للسائق، العنوان فى ورقة، وهو يقول له:

- هانصلوا عليه الظهرفى العنوان ده، مسجد الإخلاص بحارة الغول!! أخذ السائق منه الورقة دون أن يتكلم وهو يبتسم ابتسامة مخيفة !!

انقضت صلاة الظهر، وبعدها صلاة العصر، والسيارة لم تظهر. وقف الرجال يضربون كفًا بكف، بينما عاصم كان يقف بينهم مبتسمًا،هو الوحيد الذى كان يعلم أن السيارة لن تأتى إلى هنا أبدًا. وبالطبع كان لغز اختفاء الأستاذ فارس مثارحديث الرجال على مقهى بيومى، بل فى حارة الغول بأسرها .

****

## - 15 -

٢ حارة الغول .

كانت (فيروز)، تحيك ملابسها على ماكينة الخياطة السنجر العتيقة، بينما جلست تستمع لشكوى، ( نجوى) زوجة بيومى صاحب المقهى، وهى تبكى قائلة:

- ده هددنى يا حاجة إنه ها يتجوز بنت مفعوصة علشان الخلفة !! سبع سنين وأنا مستحملاه، لما كان حتة صبى بيومية فى نفس القهوة، ودلوقتى عاوز يرمينى ويتجوز لما بقى صاحبها . كان عاصم يجلس فى غرفته يستمع لها وهو يقرأ. استعد للخروج إلى الشارع لكنها استوقفته عند الباب قائلة كعادتها فى غضبها على بنات الحارة التى اعتبرتهن كبناتها تماماً

- بقولك أيه يا عاصم، انزل لِمْ، بيومى دلوقتى، لحسن وكتاب الله أنزل أبهدله فى الشارع، وافرج عليه الناس، يتجوز على البت ده بتاع أيه، خليهم يروحوا لحكيم وربنا يسهل !! ابتسم عاصم فى وجهها قائلاً .

- لا وعلى أيه .. بلاش فضايح، أنا هاكلمه بينى وبينه، فتح الباب ليجد (حميدة أبو النور)، أم (مشيرة ) تقف فى حالة انكسار أمام الباب، حيته فى وهن، بادلها التحية ونزل إلى المقهى .وجد بيومى شاردًا وهو يدخن الشيشة، ويتابع التليفزيون فى ملل، جلس بجواره صامتًا . نظر له بيومى فى حزن قائلا

- عارف إنها طلعت للحاجة، وعملت مناحة، بس والنبى يا عم عاصم، أنا مش ناقص . ابتسم عاصم قائلًا:

- بتسّبق علشان ما تتهدلش؟! طيب احمد ربنا دى (الحاجة فيروز)، كانت نزلة لك هنا فى القهوة، وكانت ها تبعزقك قدام الناس. أنت عارفها،هى خلاص اعتبرت نفسها أمهم، وهما كمان اعتبروها كدة، فهى بتقلك لم نفسك يا بيومى، وإياك تتجوز على البنت! رد بيومى بحزن:

- ماحدش حاسس بوجيعتى، أنا تعبت ونفسى فى عيل.

عاصم: تكلمنا قبل كده، والتحاليل بتقول إنكم كويسين، يبقى تصبر، لأن الخلفة بيد الله، والحل مش إنك تتجوز تانى، لو ربنا مش رايد، مش ها تخلف.

بيومى: طيب أعمل أيه بس .

عاصم: روح للحكيم وخد الأدوية، وهاقولك على حاجة تتوزن بميزان من ذهب!!.فتح بيومى أذنيه قائلاً:

- أيه ؟!

تناول عاصم قلمًا رصاصًا من فوق المكتب، الذى يجلس عليه بيومى فى المقهى، وكتب على الحائط الذى بجواره

(رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ)(٥)

ثم قال له

- الدعاء ده لسيدنا زكريا لما كبر، وكان نفسه فى غلام من صلبه، عارف مع الدواء والسعى، ادع كتير بالدعاء ده، وإن شاء الله مش ها يمرعام إلا وابنك ها يبقى فى حضنك !!

فى نفس التوقيت كانت( حميدة أبو النور) تقف على باب الحاجة فيروز، وعلامات الخزى على وجهها، رأتها نجوى زوجة بيومى، فكفكفت دموعها وهمت بالانصراف .

5) سورة الأنبياء، آية : 89

- مساء الخير يا ست الحاجة، نطقتها حميدة بانكسار:

رسمت فيروز علامات الغضب على وجهها وهى تقول .

- وليكى عين تورينى وشك، بعد اللى عملته بنتك . كانت تُعطى لها ظهرها، لكنها بعد دقيقة سمعت نهنهاتها القادمة من الباب، تلفتت فيروز فوجدتها تبكى بحرقة، وهى تستند على الباب فى وهن. كم تُشفق عليها، فهذه السيدة المسكينة لم تر يومًا حلوًا فى حياتها الطويلة البائسة؟!.لاحظت (فيروز) شُحوب وجه ( حميدة)، ونحول جسدها، وكأن هموم العالم قد تكومت فوق ظهرها المحنى. لم تستطع فيروز إكمال دور القسوة، الذى رسمته على حميدة صديقتها العزيزة وكاتمة أسرارها. لم تتمكن الفوارق الطبقية من حجب العلاقة الطيبة بينهما، حيث إنهما صديقتان مُنذ أمدٍ بعيد. احتضنتها فيروز وهى تبكى قائلة .

- ادخلى، واقفلى الباب، وماتعمليش فى نفسك كده ... ربنا موجود.

- وتفتكرى، ربنا هايسامحنى،على اللى أنا عملته؟!

فيروز:لا إله إلا الله .. هو أنتِ عملتى إيه بس؟!، سقطت على يديها تقبلها فسحبتها( فيروز) سريعًا، فأكملت ( حميدة):

- سامحينى، والله العظيم ما كنت أعرف حاجة، أنا كنت عند أختى المريضة فى بحرى، ورجعت لجيتها عملت كل حاجة .. أنا خلفت بنت مجرمة، وما عرفتش أربيها، وخايفة ربنا ما يسامحنيش .تنهدت فيروز فى أسى، فهى الأخرى، تُشاركها نفس الهم، فلقد رزقها الله بولد عاق لم تُحسن تربيته، واختار الصالح للقائه ..إنها حكمته وحده.

- وحدى الله يا حميدة، وأنتِ ذنبك أيه. مين فينا له يد فى خلفته، وبعدين الحال من بعضه يا أختى؟!

.هدأت حميدة قليلاً وهى تقول:

- آه، إتلم المتعوس على خايب الرجا. صمتت فيروزعلى مضض، حاولت أن

تغير مجرى الحديث، فقالت لها:

- بقولك أيه ... عندى طبق كشك صعيد ى، وفراخ، يستاهلوا بقك. كانت فيروز قد اعتادت على تقديم الطعام لها، كلما زارتها، فهى تعتبره نوعًا من الدعم،غير الجارح لمشاعرها كسيدة فقيرة، عفيفة النفس، إلا أنها أبت قائلة:

- نفسى أشرب فنجان جهوة من يدك،علشان على صدرى جبل.وجلت فيروزوهى تشعل السربتاية قائلة:

- خيريا حميدة ... مالك يا أختى، ولابسة أسود ليه .

- والله ما أنا عارفة أقولك .... تلفتت يمينًا ويسارًا قائلة:

- فى حد هنه.هزت فيروزرأسها فى قلق، كلهم نزلوا، وبنتك الموكوسة راحت شُغلها

أخرجت حميدة من صدرها، مظروفاً حكومياً بنى اللون، يحتوى أوراقاً، ثم قالت لفيروز:

- حاسة إنى ها يجرالى حاجة الفترة الجاية، شيلى ده عندك، إخفيه، واوعى يقع فى يد البنت(مشيرة).أومأت فيروزفى رعب وهى تقول .

- خيريارب؟! المظروف ده فيه أيه؟

أنا هاحكيلك على كل حاجة. استمرت تحكى وفيروز تكاد يُغشى عليها من الفزع، فارت قهوتها، وأغرقت السبرتاية بينما هى تستمع فقط، وفمها مفتوح من الدهشة، والمظروف الأصفر أمامها على المنضدة .لم ينتبها على الباب الذى فُتح سريعًا بمفتاح، فاعتدلت حميدة فى جلستها، بينما أخفت (فيروز) المظروف فى صدرها، لمحتها( مُشيرة) تفعل ذلك على الرغم من سرعتها.فوقفت تنظر إليهما فى غضب، بينما كادت ( حميدة) تسقط مغشياً عليها.

****

## - 16 -

جلست فيروز تنظر لعاصم فى شغف، بعدما عاد من المقهى مساء، شغلتها مشكلة (نجوى) وسر حميدة، عن الجلوس معه طوال اليوم، كانت كطفلة فضولية تريد أن تدخل عالمًا غريبًا، يشبه صندوق الدُنيا [6]

تناولت ملابس الشغل التى يُخفيها بداخل حقيبة ظهره، ووضعتها على الفور، فى مسحوق غسيل أزرق اللون حتى لا يظهر منها شيء، تركته يستلقى بعدما أعدت له وجبته المُفضلة، قطعة من الجبن الأبيض مغموسة فى زيت الزيتون، ورغيف من العيش الأسمر، لقد صارت تلك وجبته منذ خمسة عشرة عامًا، بعد وفاة فضيل، والتحاقه بوظيفة عامل بمشرحة كوم الدكة، تلك الوظيفة التى خبأها عن كل المحيطين به، ماعدا زوجته وصديقه (فؤاد فواز)، أملاً فى أن يحيا حياةً طبيعية، ولا يُصبح مادة تلوكها الألسنة على المقاهى وفى جلسات السمر!! الموت هو سر من أسرار الله فى الكون، ولذلك وجب التعامل معه بحذرٍ شديد !!.تناول عاصم طعامه، عدة لُقيمات بسيطة ثم حمد الله، وجلس يتناول الشاى فى استمتاع، بينما هى تتحرق شوقًا لكى يحكى لها شيئًا .سألها فى هدؤ:

---

6) صندوق الدُنيا: آلة بدائية كانت تستخدم فى نهايات القرن التاسع عشر، قبل اختراع السينما، حيث كانت تعرض مجموعة من الصور بشكل دائرى للأطفال، وأحياناً للكبار حيث كان يمكن للطفل من التعرف على قصص تراثية، مثل أبوزيد الهلالى، والزناتى خليفة، والظاهر بيبرس، فكانت تنقلهم إلى دنيا مختلفة فى وقت لم يكن فيه إنترنت أو تليفزيون أو سينما، وكانت هى البداية لاختراع شاشات السينما وغيرها من وسائل التكنولوجيا الحديثة.

- ابنك ومراته لسة برة ؟ بادرته بسؤالٍ آخر، وكأنها لم تسمعه :

- شُفته ؟! رسم علامات البلاهة على وجهه قائلاً :

- شُفت مين؟!، ابتسمت فى خُبث قائلة:

- بلاش لؤم عليَّ يا أبو فُضيل؟ (تتينا ) مراته قالت لى، إن الرجالة راحوا يجيبوه من كوم الدكة، والغريب إن العربية اللى جابته اختفت ومارحتش الجامع، وهى كمان اختفت! مادام راح كوم الدكة تبقى شُفته!!. كم يُحب طفولتها، أسئلتها مُزعجة، وتحمل فضول الأطفال فى بعض الأحيان، إلا أنه يتحملها كما تحملته فى شبابها، فهو أيضًا لم يكن ملاكًا، وهى كانت تعلم تردده على حانة( سبيد فاير)، وعشقه (لأماليا ) الجريجية. كم يُقدر حُب الناس لها، وخاصةً سيدات المنطقة، فهى تُقدم العون للجميع ولا تُعادى أحدًا، رئيسة أُمناء الحارة، وبنك التسليف، ومسئولة الجمعيات الأولى. طوال اليوم تعاون هذه، وتُقرض هذه، وتحمل أطفال إحداهن، أو تجمع حملة كبيرة للتبرعات لزواج فلانة، أوعملية جراحية لزوج علانة.

شاغبها قائلًا:

ما هو طول ما أنتِ عاملة فيها شيخة حارة، ورئيسة جمعية خيرية، مش هاترتاحى أبدًا، ابتسمت فى سعادة قائلة:

- جمعية خيرية ؟! ياه، هو أنا أطول، أنت عارف كم الخير، والسعادة من وراء مشروع زى ده . ضحك قائلًا:

- مشروع!! فقطبت حاجبها:

- طبعًا مشروع!! أعظم تجارة، هى التجارة مع الله. ابتسم مُتفهمًا، وظن أنه قد هرب من سؤالها إلا أنها عادت تُحاصره مرةً أُخرى قائلة:

- ما قولتيش، شفته؟! كان وشه عامل إزاى ؟! اكتست ملامح وجهه بالجدية قائلاً :

- إشمعنى يعنى المرة دى، بتلحى فى السؤال كده ؟!

- علشان الأستاذ فارس ده بالذات، كانوا بيقولوا عنه، إنه والعياذ بالله كاف.... قاطعها قائلاً

- وحدى الله يا أُم فضيل ده فى دار الحق، واذكروا محاسن موتاكم .

فيروز: بس كل الناس كانت عارفاه، وأنت اشتكيت قبل كده من الحاجات، اللى كان بيقولها، فكنت عاوزة أعرف؟

عاصم: لا إله إلا الله، تعرفى أيه بالظبط؟!

فيروز: بيبقى شكله إزاى، وها يعمل إيه لما يقابل الموت (وجهًا لوجه ). ردد عقله الكلمة فى طنين مُزعج كررها عشرات المرات.. «وجهًا لوجه». شريط سينما سريع مر عليه، وهو يسحب جسده الأزرق التالف من ثلاجة الموتى العميقة، وهو يرى علامات الفزع والخزى على وجهه، جسده المتخشب، وتلك الأحداث المفزعة، وذلك التيس الغاضب المرسوم على كتفيه، وهؤلاء الرجال الذين تسلموا جثته، وذهبوا بها إلى مكانٍ مجهول! تسارعت دقات قلبه، وأغمض عينيه فى ألم، وارتعش جسده، شعرت به فندمت على فعلتها الصبيانية، تنتابه أحياناً نوبة رعشة غامضة وتعرق، نوبة هلع، تحترمها جدًا، وتعتبرها رد فعل طبيعى، عما يُلاقيه فى عمله من أهوال، تعلم أنه عندما يدخل فى تلك النوبة، لا يجب أن تُكلمه، دقائق فقط ويهدأ . وقفت صامتة، وهى تمد يدها بكوب الماء، تراقب اختلاجات وجهه وجسده، حتى هدأ. ندت منها إيماءة اعتذار خفيفة

- سامحنى يا أبو فضيل، والله ما كان قصدى، نظر لها فى وداعة قائلًا :

- أنتِ فاكرانى بشتغل الشغلانة دى ليه؟ نظرت له فى حيرة:

- والله أنا بسأل نفسى السؤال ده كل يوم ؟ أنا مُتأكدة إنك مستور و الحمدلله!! . قاطعها على عجل.

- مستور، علشان الشُغلانة دى بس .. ربنا ساترنى، خلاص بقيت أنا وهُما

حاجة واحدة، بيكلمونى واكلمهم، بسمع منهم، وبعذرهم أو بلومهم، بعرف علاماتهم، وبخاف عليهم أحيانًا من مصيرهم، وبخاف على نفسى، أوبتمنى لنفسى مصيرحد فيهم!!. كانت (فيروز) تنكمش على أريكتها فزعًا.كُلما تكلم عن ضيوفه الموتى فى المشرحة، وكأنه يتحدث عن أصدقاء حميمين يعرفهم مُنذ سنوات. لم يترك عمله هذا مُنذ أن غسل ابنه الحبيب الأقرب إلى قلبه ( فُضيل)، لم يتوقف أبدًا، كانت تشعر أحيانًا أن مسًّا من الجنون يُصيبه وهو يتحدث عنهم، تتعجب لسلوكه الهادئ وكلماته القليلة، هل تعَلّم ذلك من الموت؟! لا تدرى؟! تلاحظ قطعة الجبن التى يأكل منها عدة لُقيمات، ثم تختفى بعد ذلك. دون أن تتأكد من أكلها !لا تنكر أنها قد صارت تخاف من تصرفاته قليلًا. فأحيانًا يبدو كجُثة تسير على الأرض، وأحيانًا أُخرى ينبض بالحياة، ويذهب إلى مقهى (بيومى) مع صُحبته القديمة، التى تعتبر مقهى بيومى، الحجرة الإضافية بمنزل كُل واحدٍ منهم. تركته يسترسل حتى أنهى كلماته بجُملته التى يُكررها كثيرًا:

- اللهم إرحمنا إذا صرنا إلى ما صاروا إليه ... الستريا أُم فُضيل ... السترهو أهم حاجة فى الوجود، تؤمن وراءه الدُعاء ثُم (تُمصمص) شفتيها فى تأثروتهز رأسها، مؤمّنةً على كلامه، أنا ها دخل أقرأ شوية، قبل ما نام .

(من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك ويمنعك ما يطغيك) .... ابن عطاء الله السكندرى، غمغم قائلًا:

- الحمدلله .

لم يُكمل القراءة، أزعجته عدة طرقات مُتتابعة على الباب، تبعها صُراخ مُتقطع لامرأة وخلفها ضجيج رجالى خشن .

- إلحقينى يا حاجة (فيروز) ... الحقنى يا عم (عاصم) . ميزت (فيروز) صوت جارتها (نورا) والتى تعتبرها كابنتها، امرأة أربعينية، بيضاء كالقمر، بجسدها امتلاء مُحبب، ولها أصول ريفية، تظهر بوضوح فى لكنتها، التى لم تتخلص

منها، رغم نزوحها إلى الإسكندرية مُنذ أكثر من رُبع قرن. فتحت (فيروز) الباب مُنزعجة، فاندفعت نورا تعبر الباب سريعًا، وتقف خلفها مُحتمية من شىء ما. قالت (فيروز) فى فزع:

- فيه أيه يابنت يا (نورا) !

- الحقينى يا خالتى، خميس عاوز يضربنى! ظهر خميس بالفعل وهو يُمسك عصاغليظة، كان غاضبًا:

- بتفضحينى يا بنت الكلب، والله لفشفش عظمك. حاول أن يضرب نورا بالعصاة، بعدما دخل إلى عقر الدار، دون استئذان. كان الشيخ عاصم يجلس فى غرفته، وهو يعرف أن زوجته ستتصرف فى تلك المُشكلة العابرة، جذبت الحاجة فيروز (خميس) من قميصه قائلةً:

- وكمان عاوز تضربها فى بيتى ياولا يا نطع ! هات العصاية دى ولم نفسك، ضربته فى كتفه ضربة خفيفة فتراجع إلى الوراء مُنكسرًا، وهو يرمى بالعصا أرضًا:

- حقك على يا خالتى، أصل بنت الكلب دى فورت دمى ..

- بتقول على الشيخ متولى، الراجل اللى حفظك القرآن زمان «كلب»، إخص عليك وعلى قلة أدبك.

صمت خميس، بينما جلست نورا على طاولة الصالة المُستديرة والمُغطاة بمفرش أبيض، منقوش عليه ورود كبيرة، خبأت رأسها بين كفها، وهى تبكى قائلة:

- ليه كل ده ؟علشان، قُلت لك فرح البنت قرب، وعاوزين فلوس التنجيد، (نبوية ) حماتها كلت وشى .

- شوفتوا تانى، أهى دايرة تفضحنى، والله بس أما أخلص من الجوازة دى، وأنا ها رميكى رمية الكلاب.

فيروز: ما تخرس ياولا يا خميس؟! كل العركة دى علشان التنجيد!!

خميس: وهوده شوية يا خالتى. خرج عاصم من غرفته قائلاً:

- تعالى يا خميس .جذبه من ذراعه، وفتح الباب قائلاً:

- أنا وخميس ها نقعدوا شوية على القهوة.تهللت أسارير (فيروز)، عندما رأت عاصم، قد خرج ليحل المشكلة، تعلم مدى تأثيره بين هؤلاء الرجال فكلمته كالسيف على رقابهم. فقالت:

- أيوة كدة يا حاج عاصم، خد «التور» ده وانزلوا، وسيبولى القمر دى، هانشربوا قهوتنا المحوجة من على السبرتاية، وكل حاجة هاتروق. زمجرخميس وهوينظر للحاجة، نظرة طفولية، بعدما سبته أمام زوجته، فابتسمت فى وجهه بطيبة أم قائلة :

- حد يزعل (نورا ) الأميرة بنت الأصول . أيه ياولا مش عاجبك، تحب الطشلك قدامها، أنت ناسي إنى، أنا اللى شلتك على يدى يوم ولادتك، وأنا صاحبة أمك، الله يرحمها!

ابتسم خميس فى حب قائلاً:

- على راسى يا حاجة، أنتِ أمى، وتعملى فيّ ما بدالك. تركاهما وجلسا على مقهى بيومى صامتين.

قال له عاصم فى عتاب :

- أول مرة صوتكم يعلو أنت ومراتك فى الحتة؟ دافع خميس عن نفسه مُبررًا:

- أعمل أيه يا شيخنا الظروف، مش عارف آلاحق على طلبات البنات اللى ما بتخلصش .

- لأ يا خميس دى مش ظروف .. دى ذنوب! قطب خميس حاجبيه وحك إبهامه بذقنه، وهويُفكربالكلمة

- ذنوب أيه والعياذ بالله ؟! ما نتا عارف، أنى من شُغلى لبيتى ومن بيتى لشغلى، وأخرى نقعدوا هنا بينكم على القهوة دى، وماعنديش وقت للحاجات التانية.

- مين قالك: إن المعصية، هى الحاجات التانية زى ما أنت بتقول بس؟ فى حاجات تانية كتير، ممكن تجر عليك الخراب بعيد عنك . ضمت خميس وهو ينظر للشيخ الذى التفت إليه، ونظر فى عينيه مُباشرة:

- زى إنك تاخد فلوس بالفايظ من (نصر الهودى) مثلًا؟! امتقع وجه خميس، وهو ينظر للشيخ عاصم خجلًا:

- عرفت ازاى؟! لسة الموضوع بنا، وكنا ها نخلصوه.

عاصم - : الحريقة اللى دارت فى بيتك اليوم، كانت علامة من الله .

خميس:أعمل أيه يا شيخنا، الدنيا قفلت فى وشى، بعد ما سبت حلوانى( سابليه)،عاوز نجوز البت، ونشوف محل صغير، ينفع حلوانى، نشتغل حر نفسى، وما لقيتش قدامى غير سكة نصر الهودى !!.

. مد عاصم يده فى جيبه، وأخرج خمسمانة جنيه قائلاً:

- خُد المبلغ ده علشان تجيب حاجة البت. وإياك تستلف من (نصرالهودى) تانى، اللى شُفته النهاردة علامة بس .نظر خميس إلى المبلغ بذهول. نفس المبلغ الذى اتفق عليه مع نصر الهودى. كيف عرف وهو لم يكن حاضرًا الإتفاق. حتى زوجته (نورا) لا تعرف قيمة المبلغ الذى كان ينوى اقتراضه من نصر، يبدو هذا الرجل غريبًا، لكنه يُشع خيرًا ورحمة . كان يتأمل الشيخ فى هدؤ، وهو يقول له:

- لما تضيق بيك، استغفر الله كثيرًا، واسعَ وأنت هاتشوف النتيجة، وان شاء الله مش ها يمر العام إلا وأنت فى محلك !! ضحك خميس قائلًا :

- ياه يا عم عاصم . تفتكر.

عاصم :مفيش حاجة تكترعلى ربنا، بس أنت قول يارب، واستغفرعلى قد ما تقدر، زى ما قولتلك، ثم استطرد قائلاً:

- يالا نقوم بقى وروح صالح مراتك. هما بالخروج إلا أن يدًا امتدت بقوة فى اتجاه الشيخ تمنعه من النهوض، وقال صاحبها بصوتٍ مرتفع، يحمل لكنة عدائية:

رايح على فين يا عاصم؟ كان (نصرالهودى) كما كانت تُسميه المنطقة، نظرًا لبخله الشديد، وموته على القرش، رأس ماله الذى يزداد كل ساعة بالربا، يقف أمام عاصم بجسده الضخم وعضلاته المفتولة، رجل خمسينى قوى البنى، له شارب مُستقيم اصطناعى بلون الزيتون الكلاماتا، يصلح لأن يكون إعلاناً لصبغة (بايجن) العظيمة. كان يبدو غاضبًا،عندما سمع (عاصم) يذكره بشر، بل ويُعطى لخميس النقود، نهره (عاصم ) بتعقل:

- عيب كده يا نصر.

- عيب على مين يا راجل يا خرفان . أنت تعرف العيب، أنت اللى داير تلسن على (نصر)، عمل أيه (نصر)؟! بيتاجر فى المخدرات مثلًا؟!، أنت اللى بضيق علىّ فى رزقى.

عاصم : أنا ماليش دعوة بيك

نصر: ده رابع واحد الأسبوع ده تديله فلوس، وتقوله ابعد عن نصر الهودى.

عاصم: وماسألتش نفسك للحظة واحدة، ليه الناس سمتك الاسم ده؟ مع إنه اسم وحش قوى يا أخى!

- أنا حر وعاجبنى !!هو فى أجدع وأشطر من الهود، هما سادة العالم فى التجارة والسياسة كمان؟!.لم يكن عابئًا بنظرات الامتعاض التى كانت تخترقه، بل أكمل تبجحه على عاصم .

- أنت بتجيب الفلوس دى منين، ولاحد يعرفلك شغلانة، ولا حد عارف عنك حاجة، بعد ما خسرت وكالتك، غير أنك بتسرح ببضاعة، ولافيه بضاعة ولا غيره؟!، شكلك شحات، طب ما بدل ما تنصح الناس، انصح ابنك، اللى المُخدرات بهدلته وفى الأخر خرج عن طوعك وراح تجوز واحدة( ش...)، قام بيومى بسرعة ولكم نصر فى وجهه، وتخلى الاستاذ فؤاد عن هدوئه المعهود، وجذب نصر من ملابسه ناهرًا إياه:

- خلاص يا نصر قول يا مسا، امشِ من هنا . كانت أنف نصر قد نزفت دمًا، من جراء لكمة بيومى القوية الذى قال له:

- عمك (عاصم) ده، خيره على الكل وأبونا كلنا، ومن النهاردة ما تجيش تقعد عندى تانى.

- ياعنى طردتنى من الجنة....الله يلعن أبوكم كلكم، أنا حر، و ما بنضربوش حد على أيده، وبنفكوا زنقة الناس، وبناخدوا حسنة . هو البنك بيعمل إيه تانى غير كدة ؟! كل واحد حركان عاصم ينظرله فى إشفاق وهو يرغى ويزبد، ثم عاجله قائلاً :بسم الله الرحمن الرحيم

"الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا" [٧]

صدق الله العظيم.

لم يظهر للآية الكريمة أى تأثير فى نفسية نصر، بل رد مُتبجحًا:

- كل واحد يخليه فى حاله، وما يعملش واعظ علينا. كان عاصم يراقبه فى هدؤ، لاحظ حركة جسده غير المتسقة، صار خبيرًا فى الأجساد، يفهم ما هو صحيح منها، وماهو عليل .كان نصر يتحرك بشكل نصفى، ذراعه اليسرى لا تتحرك بشكل طبيعى ! وإن بدت طبيعية . أنهى شجاره مع الشيخ الذى ظل

7) سورة البقرة، آية : 275.

جالسًا فى هدؤ، بينما بيومي صاحب المقهى، والأستاذ( فؤاد فواز)، وخميس الحلوانى، يدفعان عنه الأذى. بدا غائبًا فى عالم آخر لا يتابع ذلك الشجار، وكأنه لا يعنيه، كان ينظر للسماء التى تلونت بألوان بهيجة،على الرغم من ظلمة المساء.هدأ الشجار فجأة بعد دوى سيارة إسعاف اقتحمت الشارع الرئيسى فى مواجهة المقهى ووقفت أمام محل عليه لافتة كبيرة .»يعقوب مزراحى الصائغ».

هرول نصر اليهودى،عندما شاهد رجال الإسعاف وهم يحملون أستاذه (يعقوب الصائغ)، حاول أن يُكلمه، لكنه لم يرد عليه، كان غارقاً فى نومٍ عميق، حاول أن يفهم من مساعده شيئًا:

- أيه اللى حصل يا (مليم) .أجابه (مليم )، وهو يتصنع البكاء:

- والله ما نا عارف يا أستاذ نصر. فجأة لقيته نايم على المكتب، صحيته، ما قامش!!. انفض الجمع وهم يحوقلون، اختفى عاصم تمامًا، بينما ركب (نصر) سيارة الإسعاف بجوار يعقوب. وفى الصباح الباكر استيقظت زوجة خميس لتجد خمسة أجولة من القطن، تستند بجوارباب الشقة.

****

## - 17 -

جلست فيروز أمام سبرتاية القهوة، صديقتها الحميمة، حيث اختلطت رائحة القهوة، برائحة الكحول الخفيفة، المُنبعث من السبرتاية، لتُعطى لمجلسها مذاقًا خاصًا، كانت تقرأ جريدة الأخبارالصباحية فى استرخاء، وهى جالسة على أريكتها ذات الورود المُزركشة، المُحببة إليها، تستمع إلى برنامج( إلى ربات البيوت)، ومسلسل (عائلة مرزوق ) من المذياع الخشبى الكبير، تقرأ الأخبار الصباحية بنهم، وعلى وجهها إمارات الإهتمام، تُعدل من وضع نظارتها السميكةعلى أرنبة أنفها، كُل عدة دقائق، ثُم تُعاود القراءة من جديد. لكنها لا تستمرعلى هذا الحال سوى بضع دقائق، يُقاطعها دائماً جرس الباب، فتضع الجريدة على مضض، وتتحرك بجسدها السمين مُرتدية (الشبشب) البلاستيكى الأخضر. ناطقة بصوتها الرفيع عبارممطوطة:

- حاضر.. ياللى بتخبط . تُفاجأ بطفل صغير، لم يتجاوز الثامنة قائلاً :

- صباح الخيريا خالتى، أمى عاوزة ملعقتين سمن ؟ تبتسم الحاجة وتتحرك إلى المطبخ وتعود بالطلب، وهى تُعطى الطفل ثمرة فاكهة قائلة:

- سلم على أمك . تعود لتجلس فى مكانها مرةً أخرى، لكن جرس الباب، يدق للمرةِ الثانية، هذه المرة، كانت ( زُبيدة) بائعة الحليب تقف مُبتسمة بوجهها الخمرى الطيب، وملابسها الريفية الملونة:

- صباح الخيرياحاجة (فيروز).

فيروز: صباح النور يا (زبدة )، دائمًا ما تدللها بهذا الإسم، منذ أن كانت طفلة، تتعلق فى طرف ثوب أمها (صفية)، التى كان تأتى كل صباح إلى الإسكندرية، مع قطار الأرياف.

- اليوم.عندى جبنة وزبدة والله يستاهلوا بقك، تبتسم الحاجة فى ميوعة، رافعة أحد حاجبيها الرفيعين، التى رسمتهما بالكحل

- نصابة؟ المرة اللى فاتت قلتى لى، الزبدة طازة، وطلعت قديمة. شهقت زبيدة، وضربت على صدرها المُمتلئ بيديها قائلة، بشهقة ممطوطة.

- لا والله أبدًا .. كانت معمولة فى يومها . تضحك فيروز قائلة:

- إنتى زمتك واسعة، ومش زى أمك الله يرحمها . تتنهد بعدها (زبيدة)، ثم تقول فى حزنٍ صادق.

- أمى؟ الله يرحم أمى، وزمن أمى، حتى جاموسة أمى! كانت الله يرحمها، بتطلع جزء من لبنها لأهل الله .. من كتره !!دلوقتى تعالى شوفى الجاموستين اللى عندى؟ مش بيطلعوا نص الى كانت بتطلعوا .صمتت بعدها فى حزن، وشعرت فيروزبمعاناتها الصادقة، فهى بالفعل طيبة كأمها، لكنها ككل بنات جيلها، تكدح من أجل أسرتها، نفقات تعليم الأولاد، وجهاز البنات، تخشى من الفقروالعوز، خاصة بعد سفرزوجها إلى العراق، ووفاته هناك ! .تضن يداها حينًا.وتلجأ إلى الحيلة أحيانًا كى تعيش،على عكس أمها التى كانت تترك كل شىء يسيرببركة الله .

- ماهو طول ما أنتِ دايرة تحسبيلها بالواحدة مش ها تمشى يا خايبة، أمك كانت سايباها على الله .. نهايته، أخرجت مبلغًا من المال، أعطته لزبيدة التى تجرى على أيتام كما تقول، فتنظرلها زبيدة قائلة فى امتنان

- بس ده كتير والله ياحاجة، أكثر من حقى، تبتسم فيروز وهى تربت على كتفها فى حنان أم، تمسح دموعها التى غلبتها، قائلة فى مرح:

- حقك أيه يا بنت ..كسر حقك، يالا روحى وسلمى على العيال، بس ماتغيبيش عليَّ .تدعو لها زُبيدة بالصحة وطول العمر، لملمت أدواتها الثقيلة، وباب الشقة لم يزل مفتوحًا عن آخره، سمعت صوت عكاز(إسماعيل الفقى) كعادته كل صباح، صعد أولى درجات السلم بصعوبة، ألقى عليهم السلام، ثم بدأ التلاوة بقراءة سورة يس .كانت (مشيرة)، تُحاول جاهدة، أن تنام وسط هذا السوق الصباحى، لكنها لم تتمكن أبدًا من ذلك، فنهضت فى غضب مُتطلعة إلى ذلك الجِوال النائم بجوارها، تعلم أنه لن يستيقظ أبداً قبل الظهيرة، فذلك المورفين اللعين، يجعله جثة هامدة، زفرت فى غضب، ثم قامت بعصبية خارجة من غرفتها، واضعة يدها فى وسطها. بينما لازالت فيروزتنادى على إحدى جاراتها من (بير السلم) . لاحظت مشيرة ذلك الخاتم الذهبى الموجود على المنضدة، بجوار السبرتاية، بينما كانت (زبيدة) تجلس على الأرض تُلملم أدواتها وإسماعيل الفقى يقرأ على المصطبة خارج المنزل . لتبدأ شجارها اليومى مع الحاجة (فيروز)

- مشيرة:حرام عليكى، كل يوم الدوشة دى .. مش عارفة أنام، عندى شغل الظهر.

فيروز:ما تنامى هو حد منعك يا بنتى!

مشيرة:حرام عليكى من السوق اللى بتعمليه كل يوم الصُبح، وجرس الباب اللى ما بيبطلش رن؟!

فيروز: بقولك إيه، دى عوايدى من خمسة وعشرين سنة، ودول جيرانى .. أنا صاحبت البيت، وأنا حرة.

مشيرة:كان يوم أسود لما شوفتك أنتِ وابنك ..

فيروز:هو انتى كنتى تطولى يا بنت حميدة الغسالة ؟!

مشيرة:مش دى اللى عاملة فيها صاحبتك، بتعايرنى بشغلتها ليه، علشان انتى ولية بوشين!! وقفت (زبيدة) حائلاً بينهما قائلة:

- وحدوا الله يا جماعة، بينما توقف إسماعيل الفقى عن القراءة، وهو يحوقل.

نزلت (نورا) زوجة خميس الحلوانى، التى حاولت.فض الاشتباك قائلة:

- خلاص بقى، وحدى الله ياحاجة، وأنتِ خشى جوا، تشاجرت معها مشيرة

- اخرسى ما تتكلميش معايا

نورا:أنا مش هارد عليكى علشان الحاجة فيروز، جلست نورا وفيروز على الأريكة، بينما رحلت زبيدة وإسماعيل الفقى وأغلقت الباب، قبل أن يتجمع الجيران عليهم، دلفت مشيرة إلى غرفتها، بدلت ملابسها، وخرجت إلى العمل، وحسين لم يزل نائمًا بعد كل هذا الزلزال، بحثت فيروز عن الولاعة لتشعل على القهوة، لكنها لاحظت شيئًا غريبًا، لقد اختفى الخاتم الذهبى الذى كان بجوار السبرتاية.

****

## - 18 -

- أنا مُتأكدة إن هى اللى سرقته.

كانت فيروز تقف فى الصالة بينما جلس حسين وعاصم على الأريكة، ومُشيرة تبكى فى استعطاف .

- أنا والله ما سرقت حاجة . تفرس عاصم ملامح وجهها، تابع حركات جسدها بدقة، كجهازرصد ذبذبات يابانى الصنع، لقد صارهذا العالم مكشوفًا بالنسبة له . كما يعلم مُدرب الأسد من حركات ذيله، متى سيهجم، ويقرأ مُروض الثعابين حركاتهم جيدًا، هى ليست سهلة ! بل هى مُجرمة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لكن لا دليل مادى يُدينها، يتذكرها منذ أن كانت طفلة فى السابعة، كانت تأتى مع أمها وهى تغسل الملابس فى حديقة المنزل الكبير، أيام الغنى، شاهدها تلهو بقتل الأرانب والقطط المارة بأى شىء تجده، سكينًا حادًا،عصا مُدببة ذات مسامير بارزة، حُقن مُلوثة، أو أسياخ حديدية تضعها فوق موقد الغلية، حتى تسخن، ثم تكوى بها الحيوان المسكين الذى ألقاه حظه العاثرفى طريقها، لاحظ عاصم هذه الهواية العجيبة عند الطفلة (مشيرة)، فسألها يومًا، لماذا تفعلين ذلك؟ نظرت له نظرة رهيبة لاينساها أبدًا.ثم ردت بتلقائية:

- هُما ربنا خلقهم، علشان يموتوا ؟! وأنا بحب أموتهم !!. وعندما قال لها

- ليه يابنت كده حرام، ربنا هايزعل منك، أعطته ظهرها، وانصرفت! كانت تجلس صامتة تراقب كُل شىء، ولا تلهو أبدًا مع الأطفال، تشعر أن شيطانًا صغيرًا يلهو بداخلها، دائمًا ساخطة، وعنيفة، لا تُساعد أمها، وتعتز بجمالها

لأقصى حد . طفلة بهذا التاريخ المُرعب، لأيمكن أن تُصبح امرأة سوية أبداً!!هذا يُفسر، لماذا يشتم رائحة الموت التى يعرفها جيدًا، بُمجرد أن تزوجها حُسين. وأدخلها المنزل؟ صار يشم رائحة الموت فى كل ركن، ما عدا غرفته هو وفيروز، لكن ما أحزنه، أنه اشتم رائحة الموت فى جسد حسين أيضًا، فى يديه، وملابسه، لايعنى هذا سوى شىء واحد؟ أنه ضالعٌ معها فى الدم؟!كما حلم تمامًا .

تركها تسترسل فى خُبثٍ قائلة :

- وقت العركة كان فيه خمسة فى البيت! ليه ماوجهتش التُهمة إلا لىَ أنا ؟

نظرت فيروزلها فى هدؤ:

- دول أنا مربياهم، وبيدخلوا هنا، من عشرين سنة، زبدة دى أمها كانت بتجيلى من عشرين سنة، وإسماعيل الفقى، وكمان نورا ؟شوفى بقى من الغريب اللى دخل علينا؟ نظرت لها باستعطاف وهى تقول .

- ليه كده يا حاجة؟ طيب ما أنا برضه متربية هنا زيهم!! وأمى طول عمرها صاحبتك وبتخدمك بعينها. غضبت فيروز وهى تنظر لها، هى وحسين نظرة اتهام، جعلتهما ينكمشان فى مكانهما .

- أمك؟! مابلاش تفتحى موضوع أُمك علشان ها قولك كتير!!. ومش عاوزة أتكلم. نظرت فيروز إلى حسين فى حيرة، فنطق قائلًا فى ارتباك :

- إيه يا حاجة ما توحدى الله، أنا مش عارف أتدخل، لكن مشيرة مش ممكن تعمل كده، دى مهما كان زى بنتك.

- بنتى ؟! خليك يا خويا ماشى وراها زى الخروف، لما تجيب رقبتك لحبل المشنقة . ماهذا ؟! هل تعرف شيئًا ؟ إنها تُقدم تلميحات غير مريحة !!. زفر حسين فى غضب، بينما كان عقل مشيرة يعمل فى هدؤ شديد، وعيناها تضيق بشكل غريب .

حسين: ليه ياما الكلام ده، عيب كده، بتشتمينى قدام مراتى ؟!.

فيروز: خليك كده يا اخويا. أما نشوف أخرتها معاكم. نظر لهم عاصم فى تحدٍ قائلًا وهو يتحدث إلى فيروز:

- ما تقلقيش يا (أم فضيل)، الخاتم بأمر الله هايجى،هايجى، وهيبان اللى سرقه.

لاحظ تلك الابتسامة الساخرة على وجه مشيرة، فابتسم هو الآخر ابتسامة المُنتصر. لقد حمى وطيس اللعبة، إذن فلنلعب ونُلقنها درسًا .

حل المساء، وأضواء المصابيح الملونة قد بدأت تنعكس داخل المنزل، والزغاريد تنطلق من الطابق العلوى، دقائق ودق جرس الباب حيث دخلت نورا قائلة:

- مساء الخير عليكم، ماتنسوش الفرح،عاوزينك يا حاجة علشان تزوقى العروسة .

ابتسمت الحاجة فى غضب مكتوم وهى تنظر لزوجة ابنها شزرًا

- طيب يا نورا، شوية وأنا طالعالك

. نظرت نورا بقلبها الطيب تجاه مُشيرة قائلة:

- وأنتِ كمان يا مُشيرة، تعالى معايا، وماتزعليش منى بسبب العركة، النهاردة فرح، وعاوزين كلنا نفرحوا.

مشيرة:لا أنا مش زعلانة منك، بس هانروحوا مشوار ساعتين شغل، ونرجعولك.

انتظر عاصم، حتى فرغ المنزل تمامًا، وخرج الجميع، كلٌ إلى وجهته، ظل قابعًا فى غُرفته يُصلى ويقرأ القرآن، كانت الإضاءة خافتة على قدر مصباح القراءة، جلس بعدها يُطالع ذلك الكتاب الأسود الكبير المُخطوط عليه بماء الذهب من الخارج، والذى وجده يومًا على المنضدة الكبيرة فى المشرحة، كان

يخص أحد ضيوفه هناك، ولم يفارقه من يومها!!.

«وقد دل على التقاء أرواح الأحياء والأموات، أن الحي يرى الميت في منامه فيستخبره ويخبره الميت بما لا يعلم الحي فيصادف خبره كما أخبر فهذا هو الذي عليه السلف من أن أرواح الأموات باقية إلى ما شاء الله وتسمع، ولكن لم يثبت أنها تتصل بالأحياء في غير المنام» الإمام ابن القيم الجوزية

إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى – فلا تستعزن بعز يفنى. قوم تسبق أنوارهم وأذكارهم، وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم. ابن عطاء الله السكندرى.

أغلق كُل الأنوار، فغرق المنزل فى ظلام دامس لايكسره فى بعض الأحيان، سوى انعكاسات المصابيح المتلألأة فى الشارع جلس على مكتبه العتيق ووضع الكتاب الأسود، وأخرج من العلبة قطعة كبيرة من الجبن الأبيض، ثم أخذ يتلو بصوت خفيض فى الظلام

قوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ )

صدق الله العظيم، كررها عشرات المرات بقوة، وهو يدق بيده على المنضدة، عاد رأسه إلى الوراء، وأصاب الخدر جسده، وصل لمرحلة (النيرفانا)، لاحظ تلك الكتلة الضوئية التى تتحرك فوقه على سقف الغرفة، بدت مُبهمة فى أول الأمر، لكنها اتضحت له شيئًا فشيئًا، حتى أنه بدأ يُميز ملامح صاحبها، شاب قوى، ضخم الجسد، مفتول العضلات،إنه (خضير) ذلك الشاب بطل المصارعة، الذى مات فى حادث مأساوى، لا يعرف ما الذى علقه به، لكنه كان يزوره كثيرًا، ويساعده فى قضاء بعض أموره!!، انتفض جسده قليلًا وهو يطرق فوق منضدته مرتين، بطقطقات واضحة قائلاً فى ثبات:

- رد على إجابتى بطريقة واضحة، جاءه رد الفعل طرقتين على المكتب كما فعل:

أخذ يتمتم وهو يشعربالبرودة، قد حلت على المكان، حتى تخيل أنه يكاد يتجمد .ظل يرسل إشارته اللاسلكية للهالة التى كانت ترد عليه بوضوح، حتى انتهت، تحركت فى أنحاء المنزل، حتى وصلت إلى باب غرفة مشيرة المغلق، عبرته الهالة بسهولة، بينما كان عاصم يتابعها من مكانه، فى غرفته، حيث لم يكن قادرًا على الحركة، لقد سيطر عليه الجاثوم[8] تماماً، لكنه كان يرى كل شىء بوضوح، خارج الغرفة الباب، كان يرى العملاق وهو يتحرك داخل غرفة (مشيرة)، اتجه إلى الدولاب مُباشرةً، ورفع حقيبة السفر الكبيرة، على الرغم من ثقلها الواضح، لكنه رفعها بيدٍ واحدة فى الهواء كمن يرفع لعبة صغيرة،

أسقطها أرضًا، ثم فتحها بكل بساطة،على الرغم من كونها، كانت مُغلقة بأرقام سرية!، مد يده، فى نقطة عميقة حاكتها مشيرة بين البطانة والجلد، وحصل على الخاتم المفقود، ثم أعاد كل شىء إلى مكانه، واتجه ناحية غرفة عاصم مرة أخرى، ووضع الخاتم فوق المنضدة. جلس عاصم يتأمل الخاتم فى رضا، بينما جلس هو أمامه مجهدًا وكأنه كان يجرى خمسة كيلومترات،هدأ قليلًا، وهويلتهم قطعة الجبن الكبيرة، ثم اختفى. فتح عاصم عينيه فى فزع، ليجد خاتم زوجته فيروزعلى المنضدة، وقطعة الجبن قد اختفت من الطبق !!الا يدرى ماذا كان هذا ؟ ولكن ماعلمه له الشيخ هريدى، وما وجده فى الكتاب أتى بثماره ؟! مد يده فى دولاب ملابسه لقد وعد خميس أن يرتدى جلبابًا صعيديًا يوم عرس ابنته، ارتدى جلبابًا فاخرًا وزينه بعمامته الصعيدية البيضاء المُرتفعة، تعطر جيدًا ونزل إلى حفل الزفاف الذى كان قد صارعلى أشده.

*****

---

8) شلل النوم أوالجاثوم: هو حالة من الاختناقوعدم القدرة على الحركة أثناء النوم وتسمى أيضا بأبي لبيد أو شلل النوم واسمه العلمي بالإنجليزية Sleep Paralysis)

## - 19 -

نفس التوقيت .... على بعد ثلاثة شوارع من حارة الغول منزل (حميدة أبو النور)

كانت حميدة تجلس أمام آخر قطعة غسيل أمامها، وقد تصببت عرقًا وهى تستمع لإذاعة الشرق الاوسط، من مذياعها العتيق، الذى لايفارقها كظلها.

غمض عنيك وامشى بخفه ودلع

الدنيا هى الشابة وأنت الجدع

تشوف رشاقت خطوتك تعبدك

لكن أنت لو بصيت لرجليك تقع

عجبى.

لم تنتبه حميدة لتلك العيون الجميلة التى كانت تُراقبها من على ارتفاع ثلاثة أمتار، من القبة الخضراء التى تعلو غية الحمام، كان صاحب العيون يقبع فى صبرفهد، يتحين الفرصة لاقتناص فريسته، ساعدته إضاءة السطوح الخافتة على الاختفاء جيدًا، تابع حميدة وهى تُنهى أكوام الملابس المُتسخة، التى أماماها، كان الإرهاق واضحًا عليها، فأطفأت المواقد، ووضعت كل أدواتها فى أحد الأركان، ثم دخلت إلى الحمام، وصبت الماء الساخن فوق جسدها الهزيل، فى محاولة يائسة لإزالة ذلك الإرهاق الرهيب، الذى حل بجسدها،

خرجت من الحمام مُرتدية جلبابًا قصيرًا كشف عن ساقيها العجفاوين اللتين ذابتا من الشقاء، أغلقت باب الغرفة عليها، وجلست على" كرسى تسريحة "مُتهالك، كانت قد ابتاعته من سوق الجمعة، وهى تُمشط شعرها فى المرآه الكبيرة المشروخة، تنهدت فى يأس عندما نظرت إلى نفسها، لم تعد "حميدة بدر البدارى"، كما كان يُطلق عليها شباب (مركز البدارى) بأسيوط، لقد صارت حميدة "الغسالة المسكينة"، لو كان الأموات يسيرون بعد بعثهم، لن يكون لهم أفضل من هذه الهيئة، جسد نحيل، شعر أبيض متساقط، أسنان مكسورة وعيون حمراء!علقت على شكلها البائس بالجُملة الشهيرة الأكثريؤسًا:

- نهايته، مش ها ناخد زمانا وزمن غيرنا، الحمد لله على كل حال. نامت على سريرها الصغير، دقائق معدودة وعلا شخيرها، هكذا هم أبناء الشقاء، يدخلون فى غيبوبة مفاجئة، وينهار جسدهم فجأة من فرط التعب . لم تشعر حميدة بتلك الأقدام التى عالجت كالون الباب المُهترئ بمنتهى البساطة، وتحركت فى الظلام برشاقة، وكأنها تعرف خطواتها داخل المكان جيدًا، أشعلت كشافًا خفيفًا، واقتربت من حميدة النائمة فى سلام. مدت يدها الأخرى بخفة، وهى ترتدى قفازًا طبيًا مطاطيًا، وغرست إبرة رفيعة فى رقبة حميدة النحيلة التى فتحت عينيها فى ألم، لترى ذلك الملثم الذى قد غرز الإبرة فى ثبات .

- آه .. ليه كده ؟عملت لك أيه، أنا غلبانة وما عملتش حاجة . جاءها صوته الرصين الخالى من الرحمة .

- عملتى حاجات كتير، تستاهلى عليها الموت، وكان لازم تموتى. نظرت حميدة فى عيني الملثم بتمعن، ساعدتها الإضاءة الخافتة، المُنبعثة من المصباح الصغير، ثم ابتسمت وهى تقول فى استسلام.

- كنت عارفة إن نهايتى ها تكون على يدك، ابن الحرام ما يجيش من وراه غير كده !!. اختلجت عضلات وجه الملثم وهو يسمع تلك الجملة، قبل أن تبدأ حميدة بالتشنج، والالتفاف بأقدامها بعنف، ولسانها يتدلى، خارج فمها، ظلت ترفرف بيديها وساقيها، كطائر تم ذبحه، بينما الملثم يراقبها فى هدوء حتى أسلمت روحها إلى بارئها. فأغلق الباب، وخرج فى هدوء.

****

## - 20 -

أعوام طويلة لم تنعم فيها حارة الغول، بمثل هذا السلام النفسى، وتلك السعادة الغامرة، احتفاء بزفاف (نجوى) ابنة خميس الحلوانى ونورا، على الأستاذ( أمجد)، مدرس التاريخ بمدرسة محمد كُريم الإعدادية. الشارع والمقهى والمنطقة المُحيطة، كانت تستعد للمناسبة السعيدة، فالشادر الكبير، قد امتد على طول الشارع، وامتدت الموائد، عليها ما لذ وطاب من المأكولات والمشروبات، أطباق الفاكهة الكبيرة، على شكل قوارب، أكواب الشربات، وأطباق الحلوى تملأ المكان، كل ذلك أقامه معلمين الحارة احتفاء بابنة صديقهم، وبالطبع أبدع خميس كصانع حلويات محترف، فى عمل (تورتة فرح) عظيمة. أكل منها كل أبناء الحارة، بالإضافة إلى الحلويات الشرقية والغربية الرائعة. كان صوت الموسيقى يُغطى على كل شىء، فقد قرر الجميع قضاء ليلة استثنائية، كلٌ ترك همومه ومشاكله على عتبة داره، وهبط إلى الحفل بنفسٍ راضية! حتى نصر اليهودى وأسرته، وعاصم وفيروز اللذان لم يفرحا منذ مُدة طويلة، فقد ارتديا أجمل ثيابهما، وجلسا فى الحفل فرحان. ظلا يصفقان ويضحكان، عندما صعد بيومى فوق المسرح الخشب، قاطعًا فقرات الحفل الراقص، ليُقدم تحيته (ونقوطه ).

- خمسين شمعة ووردة لأخويا وحبيبى المعلم خميس الحلوانى بمناسبة زفاف عروستنا الحلوة نوجا على عريسها الأستاذ (أمجد) . واسمع سلام صعيدى . ليهتف بعدها "نوبتجى" المسرح

- سلاااام صعيدى ...ياجداااع.

قذف أحدهم عصا غليظة لبيومى الذى رقص بمهارة على أنغام الموال الصعيدى :

كل عيشك بملحك وفجلك

وعيش عيشة جدودك

واتمد على قد رجلك

بلا تزيد عن حدودك

ظل يرقص بخفة على صوت المطرب الصعيدى ذو الصوت الرائع، قطع الموال مرة أخرى وهو يمد يده لعاصم قائلاً :

- وقف ... وقف .عمنا وعم الرهاينة الحاج عاصم الغول، أسمع سلام صعيدى . وقف عاصم بخفة وتلقف العصا بمهارة من بيومى وهو يرتدى جلبابه الصعيدى الثقيل، وفوقه عمامتة البيضاء الجميلة، وفى بنصره خاتم من الفضة، أذهل الجميع برقصه، حتى فيروز قد أصابتها الغيرة من إعجاب سيدات الحارة به، بدا رشيقًا وطائرًا فى سعادة، بينما تجمع أصدقاءه حوله يشجعونه، ويطربون لرقصه، وكلما قرر أن يغادر استوقفوه وطلبوا منه أن يُكمل، بينما ( مُشيرة)، قد انتبذت لنفسها مكانًا بعيدًا فى آخر السرادق، كى لا تتحدث مع أحد. كانت تنظر للجميع، وعلى وجهها علامات جامدة، وكأنها لا تنتمى لأحد، وكأن الأمر لا يعنيها، بينما كان(حسين ) سعيدًا، وهو يرقص لأول مرة مع والده، لقد كان اليوم استثنائيًا بالفعل.

الجود ماهواش بمـال ولا بلبس القماشي دا طبع في الشخص، سلسال دا طبع في الشخص سلسال لا هو بماله ولاشي

- أنهى رقصته فوق المسرح، وسط إعجاب وذهول الجميع، كانت صيحات الإعجاب تنهال عليه من كل مكان .

- بسم الله ماشاء الله عليك يا عمنا، والله أحسن من أى شاب. نزل من فوق المسرح الخشبى، واقترب من (فيروز) التى كانت تجلس بجوار(نورا)، التى رحبت به بشكل إستثنائى.

- أيه الحلاوة دى بس ياعم عاصم، ماشاء الله عليك، إحنا والله لازم نبخرك. تعالى أقعد جنب القمر، كانت (فيروز) تنظر له فى حب مازحة:

- يموت الزماروصوابعه بتلعب، ضحك فى سعادة:

- هو أنتِ ما بتنسيش أبدا ؟!

- وأنا مالى ؟!. أنت اللى بتفكرنى أهه

ضحك فى وجهها، ثم مد يده فى جيب صديريته وأخرج الخاتم المفقود، أمسك يدها فى حب، ثم وضعه فى بنصرها الأيمن، وكأنه يقوم بخطبتها من جديد .

صباح اليوم التالى .

لم تعتد فيروزتلك الطرقات المُبكرة على باب المنزل، فاليوم جُمعة، والحارة سهرت حتى الصباح فى فرح (ابنة خميس الحلوانى ) ونورا جارتها .الساعة التاسعة صباحًا، والحارة كُلها تغُط فى نوم عميق لا يقطع السكون، سوى مزمار( متولى) بائع الفول، الذى يستيقظ باكرًا منذ ثلاثين عامًا، كقطار الصحافة، لا يحيد عن موعده أبدًا، ولايعرف أعياد أو مناسبات، فهو مُنذ السابعة صباحًا، تجده مُرابضًا، بجوار عامود الإنارة الواقف كالحارس على مدخل الحارة . وجدت شابًا، شارف على العشرين، يقف مُترددًا خائفًا على الباب، ونظره إلى الأرض. أول مرة تراه. لكنها بادرته قائلة:

- خيريا بنى، فيه أيه؟!

- أنا آسف يا حاجة، بس مش ده بيت الست (مُشيرة) . ردت فيروزفى قلق:

- أيوة يا بنى، خير، عاوزها فى أيه؟

- والدتها توفيت.

انفجر الدمع من عين فيروز، وهى تجلس على أقرب أريكة، من هول الصدمة

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. إمتى ده حصل؟

- أمى جت تصحيها الصبح .. حوالى الساعة سبعة. علشان شغل، لقيتها ما بتتحركش

- كانت مُشيرة قد خرجت، ومعها حسين وعاصم .صرخت (مُشيرة) وسقطت أرضًا، وملأت الحارة ضجيجًا.

****

## - 21 -

لم تكن فيروز تشعر براحة، لموت حميدة المُفاجئ. كانت تذرع المنزل ذهابًا وإيابًا، سألت جيرانها فى العزاء عن سبب وفاتها، قلن لها: إن الطبيب عندما جاء، أكد أن المرحومة، قد أصيبت بجلطة فى المُخ، أثناء نومها. هزت رأسها غير مُصدقة، لا بُد أن هناك خطأ ما !! فحميدة كانت بحالة جيدة

- هى أعمار... لا إله إلا الله .

لكنها كانت مُتخوفة من شىء ما ... (مُشيرة)، تلك الحية الرقطاء، لكن هل من الممكن؟! اهزت رأسها، بالنفى هامسة وهى ترتشف فنجان قهوتها .

- مش للدرجة دى ؟!

انتبهت على وقع أقدام مُشيرة القادمة من غرفتها . قائلة:

- مساء الخير.

ابتسمت فيروز على مضض قائلة:

- مساء النور، اقعدى .

اتخذت مجلسها على الأريكة المُقابلة لأريكتها الملكية التى كانت تجلس عليها طوال الوقت، أمام (سبرتاية القهوة)، دعتها إلى فنجان قهوة، فوافقت مُشيرة على الفور. أخرجت فيروز برطمان بُن فاتح اللون، أخذت منه ملعقة كبيرة، ووضعتها على القهوة، ظلت تتابع القهوة وهى تنضج، بينما مشيرة تستمع بهدوء لصوت هسهسة القهوة فوق الموقد السيبرتو الصغير. قطعت فيروز الصمت قائلة.

- طالت غيبتكم .. ثلاثة أسابيع أنت وحسين بعيدين عن الدار، كنتوا فين؟

ردت مُشيرة بتحفظ:

- كنت لازم أقعد هناك فى بيتها، لتلقى العزاء، وتخليص أوراق. مصمصت فيروز شفتيها فى حزن

- الله يرحمها ..ويحسن إليها . كانت تُتابع وجه (مشيرة) الذى لم يعط أى إشارة للتأثر، لكنها قالت وهى تشير للقهوة .

مشيرة- أيه سبب حبك للقهوة ؟

فيروز: أهو كيف زى باقى الكيوف .. لكنه أرحم من غيره .

تناولت مُشيرة منها الفنجان وهى تشرد بذهنها إلى نقطة فى الفراغ قائلة .

- كانت أمى، تحكى لى عن قهوتك، ذرفت من عينها دمعة، لم تنطلى على (فيروز)!! .لكنها أخرجت علبة معدنية من مادة الاستانليس، وأعدت لنفسها، فنجانًا آخرمن قهوة سوداء اللون .لاحظت مُشيرة ذلك فبادرتها قائلة بشك:

- ليه مش بتشربى من نفس البرطمان؟

ابتسمت فيروزبذكاء، وهى تنظرفى وجهها، إنها تعتقد أن كل الناس غدارين مثلها؟!لكنها ردت عليها ببساطة:

- علشان أنا بشرب (بنُ غامق)، وعليه (هيل)[9] عربى، طعمه مُرجدًا، وما حدش بيشربوا من أصدقائى، علشان كده، أنا عملتلك بُن فاتح زيهم. ابتسمت مشيرة وهى تقول:

- ممكن أدوقه؟

فيروز: اتفضلى ... أعطتها فيروزالفنجان رغم دهشتها. تذوقته مُشيرة وكأنها تختبر شيئًا ما!. لم يعجبها طعمه، فقالت لها:

---

9) الهال أو الهيل في الجزيرة العربية والشام أو الحبهان في مصر

- ياه، طعمه مرجدًا فعلًا، صعب على.

فيروز: قلت لك، أنه صعب، كملى قهوتك الفاتحة، أمك كانت تشربها من إيدى . كانت تتابع حركات مشيرة، وهى تود أن تسألها السؤال الذى سيقتلها، لكنها تظاهرت بعدم الاهتمام، حتى قالت لها مشيرة :

- الله يرحمها .. كان سرها كله معك . تظاهرت فيروز بعدم الاهتمام وهى تقول:

- سر أيه؟، أمك كانت ست طيبة، وما عندهاش أسرار. لكن مُشيرة لم تمهلها قائلة .

- لا كان عندها؟! ردت عليها فيروز فى هدؤ

فيروز: ده مش وقته الكلام ده، وبعدين أنا مراعية ظروفك، وبحاول أنسى الخلافات، علشان خاطر المرحومة أمك، لكن مشيرة ضغطت عليها مرة أخرى:

- فين المظروف الأصفر اللى خبتيه فى صدرك، يوم ما دخلت عليكم؟ لم تهتز (فيروز)، تعلم أن هذا السؤال قادم. فردت ببرود:

- دى حاجة ماتخصكيش يا (مشيرة)، الست أمنتنى على شىء، وماطلبتش منى، اسلمه لكِ.

مشيرة: أنا بنتها الوحيدة، وحقى شرعًا، قاطعتها فيروز:

- المظروف مفيهوش فلوس ولا شىء .

مشيرة: وأنا أعرف منين ؟! إنقلب وجه فيروز وحاولت لطم مشيرة على وجهها قائلة:

- هى حصلت تتهمينى بالسرقة يا بنت (...)، لم تكمل الجملة، حيث تحولت مُشيرة، إلى نمرة غاضبة جدًا، احتقن وجهها، وقفزت فوق فيروز، ووضعت يدها حول عنقها:

- إياكى تمدى، إيدك علىَّ تانى، لو عملتها أنا هاموتك . أنتِ ما تعرفينيش كويس؟!

- حاولت فيروز التملص برقبتها، يمينًا ويسارًا، إلا أن يد مشيرة، كانت تضغط عليها بقوة رهيبة، كادت تحطم حنجرتها صرخت فيروز من الألم، فأفلتتها الأخرى خشية من الفضيحة . لكن فيروز فقدت عقلها، من هول ما رأت من زوجة ابنها، لقد كادت تقتلها.

فيروز:أعرف للأسف أنك مجرمة !!ولو كان بيدى، كنت بلغت عنك حالًا، لكن للأسف ابنى مشارك معاكى فى الجريمة، وهايضيع هو كمان .. وخلاص مفيش غيره! . كانت (مُشيرة) تحاول التماسك أمام(فيروز)، نفس الوجه الشمعى المخيف الأبيض الذى لا يخبئ خلفه أية مشاعر. ردت على فيروز بهدؤ:

- كلام فارغ!. أمى ماتت موتة طبيعية، والدكتور أكد ده، واندفنت خلاص!

- الكلام ده ممكن يكون دخل على البوليس والنيابة،علشان مالهمش غير الورق، لكن مادخلش علىَّ أنا ! ولو عاوزة نفتحوا التحقيق، هانفتحوه.

مشيرة: مفيش دليل على كلامك .

فيروز- عندى دليل يحط حبل المشنقة فى رقبتك، لو سلمته للبوليس والنيابة، لكن المُجرم (حسين) هو اللى ما نعنى. بدأت مشيرة هادئة وهى تكشف أوراقها

- كويس إنك عارفة المعلومة دى، نظرت لها فى تحدٍ قائلة:

- واضح أن العجوزة الخرفانة دى حكتلك على حاجات كتير.. هزت فيروز رأسها فى اشمئزاز، وهى تسمع (مشيرة) تنعت أمها بتلك الألفاظ، فقالت لها فى غضب:

فيروز:هى فعلاً قالت لى على حاجات كتير.. أقلها أنك بنت حرام!!

امتقع وجه مشيرة، لقد سمعت تلك الجملة من قبل، لكنها ردت بصفاقة .

- أنا هاخد الظرف ده بأى تمن .

فيروز: إطمنى، مش هاتلاقيه فى البيت خالص، ومش هايظهر إلا على جثتى.

- خرجت مشيرة، وأغلقت وراءها الباب فى غضب. ثم نظرت خلفها لثانية قائلة، وهى تبتسم ابتسامة مُخيفة .قائلة

- آمين !!

****

# - 22 -

.. معامل السلام للتحاليل، د: محمد الشحات

كانت مشيرة تسحب بمهارة عينة دم من ذراع مريضة سمينة، ترتدى ملابس ريفية . سحبت العينة فى ثوانٍ معدودة .كانت ترتدى ملابس سوداء، تحت معطف التمريض الأبيض.وقفت تنتظر المريض التالى فى ميكانيكية شديدة .لمحت شخصًا يُراقبها، يتفرس جسدها فى تمعن، عرفته جيدًا، بوجهه، الذى يشبه قرص الجبنة، وابتسامته السخيفة التى تسحب الأُكسجين من الجو، كان (لمعى ) صاحب المنزل، الذى كانت تسكنه مع أمها حميدة. قطبت حاجبيها فى قلق، كيف عرف مكانها وما الذى أتى به إلى هنا ؟!.لا تعتقد أنه رآهما؟، لقد كان بير السلم حالك الظلام، وهو كان مسطولًا،.ربما جاء يعزيها فى وفاة أمها فقط.

- مساء الفل يا قمر: قالها فى فظاظة .. لم ترد عليه بل أكملت كتابة، اسم (بهيجة على)، بقلم أزرق فلوماستر،.على عينة الدم التى سحبتها من المريضة، ودون أن تنظر له قالت:

- خير – عاوز أيه يا معلم (لمعى )، نظر يمينًا ويسارًا قائلًا بلزوجة مقيتة، تعودت عليها وهو يتفقد بعض المناطق من جسدها:

- الصلاة على النبى! ده القمر بقى اتنين بعد الجواز يا جدعان! كانت فى حالة مزاجية مُعتلة، من جرّاء مشاكلها، التى لا تنتهى مع أهل حسين، فردت عليه بامتعاض:

- عاوز أيه يالمعى .. قصّر، رد عليها فى برود:

- أبدًا، عرفنا أن الست الوالدة قابلت رب كريم، فقولنا نيجوا نعملوا الواجب، ابتسمت فى سخرية:

- لا فيك الخير، وأديك عملته .. عاوز حاجة تانية ؟! كانت تتمنى لو ألقت بسكينًا فى صلعته اللامعة، حتى تتخلص من هذا الكم الرهيب من الثقل الذى يجثم على صدرها، تخيلت زوجته (مدام حنفى)، كيف تنام بجوارجوال البيض الفاسد هذا؟ لكن من قال إن الطيورعلى أشكالها تقع لم يُخطئ أبدًا، خصوصًا مع هذه الحالة الفريدة.

لمعى: هو أنا بصراحة كُنت عاوز حاجات كتيبير!، بص خلاص بقى، أنتِ اللى اخترتى (سحس)، وربنا يهى سعيد بسعيدة، بس أنا لى طلب تانى؟ زفرت فى غضب عندما رأت مُشرفها المُباشر الأُستاذ عبدالله الأسمرانى، وهو ينظر لها فى ضجر.

- بقولك أيه يا لمعى، أنا ماعنديش وقت للكلام ده، خلص علشان هنا مكان شغل .انقلب وجهه، وهو يقول:

- لأ أنى مش جاى نشحتوا منك، من الآخر كده عاوزك تفضيلى المُطرح، اللى فوق السطوح.

مشيرة : ليه إن شاء الله.

- أظن بعد.ما أُمك المرحومة، ما اتكلت على الله، وجوزها (سبع الليل)، ثم ابتسم فى وجهها بوقاحة وهو ينظر فى عينها ويغمز قائلاً ... اللى ماحدش عارفله طريق جُرة... ، وأنتِ ربنا فتحها عليك واتسترتى،يبقى المُطرح اللى فوق ده من حقى، وعاوزه،علشان نعملوا فيه مصلحة.

مشيرة: حقك منين، كسر حقك يا بعيد، حافظ على هدوئه، وهو يُخرج كارتًا بلاستيكيًا، به صورة أحد الأشخاص، بصرها لم يكن من القوة الكافية،

لتلمح الصورة، لكنه فاجأها وهو ينظر فى الصورة والإسم:

(حسين عاصم الغول)، ٢ حارة الغول – محرم بك، صمتت وهى ترى بطاقة حسين بين يديه. فقالت بهدوء:

- جبت دى منين؟

- مفيش فايدة منه الكلام ده، المُهم تتنازلى عن المُطرح، ها نسكتوا وبا دارما دخلك شر، مش ها تتنازلى، يبقى كل حى يدور على حقه، ها قلتى أيه

كان عقلها صافيًا ومُرتبًا !!، لقد اكتشفت بداخلها قُدرة غير عادية، على الاحتفاظ بهدوئها فى الأوقات الحالكة، نفس الحالة التى انتابتها عندما جثم عليها سبع الليل وهى نائمة، شعرت بقوة رهيبة تجتاح كيانها، وبأنها تُحطم عشرة ألواح ثلجية بيديها، قوة عقلية رهيبة، لاتدرى من أين تأتى، لكنها تجتاحها كزلزال رغبة عارمة فى القتل، تتعطش لرائحة دماء من يمتهنها، أو يستغل ضعفها، اتخذت قرارها فى جزء من الثانية، كانت صامتة، تنظر له فى إغراء، جعله يلهث كالكلب، وهى تبتسم فى دلال، كانت تهمس فى عقلها:

- أنت ابن كلب وعمرك ما ها تشبع، النهاردة ها تطلب المطرح، وبُكرة ها تطلب اللى بقالك سنين بتحفا وراه!، فعلاً مفيش فايدة منه الكلام؟!.قالت له فى إغراء:

- فيه كافتيريا على الترام اسمها عُمر الخيام، استنانى هناك الساعة التاسعة مساء.

****

## - 23 -

مقهى عمر الخيام... محطة الرمل

جلست إلى منضدة قريبة من الشارع تنتظر ظهوره، وهى تتلفت حولها كل عدة دقائق، وكأنها ستُمرر صفقة من المُخدرات . لمحته، يركن سيارته الفيات ١٣٢ الصفراء أمام مقهى عُمر الخيام، عادةً ما تكون الإسكندرية مدينة رحيمة فى الشتاء، اقترب منها وهى تُدخن رابع سيجارة فى شراهة، وهى تضع ساقًا فوق الأخرى، تأملها ولعابه يجرى ككلبٍ جائع، ابتسم وهو يسحب كُرسيًا :

لمى: مساء الفل يا قمر، بصراحة اختيارك ممتاز، المكان ده بيقدموا فيه جاتوه زى الفل، أنا جربته قبل كده . نظرت له باستخفاف، وهى تتأمل كرشه المُتهدل، لاحظ نظراتها المُستخفة، فتعمد إخراج محفظته المُنتفخة، ووضعها بجواريديها الناعمتين على المنضدة قائلاً:

- فيه حاجات مهمة، أهم من اللى بتبصى عليه ؟! عمومًا براحتك . نفثت سيجاراتها فى ضجر.

- عاوز أيه يا لمى خلصنى، أنا مافهمتش منك حاجة العصر، بطاقة أيه، ومُطرح أيه اللى أنت عاوز تاخده . ابتسم فى خُبثٍ قائلاً:

- آه بدأنا الاستهبال والدروشة ؟! علشان ما نضيعش وقت بعض، فيه راجل من مُدة، جالى المحل، وقال لى إن اسمه ..مممم صمت قليلاً وكأنه يُحاول تذكر الاسم... اسمه (هريدى مناع) . امتقع وجهها عندما سمعت الاسم، لكنها

لم تُعقب، بل كانت تطلق نظرات مُتحجرة تجاهه. أكمل (لمعى) حواره المُشوق قائلاً: جالى وكان بيسأل على (سبع الليل) أخوه، اللى هوزوج الست والدتك!!

- طيب وأنا مالى بالقصة دى ؟! نظر لها من خلف نظارته الساقطة فوق أنفه :

- أنا جيلك فى الكلام، الخُلاصة، (هربدى) قال لى : إنه دور على أخوه فى كُل حتة، وإنه عمل محضر فى قسم العطارين باختفائه، وإدانى صورة من رقم المحضر، علشان لو لقيته. قاطعهما الجرسون، فطلب شايًا وقطعتين جاتوه. استطرد، بينما هى تتابعه فى ضجر.

- كنت عاوز أحكى لك حكاية كده، فى ليلة من كام شهر، كانت الدنيا شتاء، رجعت من القهوة متأخرودخلت من باب العُمارة، حسيت بحركة فى بير السلم، أتارى كان فيه اثنين ولاد حرام مستخبين، واحد وواحدة غالبًا، علشان ريحة البارفان الحريمى اللى بتحطه، أنا عارفها وبنشمها على طول، كان عقلها يعمل فى هدوء كعادتها عندما تقع فى ورطة، قالت لنفسها

- آه يا بن الكلب .. شكلك يبان غبى جدًا !، لكنك بصراحة طلعت أذكى من توقعاتى!! بدأت تنصت إليه بشكل أكبر وهو يكمل قصته المُفزعة ويُجمع الأحداث كقطع البازل، وهى تمثل عليه الدهشة - وكأنها تُشاهد فيلمًا أمريكيًا.

- حاولت أقفشهم، لكن التور اللى معاها ضربنى على دماغى بحاجة تقيلة كانت معاه، وهربوا على مكنة حمرا قديمة...بس سريعة، الشتا كان جامد فمعرفتش ناخدوا رقم المكنة، لكن سبحان الله حصلت حاجة غريبة . كانت عيناها ترمش بقوة، وتوترت ملامحها، وهى تستمع للمعى :

- كنت متعور فى دماغى، فرحت استقبال مستشفى الأمل اللى جنبينا، كان الموضوع بسيط، غُرزتين فى الراس، لكنى لما رجعت على البيت، كان النور

شقشق، والأرض ظهرت، وأنا داخل البيت، قلت أشوف بير السلم، لقيت البطاقة دى - ولقيت اسم الواد التور عليها - وكمان لقيت دم كتير على الأرض

- برضه مش فاهمة أنت عاوز إيه بالظبط؟!. أخرج البطاقة من جيبه وقربها من نظر مشيرة .

- هى دى البطاقة اللى أنا لقيتها ! لقد كانت هى تلك البطاقة اللعينة التى سقطت من المعدول (حسين)، كما تحب أن تسميه !!

لمعى : أنا بقى راجل جدع ؛ لأنى كان ممُكن ناخدوا البطاقة، ونروحوا للحكومة، نحكولهم الموضوع، وهما بمعرفتهم، يحققوا، فين سبع الليل؟ وبالمرة أمك اللى ماحدش سمعلها صوت ولاحس؟! .كانت تريد أن تبصق فى وجهه، لكنها تعلمت الهدوء، ..إن هذا الحقير يبتزها، عادةً ما يحفر الأغبياء قبورهم بأيديهم، دون أن ينتبهوا لذلك. رسمت علامات التوتر والضعف على وجهها، لكن عقلها كان مُرتبًا وباردًا، وكأنه أحد جبال سيبيريا . تأملته مُبتسمة وهو يتناول الشاى والكيك، كحيوان جائع . ابتسمت مشيرة، تناولت علبة سجائرها، وسحبت منها سيجارة وأشعلتها بقداحتها الرخيصة .عبثت بخصلتها المُنسدلة على وجهها عدة مرات، وهى تنفذ دخان سيجارتها فى وجه لمعى بدلال غانية تتفاوض مع (زبون).

- كُل الكلام ده مش مظبوط ؟... لكن ليه الشوشرة يا (لمعى) ماحنا طول عمرنا حبايب .توقف عن الأكل، فهو لا يمكن أن يجمع ما بين رغبتين فى آن واحد فقال لها فى عتاب:

- أنا كان نفسى، لكنك تقلتى عليَّ . ابتسمت فى دلال:

- إحنا لسة فيها، ما تستعجلش، كُل شىء له وقت، ثم استطردت وهى تنظر لعينيه بقوة ... وليه كمان تمن ؟! كانت الرغبة قد حولت وجهه وصلعته إلى لون أحمر قانى مُثير للضحك، هم أن يُبادلها الغزل، لكنه سمع ضجيجًا يأتى من خارج المقهى، نظر من الزجاج ليُشاهد سايس الجراج، وهو يشتبك بالضرب مع

رجل، ثم تطور الأمر.عندما ضربه ضربة بعصا غليظة كانت بحوزته، فلتت من فوق رأسه، لتصيب سيارة لمى. نهض الأخير فى فزع وهو يقول:

- يا ولاد الكلب، دول بيتعاركوا وهايكسروا العربية، هاخرج أشوف أيه الحكاية، وارجعلك.

ابتسمت وهى تأخذ بطاقة حسين من أمامه على المنضدة، لتدسها فى حقيبتها وهى تهز ساقها فى دلال، نفثت دخان سيجارتها فى الهواء، وهى تتابع لمى من الزجاج وهو يحاول فض المشاجرة، ويتحدث مع السايس الذى كان يعتذر له، عاد بعد عدة دقائق إلى الطاولة وهو يلهث

- معلش، كانوا هايكسروا العربية، لكن ربنا ستر.. أجيبلك حاجة تانية تشربيها.

مشيرة :لأ أنا مُتشكرة جدًا ...

لمى :طيب هاشوفك تانى إمتى

- مشيرة: الإسبوع ده، حسين مسافر.. وأنا قلت له هاروح نبات عند خالتى، هابقى أسيبلك باب المطرح مفتوح .ابتسم فى فرح وهو يلتهم قطعة الجاتوه مع الشاى بنهم وهو يقول :

- الجاتوه ده يجنن لازم تدوقيه نظرت له فى نعومة قائلة :

- مشيرة:بالهنا والشفا يا حبيبى!

****

## - 24 -

شهر كامل، وهو يزداد شحوبًا، لم يعد الطعام يستقر فى جوفه أبدًا، صار ينسى مكان دكانه و سيارته، ينسى اسم زوجته وأحيانًا أبناءه، كُل الألوان المُبهجة قد اختفت فجأة، وتحولت الدنيا إلى تلفزيون ملون تعطلت فيه مسطرة الألوان، فصار يبُث لونًا واحدًا رتيبًا .. اللون الرمادى، ولا شىء غير ذلك !!، شعره الذى يتساقط بغزارة من رأسه وسائر جسده كشجرة عتيقة تتساقط أوراقها شيئًا فشيئًا ؟! هل هجم عليه خريف العمر فجأة، أم أن هناك شيئًا ما حدث؟! ذهب إلى جهابذة الطب فى الإسكندرية والقاهرة، محملاً بعشرات الفحوصات والتحاليل، التى لم يحصل منها على إجابة شافية! كلهم قدموا له إجابة واحدة واهنة .

- للأسف عندك إلتهاب شديد فى المعدة،نتيجة فيروس غامض ؟!

لم يقتنع بكلامهم؟! يعرف مكمن بلاءه، ووقت الإصابة به أيضًا، السر عند تلك الحية الرقطاء (مشيرة)، ساءت حالته منذ ذلك اليوم الذى تناول فيه قطع الجاتوه اللعينة فى نهم، يشعر بألم شديد يُمزق أحشاءه، قاد سيارته فى غضب، إلى معمل التحاليل الذى يعرف مكانه جيدًا، فلقد ذهب إلى هناك منذ شهر وهو بكامل صحته، لكنه لم يعد الآن كذلك، كانت الساعة قد قاربت على الثامنة، صعد على السلالم الحجرية الضخمة بصعوبة واقترب من الباب الزجاجى الأنيق، وجدها فى المعمل، تدون بعض الأشياء، آخر من يغادر

المعمل بعد رحيل الأطباء والفنين، هى و(سيدة )العاملة، لمحته يدخل من الباب، تظاهرت بانشغالها، لاحظت كل شىء فى لحظة خاطفة، هزاله الواضح، شحوبه، كرشه الذى اختفى، شعره الذى يتساقط، قالت لنفسها بتشف وهى تلمح الانكسار فى عينيه .

- إنه الآن فى المرحلة الثالثة والأخيرة، ألف رحمة ونور.

طرق على الزجاج الذى أمامها بعنف، لكنها كانت باردة كعادتها، فتحت له الباب، وهو يبدو كالثور الأعمى، نظرت له سيدة العاملة فى خوف، بعدما رأت الغضب باديًا على وجهه . لكن مشيرة طمأنتها قائلة:

- ماتخافيش يا سيدة المعلم (لمعى ) جارنا، جاى ياخد نتيجة التحاليل، ثم مصمصت شفتيها فى تشفٍ قائلة، أصله عيان ربنا يشفيه، أخرج لمعى سكينًا كبيرًا وهو يقول:

- وعرفتى منين أنى عيان يا بنت الكلب، أنتِ اللى موتينى ووضعتى السم فى الجاتوه ابتسمت مشيرة فى برود قائلة أمام سيدة التى فرت من رؤية لمعى وهو يشهر سكينه .

- أنت اتجننت يا لمعى، الكلام ده كان من شهر، هو فيه عاقل يا حبيبى ها يصدق أن اللى عمل فيك كده حتتين جاتوه؟!

حاول لمعى الانقضاض على مشيرة، لكنها لم تشعر بالخوف، وهو يُهاجمها شاهرًا سكينه الكبير، كانت حركته بطيئة، ويده المُرتعشة لاتقبض جيدًا على السكين، وهو يصوبه تجاه صدرها، فانحرفت هى جانبًا بسرعة وثبات، ودفعت يده إلى الخلف، فسقط منها السكين، واختل توازنه، فحاول أن يتشبث بالمنضدة الكبيرة، التى تحمل عددًا كبيرًا من زجاجيات المعامل، فسقط أرضًا وبجواره سقطت بعض الزجاجيات مُهشمة، لتحدث ضجيجًا متوسطًا، وقليلاً من الفوضى فى المكان كان يلهث فى ضعف وهو يجلس على ركبتيه صاغرًا أمامها،

بينما وقفت هى أمامه تمامًا فى جبروت مُروضة أسود، تُسيطر على أسدٍ غاضب. قالت له بصوت حازم :

- عاوز أيه يا غبى، أنا مُمكن أبلغ عنك دلوقتى، وأقول إنك اعتديت على المعمل، وأضيعك. لم يجد لمعى سوى حذائها الشمواة الأنيق أمامه، فسقط فوقه يُقبله قائلاً فى استعطاف :

- أبوس رجلك، أنا مش عاوز أموت، أنتِ حطيتى أيه فى الجاتوه؟ لو عندك علاج خلصينى من العذاب ده، وأنا هاعيش خدامك طول العمر، وهاكتبلك المطرح باسمك كمان! بس ماتسيبينيش كدة. ضحكت مُشير فى عصبية. وهى تدهس رقبته بحذاءها فى شراسة.

- أنت آخر واحد يتكلم عن الرحمة، ما رحمتنيش ليه وأنا طفلة عندها عشر سنين؟! كنت باستعطفك ترحمنى، لكنك كنت حيوان قذر!!.نظر لها لمعى فى ذعر، فاكملت وهى تزداد ضغطًا على رقبته بحذائها .

- افتكرت أنى صغيرة وهانسى، لكن أنا عمرى ما نسيت؟! فاكر أمى اللى كنت بتذلها وتجبرها تغسلك هدومك الوسخة، فى الفجر وفى عز البرد علشان ما دفعتش إيجار الأوضة!! .... الحُكم صدريا لمعى ..وما لكش عندى حاجة، اطلع برة بهدوء علشان أقفل المعمل.

خرج لمعى من المعمل باكيًا، قاد سيارته بحذر، شعر أن أمعاءه تكاد تخرج من فمه، وجد سيارته قريبة من مستشفى الراهبات، نزل بأقدامٍ مُرتعشة، وهو يصرخ :

- الحقونى، أنا بموت، أندفع فريق من الأطباء والتمريض، يتابعون حالته بعناية، أجروا له الفحوص اللازمة، واهتموا به، لم يجدوا شيئًا، سوى التهاب فى المعدة والأمعاء، من النوع المتوسط، ردوا عليه بنفس الإجابة المُتكررة التى سئمها.

- حالتك مش خطيرة.

كتبوا له عددًا من أدوية المعدة، التى حفظها عن ظهر قلب، خرج من المُستشفى يائسًا ومعدته تكاد تنفجر، دلف إلى المنزل فى يأس، وجلس على أول كرسى قابله فى الصالة. كانت عيونه غائمة، وهو ينظر لابنته ذات الثمانية أعوام التى كانت تلعب بدميتها البلاستيكية.عاد أعوامًا طويلة إلى الوراء، تذكر تلك الطفلة التى كانت تلهو بعروسة قماشية فقيرة، بجوار أمها (حميدة) الغسالة!! لايدرى أى شيطانٍ رجيم سيطر عليه، فى تلك الساعة المشؤمة، وزين له فعل ذلك؟! استدرجها مُستغلاً حبها للحلوى، كتم أنفاسها بشبق حيوانٍ جائع، وقضى على براءتها!! ."وما كان ربك نسيا"، صوت الآية الكريمة من المذياع القريب، جلد روحه، وأصابه بالقشعريرة، فدمعت عيناه، وابتسم فى استسلام. إنه وقت تنفيذ الحكم، لقد انتقم الله منه.. وأخذت الطفلة حقها. شعر (لمعى) برغبة عارمة فى القئ، فنهض مُسرعًا إلى الحمام، وجثى على ركبتيه أمام قاعدة (التواليت) البيضاء، وصرخ صرخةً رهيبة، وهو يتقيأ دمًا، وحش مُخيف يلتهم معدته وأمعائه، لم ينتبه لتلك المرأة السمينة، شعثاء الشعر، التى كانت تُراقبه فى هدوء، وكأنها تُشاهدُ فيلمًا رومانسيًا، نظر لها مُستغيثاً،وأنفاسه تتسارع،وحدقتاه تتسعان فى رُعب :

- إلحقينى يا( أزهار) .

نظرت له، وهى تمط شفتيها فى تشفٍ، قائلة:

- مالك يا خويا، سلامتك؟! خرج صوته بصعوبة :

- اتصلى بالدكتور بسرعة ..أنا بموت ....مُشيرة، مُشيرة سممتنى!

نظرت له وهى تبكى فى قهر:

- والله برافو عليها!! صعيدية بنت صعايدة بصحيح، عملت إللى ماقدرتش عليه، وخدت بتارها؟! نظر لها برعب، إنها تعلم كل شىء !!

- أوعى تكون فاكرنى مُغفلة؟! سنين وأنا مستحملة قذارتك مع الستات، حتى الأطفال ماسلموش منك!، ليه .. علشان أنا وحشة، بيعتنى أرض أبويا والمقلة، وضحكت عليَّ باسم الحُب، وللأسف صدقتك، علشان كنت عاوزة أصدقك، برضه علشان أنا وحشة؟!علشان تتكرم وتعيش معايا، وفى النهاية بتقولى مشيرة سممتنى، مش دى اللى حفيت وراها سنين، اشرب بقى !! حاول النهوض، لكنه لم يتمكن، فقال لها وهو يلهث :

- آه يا بنت الكلب، ياواطية ..كُلكُم أوساخ. غربت عيناه، وعاد يقئ دمًا غزيرًا، وهو ينتفض كحيوانٍ مذبوح، ثم سقط رأسه الغارقة فى الدماء، داخل قاعدة (التواليت) التى اكتست باللون الأحمر القانى، لون الدم.

كانت (أزهار) تتابعه بامتعاض حتى سكن جسده تمامًا، وعندما تأكدت من موته، بصقت عليه وهى تقول:

- مقرف حتى وأنت بتموت، فى ستين داهية، ثم أطلقت بعدها وابلاً من الصُراخ، حتى تجمع عليها الجيران.

*****

## - 25 -

عزاء المغفور له الحاج، (لمعى عبد العاطى) ...تاجر الحبوب

إعلان كبير، تم كتابته على مدخل سرادق العزاء الكبير، بينما جلس رجال مقهى بيومى، ومعهم عاصم، وابنه حسين، والحزن يُسيطر عليهم، بينما جلست مُشيرة بملامح جامدة داخل ركن السيدات بالسُرادق، تستمتع بقهوتها فى هدوء شديد، محاولة تجاهل نظرات (أزهار) زوجة لمعى التى كانت ترقبها مليًا، لم تصدق أنها كانت تلمح فى بعض الأحيان، ابتسامة خفية من أزهار! لابد أن هذا من تأثير الإضاءة الخافتة. ظل الجميع فى حالة صمت يستمعون للشيخ (عبد المنعم الشحات ) صييت الناحية، حتى أنهى ربعه الأخير، بكلمته المُباركة المُنغمة.

- الفاااتحة.

قرأ الجميع الفاتحة فى خشوع، ونهضت مشيرة تسلم على (أزهار) التى حضنتها بودٍ شديد، أدهش مشيرة، التى بادلتها بضع كلماتٍ طيبة، ثم انصرفت إلى المنزل، بينما وقف أشقاء لمعى كفرقة عسكرية يتلقون التعازى فى معسكر الرجال، ويختمونها بكلمات سابقة التجهيز، من نوعية، "شكر الله سعيكم ". أنهى الجميع واجب العزاء. وعادوا إلى مقهاهم .كانوا فى حالة صمت. فلمعى كان يتحرك كالقرد بينهم ولا يكف عن الحركة. وكعادتهم طرحوا السؤال التقليدى الأشهر، بعد كُل عزاء، والذى يضمن لهم إكمال باقى سهرتهم فى المقهى، فى جو من الإثارة والغموض . كيف مات الحاج لمعى ؟! بدأ الرجال يلعبون لعبة الخبراء

العالمين ببواطن الأمور، ونقل الأخبار المغلوطة على أنها حقائق لا ريب فيها، حصلوا عليها من مصادرهم الموثوقة. كانت الإجابة الأقرب عند بيومى الذى قال:

- أخوه متولى قال لى، إن قرحة المعدة زادت عليه، دخل الحمام ورجع دم، وبعدين السر الإلهى طلع، والدكتور قال : إن الوفاة نتيجة نزيف فى البطن !!

- مصمص الجميع شفاههم. بينما تنهد حسين فى هدوء، وأطلق بيومى جُملته التى يستخدمها بشكل يومى عندما يرى جنازة، أويحضر عزاء:

- دنياغدارة، مالهاش أمان ؟! ابتسم عاصم ابتسامة خفية، وهويودعهم .

- السلام عليكم علشان عندى مشوار.

تركهم فى سلام، اقترب من المبنى القصير، ذا الدور الواحد، والحديقة الكبيرة، الملاصق لمبنى المستشفى الضخم، وضع حقيبته، وارتدى ملابسه الرسمية، سلم له (عبودة التُمرجى) الوارد ومعه التقرير، كانت جثة واحدة ضئيلة الحجم جدًا ولا تكاد تظهر من ملاءتها، حتى تخيل أنها فارغة، وهو يقول له فى تقرير نشرة الثرثرة الليلية.

- أنت عارف دى مين يا عم عاصم . أحيانًا يكون عبودة مُسليًا فى تلك الليالى المُظلمة الكئيبة، وكثيرًا ما يأتى إليه خلسة يتعشى ويشرب معه الشاى فى الحديقة المُزهرة، ليس كل ما هنا كئيب فالله يرزق الناس بعض الملاحة فى أقصى درجات الشدة، حتى يتحملوا شظف العيش وقسوة الأيام . رد عليه عاصم، وبصره يشخص بعيدًا:

- عارفها يا عبودة .. ميتة بنت أموات، جت غريبة ورحلت غريبة .. فزع عبودة قائلاً:

- بسم الله الرحمن الرحيم، وعرفت منين إنها (غريبة) ..ابتسم عاصم:

- عادى يا عبودة ؟! ... لكن عبودة قال فى فزع

- لأ مش عادى؟!

- علشان الولية دى غريبة فعلاًومالهاش حد، وهاتدفن فى مدافن الصدقة، أحيانًا يندهش هو من نفسه!، أضاف (عبودة).

- دى ( س، س) الرقاصة المشهورة أيام الملك (فاروق)، دى كانت معاها الباشاوية، وكانت ضيفة على الملوك والرؤساء فى الدُنيا كلها، وكان عندها قصر عظيم فى (بولكلى)، وفى النهاية، رموها فى القسم المجانى، وماتت غريبة ياعينى، مالهاش حد. نظر لها (عاصم) فى إشفاق . بينما (عبودة) يسأله

- يبقى إزاى عرفت إنها غريبة .. بسم الله الرحمن الرحيم، كان جبينه يتفصد عرقًا، فقرر عاصم ألا تفوت الفرصة، دون أن يضحك قليلاً، لا يعرف كيف يحمل عبودة التُمرجى، كل هذا الكم الهائل من جينات الفزع والجبن داخل بصمته الوراثية، على الرغم من خبرته في المستشفى، وخبرته فى المستشفى التى تجاوزت الخمسة عشرة عامًا، فهو يتعامل مع الموت كل يوم تقريبًا، ومع ذلك يشعر أنه يزداد جبنًا! أحياناً يتسلى عليه فى صبيانية تبدو غريبة على من فى مثل ظروف حياته وعمله، فقال له وهو يدفع أسنانه للأمام ويقلب عينيه فى طفولة .

- أنت ما تعرفش إن أنى مربوح يا (عبودة) ... شهق عبودة عدة شهقات، اهتزمعها جسده النحيل، واتسعت حدقتاه وهويُجفف عرقه بمنديل أخضر، من قماش الدبلان قائلاً:

- بسم الله الرحمن الرحيم ... والمصحف الناس فى المستشفى، كلهم قالوا لى كده وقالوا إنك بتتكلم معاهم، لكنى ما صدقتهمش أنا ماشى . ضحك عاصم بصوت مرتفع، حتى أغرورقت عيناه، وهو يتابع عبودة الذى كان يهرول فى فزع نحو بوابة المُستشفى الأميرى الكبير.دفع عاصم جثة (س.س) المُتكومة فوق الترولى القديم. تردد فى أذنه كلمة بيومى التى سمعها عشرات المرات فى عزاء ( لمعى ) .

- دُنيا ... المتغطى بها عريان

إنهم يقولون كلامًا، مُجرد كلام! هو الوحيد الذى يرى ويشعربذلك المعنى كل يوم. أجسادٌ قوية، ووجوه نضرة، تركض فى الدنيا، ركض الوحوشِ فى البريّة، تبحث عن السعادة، والمال، والحُب، والإشباع، والرغبة، ثم تأتى إلى هُنا فجأة، وبدون سابق إنذار! يقابلونه وجهًا لوجه، لا ينسى أبدًا ذلك البطل الرياضى الهائل الجسد الذى مات من أجل صديقته الراقصة! احتاج ثلاثة رجال كى يعاونوه فى رفعه فوق المنضدة !! ورجل الأعمال الذى قتله صديقه فى صالة القمار، كانت النقود تسقط من جيوبه على أرض المشرحة، وهى ملوثة بالدماء، بينما رائحة الخمرتفوح من فمه. وها هى (س.س)، كم حطمت قلوبًا فى زمنها، وكم تهافت عليها الأمراء والملوك، ثم انتهى بها المطاف، مريضة بالقسم المجانى بالمستشفى الأميرى!!، ماتت غريبة، لم يجدوا ثمنًا لكفنها ولا مقبرةً لها، وكعادته هو سيتطوع ويتكفل بكل شىء، تسلمها، وسار بها فى طرقات المشرحة المظلمة، بدت كشجرةٍ عجفاء تداعت عليها عوامل الزمن. كان يسمعها تئن بوضوح لدرجة أنه تخيل أن الطبيب قد أخطأ ! لكن، إذن التسليم الذى أمامه مكتوب فيه كل شىء، ساعة الوفاة وتاريخها، تنهد فى حزن وهو يعلم أن وقت المُساعدة قد انتهى، لكنه يتكلم على أية حال.

- اثبتى عند السؤال، ربنا يقويكى ويساعدك، كانت تئن فقط، ورائحة عفنة تخرج من جسدها،على الرغم من أنها حديثة الوفاة. كان يتحدث معها، كما يتحدث معهم جميعًا. ويصمت قليلاً وكأنه يتلقى إشاراتٍ ما !

- أتمنى أن تكونى قد أعدتى له شيئًا عندما تقابلينه وجهًا لوجه!! .لم تكن تلك ليلة عادية، كاد يُغشى عليه، عندما انطفأت أضواء المشرحة، وأضاءت الحوائط وكأنها إحدي قاعات السينما الترسو، أو هكذا تخيل! هو لايدرى؟!، كانت تعرض كل الرقصات، وكل الجوائز، وكل المشاهد الساخنة، يُقسم أنه

رآها رأى العين. خرج مذعورًا إلى الحديقة وهو يرتجف باكيًا.نادى على عبودة، لكنه لم يرد، يبدوأنه نام بعد عناء يومٍ طويل، كان الفجر قد لاح، وأضواء المسجد الخضراء تشع نورًا في المنطقة، أنهى عمله وأغلق الثلاجة على الوارد الجديد، ارتدى جلبابه الأبيض النظيف، واقترب من المسجد.

****

## - 26 -

كُل المنطقة تتحدث عن ذلك الوحش الذى عقر عشرة أطفال فى مدارس مُختلفة. كانت سيارة وزارة الصحة تُحذر المواطنين من ذلك الوحش الذى ينشط ليلاً، ولم يحدد أحدٌ شكله. وكالعادة صار مادة خصبة للشائعات على المقاهى، وفى الأسواق.

- ده مش كلب، أنا شفته ده ديب لأن عينه حمرا. رد أحدهم قائلاً

- ده ضبع هربان من جنينة الحيوان

- لا ده مش ضبع ده كلب هجين على ذئب .

ثلاث أيام متواصلة، والكل يلزم داره بعد العشاء، حتى الرجال قد صاروا لا يجلسون على المقاهى، ولا يخرجون ليلاً، إلا للضرورورة القصوى خوفًا من أن يقابلهم ذلك الوحش المجهول فى أحد الطرقات. كان (عاصم) يستمع باهتمام من حسونة صبى المقهى عن (كريم) ابن جارته (صباح ) العاملة بمدرسة العروى الوثقى، حيث نهشه الوحش المُخيف فى قدمه، بينما هو عائد إلى المنزل مساء، بعد شراءه وجبة العشاء .

- ولولا ستر الله أن الولد جري بسرعة، كان زمانه فى خبر كان.

كان الليل قد أقبل والناس قد بدأوا يغادرون المقهى إلى منازلهم، صرخة مُدوية، أطلقها طفل تبعها صراخ عنيف من أُمه فى الحارة المُقابلة للمقهى. التف الجميع حول الصبى الذى أُصيب فى ظهره بأخاديد طولية وثقوب مُخيفة

بدت أنها عضات من أنياب حادة، تبعوا الطفل فى حزن، وهم يحملونه إلى سيارة الإسعاف.

فجر اليوم التالى.

حمل حقيبته على كتفه وانطلق عائدًا، من عمله بعد ليلة حافلة، قضاها مع الراقصة (س.س)، كان شريط حياتها الذى بثته جدران المشرحة، كفيلاً بإثارة رعب العالم بأسره، لم يغادر شيئًا!! آه لو رأوه، لما كان فى الدنيا كل هذا الضجيج؟!.الليل غادر الشارع، والهدؤ يُخيم على المنطقة استعدادًا ليوم عناء طويل.لا يقطع الصمت المُمل، سوى نباح كلاب الشوارع، أو طقطقات حوافر الدواب التى تجر العربات (الكارو)، مُتجهة إلى محطة القطار الشهيرة ب( محطة مصر)، انتظارًا للفاكهة والخُضر القادمة مع ( قطار الأرياف )، والتى يتم توزيعها باكرًا على أسواق الإسكندرية، رائحة المعسل الثقيلة المُنبعثة من المقهى العالية ذات السلالم، ورائحة السمن البلدى المُنبعثة من حلوانى العصافيرى، كُلها أشياء كانت تُضفى على رحلة (عاصم) الصباحية، سحرًا وغموضًا، فهو يشعر أنه يقطف ثمار اليوم، يرتشف النهار طازجًا، والهواء بكرًا، دائمًا ما تكون أول (قطفة ) وأول ثمرة، وأول مشاعر صادقة، أشياءٌ لا تُنسى !! سار من شارع إلى شارع، اقترب بمحاذاة الأرض الفضاء المُجاورة للمدرسة. شعر بثقل فى قدميه، وبشىء ما يزوم خلف ظهره. استدار فى ثبات، باحثاً عن مصدر الصوت، فاجأه زوج من العيون الحمراء تجرى بسرعة فى اتجاهه.وضع حقيبته على الأرض واعتدل، و فمه لا يكاد يتوقف عن التمتمة، فى انتظار الوحش المُنطلق بأقصى سرعة، حدد ملامحه سريعًا، كلب ضخم جدًّا، أصغر من الحمار قليلاً وله أنياب حادة، وقوائمه الأمامية أقصر من قوائمه الخلفية. همس فى رجاء وهو ينظر بسرعة إلى السماء، كان عقله مُرتبًا ويعمل فى كفاءة، فلقد تعلم من عمله الكثير، لم يعد يخشى شيئًا، قد يكون الوحش مُخيفًا، لكنه أبدًا لن يكون مُخيفًا، مثل الموت. نظر فى عينيه بقوة، حتى هدأت سرعته

تدريجيًا إلى أن صار فى مواجهته، شيئًا ما منعه من مهاجمته وقف يزوم وهو يفتح فمه بوحشية، بينما عاصم ينظر فى عينيه، ويتمتم حتى بدأ الوحش فى التراجع، وكأنه قد تعرض لتنويم. لكنه بعد ثوانٍ بدأ فى الدوران بقوة حول نفسه، عندما شعر بأشياء تطوف حوله وتنهش جسده، كان يلتف حول نفسه ويعض الهواء، والدماء تسيل منه، تثاقلت خطواته وهو يئن، إلى أن سقط على الأرض، وهو يصدر حشرجة مُزعجة. تركه عاصم حتى خارت قواه تمامًا وسكتت أنفاسه .تلفت يمينًا ويسارًا، وأخرج حبلاً غليظًا من حقيبته، ليربط به قوائمه الأمامية، حتى يواريه بعيدًا عن الأعين، لاحظ أحدهم يراقبه من بعيد، فترك الوحش، وفر سريعًا حتى لا يكشف أحدهم أمره !!واستيقظ سكان المنطقة ليشاهدوا كلبًا ضخمًا جدًا يشبه الحمار وهو مكبل الأقدام بحبال سميكة، التف الناس حوله فى فزع، وهم ينظرون له فى ذهول !! لكن بعد فترة، تساءل الناس عن ذلك البطل الخارق الذى انتصر على ذلك الحيوان الشرس وقهره، انطلق هو إلى منزله، خائر القوى، وهاهى الليلة المُرعبة، تأبى أن تنقضى، دون أن يظهر له فيها ..الوحش، لا يعرف من أين أتى بتلك القوة الغريبة، ولا بتلك الأشياء التى كانت تنهش الوحش وتسيل الدماء من جسده!! يبدو أن أصدقاءه قد أعانوه كثيرًا هذه الليلة. دلف إلى المنزل، سمع صوت موسيقى راقصة، تأتى من غرفة (حسين ) و(مُشيرة ) فهز رأسه فى أسى، إنهم لا يُراعون حُرمة لأى شىء . وجد (فيروز) تنهض من فراشها فى وهن، وهى تستند على الحائط القريب، وبمجرد أن رأته، قالت له فى راحة:

- ساعدنى يا عاصم، علشان أروح الحمام . تسندت عليه، وسارت ببطئ حتى وصلت للحمام، نظر لها بشفقة وهى تحاول جاهدة دخول الحمام، ما الذى حدث لها فى الأسبوعين الفائتين، فقدت نصف وزنها، وازدادت هُزالاً، وحار الأطباء فيها، تحاليل وفحوصات، شخصه معظمهم بأنه قرحة فى المعدة بسبب شربها المُستمر للقهوة !!، نظرت له وابتسمت قائلة: طول عمرى بشرب قهوة،

ولم يحدث شىء! شرد كثيرًا، خرجت فيروز من الحمام، فساعدها على العودة لفراشها، قائلاً فى إشفاق :

- ألف سلامة عليك يا أم فُضيل، عاوزينك تقومى، وتنورى مجلسك كل يوم الصبح .. لكن من غير قهوة !!، زى ما قال الحُكما. تستند بظهرها على السرير فى محاولة صعبة للجلوس، وهى تقول له بنفس مُتهدج :

- كلام الحُكما، لابيودى، ولابيجيب . نظر لها فى استنكار.

- إزاى بس ؟! لازم نسمع كلامهم، علشان النزيف ده يقف . نظرت له فى خوف

- أكتر من أسبوعين روحنا لعشرين واحد، ولا واحد بيجيب نتيجة !!

- الصبر.. يا أم فُضيل، لازم الصبر.

- أنا معدتى مش بتوجعنى، ودى مش قرحة .الموضوع أكبر من كدة!!

عاصم: يعنى نكدبهم ونصدقك ؟!

فيروز: أيوه أنا صاحبة العلة، وأنا قلتلهم إن بطنى فيها حاجة لعينة ؟! عاملة زى الحجر، كل يوم بتكبر، لغاية ما تخلص علىّ. هز عاصم رأسه فى عجز.

- لا إله إلا الله، عملولك آشعة وتحاليل أورام، والنتيجة إن عندك إلتهاب فى جدار المعدة. نظرت له فى يأس:

- حاسة إن نهايتى قربت ؟!

عاصم: بعد الشر عليكى، ما تقوليش الكلام ده يا شيخة، دول شوية مرض، ويروحوا لحالهم .

أغلق الباب خلفه حزينًا، وهو يدعو لها بالشفاء، حاول أن يستشف ما بها، لكنه عجز!!، فلا حيلة فى الموت، ولا شفاعة فى الرزق، ولا يملك لها سوى الدُعاء بشفاءٍ قريب.

وبينما الجميع فى المنطقة يشربون (الشربات)، من مقهى بيومى الذى وزعه عليهم بالمجان، والزغاريد تملأ الحى، احتفالاً بالقضاء على الوحش ورجوع الحياة إلى طبيعتها .كان عاصم نائمًا وعلى المنضدة طبق به قطعة كبيرة من الجبن، تتناقص تدريجياً، دون أن يأكل منها !!

****

## - 27 -

المُستشفى العام - عنبر المُخ والأعصاب

كيلو واحد من الموز، وآخر من البرتقال وضعهم (نصر اليهودى)، على الكومود الصاجى الصدئ، المجاور لسرير (يعقوب الصائغ)، قشر له برتقالة، حاول أن يحركه، لكنه وجد صعوبة بالغة. فلقد أصيب بالشلل فى الجانب الأيمن من جسده ! فاستعان بإحدى الممرضات، لتُعدِل جلسته على فراش المرض، قرب قطعة البرتقال من فمه، لكنه أشاح بوجهه إلى الناحية الأخرى، ووجهه مُبلل بالدموع .حاول نصر مواساته قائلا:

- مجد سيد ياعم (يعقوب )، مش كده ...، أغمض يعقوب عينيه فى ألم وهو يتمتم ببعض الكلمات، فقال له نصر مواسيًا، وهو يضع يده فوق يدى يعقوب.

- غاغمض يعقوب عينيه

بكرة تبقى كويس، وترجع لتجارتك ومالك . نظر يعقوب إلى النافذة الكبيرة المطلة على الإسكندرية القديمة والشمس تغرب رويدًا رويدًا من فوق مدافن الأرمن بصلبانها الطويلة البيضاء، والملجأ اليونانى، والبحر الهادئ، وحديقة الشلالات الجميلة، ابتسم فى حزن قائلاً:

- تجارتى ومالى ؟! عشت طول عمرى علشانهم، حبيتهم أكتر من أى شيء، رفضت إنى أتزوج، وأجيب زوجة وأطفال يشاركونى فيهم.أيده نصر قائلاً:

- يا عم، بلا عيال، بلا زوجة، بلا، هم؟!...كل اللى بيقولوه فى الدنيا ... هات، هات، عاوزين فلوس مدارس، وكتب، وأكل وشرب، وكسوة، دى حاجة تجيب الفقر والمرض. ابتسم يعقوب فى وهن.

- مش لو كان فيه زوجة، كانت سندتنى معاك، بدل الممرضة اللى شحتها بالعافية ! ولو كان فيه ابن كان وقف معايا، وشدنى فى مرضى، وخد عزايا لما أموت. زم نصر شفتيه فى عتابٍ قائلاً:

- هو أنا قصرت معاك، فى حاجة يا (عم يعقوب)، أنت زى أبويا تمام، أنا ركبت عربية الإسعاف مكان ابنك، وهاسندك لآخر لحظة فى عمرى.

يعقوب: أنا عارف يا نصر، لكن فى حاجات تانية يا بنى غير كدة ؟! أنت بتزورنى كل يوم وانا معطلك ؟!. مش عاوز أكون تقيل

نصر: أنا بزورك كل يوم، وبتابع المحل، وهافضل معاك لحد ما تخف.

يعقوب:أخف لمين ؟!

نصر: تخف للناس اللى أنت بتساعدهم، وبتفك زنقتهم، تخف لشغلك ومالك، تخف علشانى.

يعقوب:عارف إنى ربيتك على كده. لكن إحنا مش بنفك زنقتهم، الربا مش مساعدة، الربا بيزنقهم أكتر، بيخلص عليهم. صمت نصر للحظات، تذكر ذلك الحوار البائس الذى دار بينه وبين (عاصم) فى ذلك اليوم الذى تشاجرا فيه، لايدرى لماذا تذكر تلك الآية التى قالها:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)، لكنه ردد كلماته التى حفظها منه

نصر: إزاى ياعم يعقوب .المال هو كل شيء فى الدنيا!!هو السلطة والقوة والسند، من غيره نبقى ضعاف، ويتجرأ الرعاع علينا.طلب منه يعقوب كوب الماء الذى أمامه، قدمه نصر إليه، فقال له وهو يتطلع للشمس التى تغطس تدريجيًا فى البحر الهادئ، مُخلفة خلفها نصف برتقالة هائلة الحجم.

يعقوب: ده كلام أهل دنيا ! لكن المسافر له كلام آخر. نظر له نصر فى استفهام ! فاستطرد يعقوب

- علمتنى محنتى الأخيرة، درس مُهم، فى حاجات مش ممكن نشتريها بالفلوس، حاجات ما كناش بنشوفها لا أنا ولا أنت: الصحة، الأسرة، الحب، الأمان

نصر: كل دول، ممكن شراؤهم بالفلوس؟!

يعقوب: ممكن فعلاً، تأجر واحدة تقعد معاك كام يوم، أو تمر بعلاقة عابرة، لكنها مش هاتحبك، ومش هاتقلق عليك و تسهر على راحتك كزوجتك!!. وممكن تشترى أحسن أكل فى الدُنيا، وماتقدرش تدوق منه لقمة واحدة، بسبب علة فى معدتك ؟! المال مش كل شىء !.والدليل أنا!، دلوقتى بموت وحيد، غريب، زى الكلب الجربان فوق سرير قذر، فى مستشفى حكومى مافكرتش حتى أنى اتنقل مستشفى استثمارى نظيف، علشان أحافظ على الفلوس . شفت بقى إن إحنا اللى عبيد عنده، مش هو اللى بيخدمنا؟ رد نصر والدموع فى عينيه:

- كانت رغبتك يا عم (يعقوب)، لكن ممكن أنقلك إلى مستشفى خاص، من بكرة إن شاء الله .ابتسم يعقوب فى يأس .

- خلاص .. الوقت فات ؟! قاطعهما شخص مُربع، حاد القسمات، يشبه (شجيع السيما) فى أوبريت الليلة الكبيرة بشاربه الكث، وجسمه العريض، وكرشه المُتهدل، يرتدى جاكيت كاروهات ماتت صيحته من سبعينيات القرن الماضى، وكرافتة عتيقة لها نفس الطراز، اقترب من سرير يعقوب قائلاً .

- مساء الخير. آسف تأخرت قليلاً يا خواجة يعقوب، نظر يعقوب له فى جدية، دون أن يرد السلام، والتفت لنصر قائلاً وهو يشير للرجل المربع قائلاً

- ده الأستاذ (عادل شميس ) المحامى، سيعطيك بعض الأوراق، وقعها

حالًا .صمت نصر ويعقوب، بينما طغى صوت حفيف أوراق (المحامى)، وهو يخرجها من الحقيبة، ويقدمها لهما، كي يوقعانها .حتى انتهى الرجل من جميع الأوراق فقال:

- أنا أنهيت جميع الإجراءات، وإن شاء الله من باكر، سأنهى باقى التسجيل، فى الشهر العقارى . كان نصر مذهولاً، فقد تأكد له أن يعقوب يحتضر، إنه يعرفه جيدًا، لا يأمن أى إنسان على هذه الأرض، حتى ولو كان ولده الذى أنجبه، فمالذى حدث؟! كيف كتب لتوه توكيلًا عامًا له، بإدارة جميع أملاكه والتصرف بها.انتبه على يد يعقوب الباردة وهى تُربت علي يديه فى حنو قائلاً .

- نصف مليون جنيه كُل ما جمعته من الدُنيا!!، خُذ نصفها لك، وتاجرشريطة، ألا تُتاجِرفى الذهب مرة أخرى !. أما النصف الآخر، فتبرع به لملجأ الأيتام اليونانى، الذى تربيت فيه !! . شحب وجهه، وغامت عينيه وهويقول .

دنيا بنت كلب !!!المتغطى بها عريان، خد بالك من زوجتك وأولادك، هما دول الكنز الحقيقى!!. إلحق نفسك، وحافظ عليهم، بدل ما تموت وحيد زى كلب فى خرابة؟! ولن تأخذ معك أى شىء، خلاص .. روح يا نصر.. عاوز أن أنام .

قَبّل نصر جبينه فى تأثر، سارعبر الممرالطويل ببطء، كان شاردًا، يستعيد كل كلمة قالها له (يعقوب). انتبه على صوت أُنثوى غليظ، ينادى عليه

- يا أستاذ .. يا أستاذ ... إلحق قريبك.

هرول عائدًا إلى غرفة يعقوب، فوجده مُحاطًا بمجموعة من المعاطف البيضاء، وعلى وجوهم علامات الأسف، اقترب أكثرليتحقق منه، فوجدوهم قد وضعوا على وجهه ملاءة بيضاء، تلك العلامة الفارقة بين الحياة .. ونهايتها .

****

## - 28 -

جلس عاصم، أمام سرير (جابر العريف)، مساعده المريض، الذى كان نائمًا بلاحرك، بينما كانت زوجته (سماح)، تجلس بجواره فى انكسار. وعلى الأرض ثلاثة أطفال صغار، يفتحون أكياس الفاكهة التى أحضرها عاصم، ويأكلون منها فى نهم، اعتاد عاصم تلك الزيارة نصف الشهرية لأسرة جابر، تابع الأطفال فى ألم، ثم قال لزوجته وهو يشير إلى جابر النائم بلا حراك .

- عامل أيه دلوقتى . قالت بصوت واهن فى يأس :

- الحمدلله، بس مفيش تحسن، رد عليها

- الدكاترة قالوا أيه .

سماح :أنت عارف، بيقولوا إن عنده اكتئاب حاد!! وحالته صعب، ربنا موجود يا عم عاصم. أشار للأطفال قائلًا:

عاصم: طيب يا بنتى ناقصك أو ناقصهم حاجة، رفعت يديها الى السماء قائلة:

- ربنا يسترك، أنت مش بتسيبنا أبدًا، بس هو فى حد عارف العنوان غيرك؟

عاصم: ليه يا بنتى السؤال ده، ترددت سماح قليلاً ثم قالت:

- فيه حد بيبعت مظروف فلوس كل شهر، فيه مبلغ محترم . تهلل وجه عاصم فى فرح قائلاً:

- الحمد لله يا بنتى .

- بس كنت عاوزة أعرف، مين بيبعت الفلوس دى، قطب عاصم حاجبيه فى دهشة قائلاً:

- مش مهم، المهم إن ده رزق وربنا باعته ليكى وليهم، جابر كان جدع وابن حلال، ويستاهل كل خير، فماتسأليش يا بنتى .غادر المستشفى، وسار شاردًا فى الشارع، يشعر بذنبٍ تجاه جابر، فهو يتحمل جزءًا من الخطأ، كان يجب منعه من الاستمرار. لم يكن جابر مُهيئًا لذلك العمل، ولذلك هو يخشى على عبودة بالفعل! يدعو الله من قلبه أن يبعث له من يساعده، بحب لا أن يؤدى وظيفة، فالحب، والحب فقط، هو جواز المرور من تلك البوابة، بوابة المشرحة !! تذكر تلك الليلة المشئومة، التى راح ضحيتها مساعده (جابر العريف).

حريق مصنع الأسمدة .....ليلة الميت الحى

الدخان الكثيف يغطى سماء الإسكندرية، عشرات الجثث تصطف داخل الثلاجة وعلى الأرض، دوى سيارات الإسعاف، والمطافئ لم ينقطع لحظة واحدة، يوم رهيب لم ينم فيه أحد بالمستشفى الأميرى، لم يكن عبودة التومرجى قد تم نقله إلى هنا، كان فقط هو، ومساعده جابر، وثلاثة رجال متطوعين.كان عاصم مريضًا، ويأخذ الكثير من المسكنات، لم يكن مسموحًا لهم فى مثل تلك الكوارث بكلمة إجازة، عمل مع الدكتور سامح أكثر من اثنى عشرة ساعة متواصلة رغم مرضه الشديد، وتساقط رجاله واحدًا تلو الآخر.

فى المساء، امتلأت الأدراج بالعمال الشهداء الذين احترقوا وهم يؤدون واجبهم، اضطروا لصف البعض منهم فوق المنضدة الكبيرة الباردة، حتى يأتى الصباح . كان الليل حالكًا،والشوارع قد تحولت إلى سُرادق كبير، لا تسمع فيه سوى صوت القرآن الكريم، فى الشوارع والمقاهى، فهناك وجع فى كل شارع أو حارة. كان (جابر العريف)، مُنهك القوى، قليل الخبرة، يلتصق دومًا بعاصم.

ويحاول أن يتعلم منه شيئًا، كان يخاف أحياناً، مثل عبودة، ويبدو أنه اضطر لقبول تلك الوظيفة الصعبة، نصحه عاصم قائلاً

- يابنى لو مش قادر عليها، سيبها، كان يرد فى حزن

- نعملوا أيه يا عم عاصم، أكل العيش مر، وفى رقبتى كوم لحم !! جلس عاصم معه فى الحديقة، يشربان الشاى،كان الخدر قد تسلل إلى بدنه،بينما عينا (جابر العريف) مُعلقة على المبنى، كان متوترًا بشدة، بسبب تلك المشاهد البشعة التى رآها اليوم، لن يتذوق اللحم المشوى، ما بقى حياً!! .ضربت الحمى عاصم، وأخذ يهذى، سقط فى بئرٍ سحيقة، وهو نائم فى فراشه تحت شجرة الجميز، حاول (جابر) إعطاءه مشروبًا ينعشه، إلا أن عاصم لم يستجب، سمع صوتًا مكتومًا يأتى من داخل الثلاجة، حركة غيرطبيعية!! اصطكت أسنان جابر العريف، وهويسمع بعض الطرقات على زجاج المشرحة من الداخل، بحث عن الكشاف الذى يحمله عاصم، للحالات الطارئة، وجده داخل حقيبته، حمله بيدٍ مُرتعشة، وهو ينادى على عاصم بصوتٍ متهدج.

- إصحى يا عم عاصم، فيه حد بيخبط على القزازمن جوا، لم يتذكرعاصم سوى يد ابنه فضيل وهى تمتد إليه فأخذ يهذى

- فضيل ...فضيل

كان(جابر العريف)، فى موقف لا يحسد عليه، فالطرقات تزدادعلى النافذة من الداخل، اقترب بأقدام مرتعدة، نحو الزجاج القريب من النافذة، الأصابع واضحة على النوافذ، والأنين المكتوم يرتفع، اقترب جابر من النافذة، فصرخ ساقطًا أرضًا، عندما وجد وجهًا مُحترقًا، له عين واحدة بينما طُمست الأخرى تماماً بفعل النيران، وأسنانه بارزة، ي فتح فمه أمام النافذة .صرخ (جابر)فى هيستيريا، وهو يبحث عن مفتاح البوابة لهرب، حاول تسلق السور إلا أن ساقيه لم تتمكنا من حمله، فلقد كان خائر القوى، ازداد صراخه،

عندما حطمت الجثة المُحترقة الزجاج بآلة، حادة، وعبرت الزجاج، غير عابئة بالدماء التى سالت من جسدها العارى، بينما انكمش جابر العريف بجوار عاصم، منبطحًا أرضًا، وهو يهزه بيدٍ واهنة، وعاصم لا يقوى على النهوض من شدة الحُمى،؟ سقطت الجثة أرضًا ثم وقفت عارية تمامًا، كانت لرجل متوسط الطول، يتألم، ويصرخ مُتجهًا نحو جابر بخطوات سريعة وهو يصرخ

- النار فى كل حتة، النار. أصيب بعدها، جابر بنوبة عصبية، أخذ يضرب رأسه فى الحائط، بينما الجثة تحاول القفز من فوق السور، وهى تصرخ:

- ميتين كتير، ميتين كتير. نهض عاصم على ذلك المشهد البشع، بعدما تجمع عدد من المارة، وبعض مرضى المستشفى بسبب ذلك الصراخ المستمر القادم من المشرحة.

جريدة المساء

ويرجع سبب الحادث الذى حدث بالمشرحة أمس، إلى الضغط العصبى الذى وقع فيه أحد الاطباء، وتسبب ذلك فى تشخيص خاطئ لوفاة أحد العمال الذى استيقظ بعد عدة ساعات، بسبب برودة منضدة المشرحة، وتلامسها مع جسده المحترق، ليفيق فى حالة فزع رهيبة، بسبب الجثث التى شاهدها حوله، وتسبب الحادث، فى إصابة أحد عمال المشرحة، بصدمة عصبية حادة، بسبب ظنه أن الميت المحترق قد استيقظ ؟!،هذا وقد تم إجراء التحقيق مع العامل الآخر، وتبين أنه كان نائمًا،من شدة مرضه، ومن فرط العمل.

سار عاصم شاردًا عبر الطريق الطويل حتى وصل إلى المبنى القصير، دلف من البوابة الكبيرة للمشرحة، وعبر إلى الحديقة، كان يشعر بذنبٍ فظيع تجاه (جابر)، هو الذى تسبب فى إيذائه، بهذا الشكل المخيف، لقد كان مريضًا واهنًا، أنهكه التعب، ندت منه دمعة وهو ينظر إلى السماء

- يارب اغفرلى، مكتوب عليَّ، أتسبب فى أذى كل اللى بيحبونى، ويثقوا فىَّ.

سمع نداء عبودة، وهو يضع أمامه واردًا جديدًا على التروللى، قائلاً:

- يا عم عاصم، تعالى استلم، اقترب عاصم من البوابة، كان متجهمًا وهو يفتح لعبودة .تسلم منه الوارد، قرأ اسم المتوفى (يعقوب أرميا مزراحى)، إنه هو، جار آخر ينضم للقائمة، كان حزينًا جدًا ولا يضحك كعادته.سأله عبودة، وهو يحاول الدخول للحديقة

- مالك ياعم عاصم، منعه عاصم بيده قائلاً:

- إمشى ياعبودة، وماتجيش هنا تانى، وأنا هابلغ الدكتور سامح أنك اعتذرت، تغيروجه عبودة قائلاً

- ليه هو أنا عملت حاجة، رد عاصم فى غضب

- لأ بس ما تشتغلش حاجة مش على مزاجك، رد عليه نفس الرد القديم، الذى قاله (جابر):

- أنا مضطر علشان لقمة العيش، صرخ عاصم فى وجهه:

- تغور لقمة العيش يا أخى، لو هاتضرك، ربنا اللى بيرزق، مش عاوزك تحصّل (جابر العريف)، زى أنت ما بتقول، توتر عبودة بعدما سمع جملته الأخيرة، ورد عليه فى قائلاً فى عصبية:

- يبقى كلام الناس اللى بيقولوه، إن المشرحة هى اللى جننته صح؟! صمت عاصم فى حزن قائلاً

- المشرحة مش السبب. قطب عبودة حاجبيه وهو ينظر إلى عاصم فى فضول، فقال عاصم فى أسف

- الحقيقة، أنا السبب؟! اتسعت حدقتا عبودة رعُباً قائلاً فى غضب:

- أنا قلت كدة والله، أنت هاتكون سبب فى جنانى.هز عاصم رأسه فى حزن

- أنا يومها كنت عيان، وأخدت دوا خدرنى من غير ماعرف، وماعرفش أن ها يحصل كده، غضب عبودة وتركه، وهو يقول جملته المعتادة:

- الله يلعن دى شغلانة على يلعن اليوم اللى شفتك فيه .. ربنا يتوب علينا.

لم ينتبه عاصم لتلك العيون التى تتابعه من خلف القضبان الحديدية للمشرحة، وصاحبها يبتسم فى شماتة .

- هى دى التجارة اللى بتشتغل فيها يا عاصم، بتشتغل فى المشرحة. باغتت المفاجأة عاصم، آخر شخص تمنى أن يراه.

عاصم: نصر الهودى !!! أيه اللى جابك هنا.

نصر:أنت أيه اللى وصلك لهنا؟، مش معقولة من تاجر قماش ومنى فاتورة كبير، وتوصل لكده. كان ينظر له باشمئزاز، بينما عاصم يبتسم له فى سلام، وكأن العمر قد عاد به خمسة عشرة عامًا كاملة إلى الوراء.

****

## - 29 -

الإسكندرية عام ١٩٨٥

وكالة عاصم الغول وأبنائه

وقفت النسوة، بأعدادٍ كبيرة، داخل وخارج الوكالة، ومعهن بناتهن المُقبلات على الزواج، يُقلبن البضاعة، ويقمن بمحاولات فصال مُستميتة مع البائعين، بينما جلس رجل قوى البُنيان على مكتب كبيربداخل الوكالة، مُمتلئ الجسد يلبس جلبابًا حريريًا فاخرًا، وحوله أصناف البضاعة المُختلفة، ملابس للعرائس، وأقمشة من كل نوع حرير هندى، قطن مصرى نمرة واحد، دانتيل وساتان وصوف إنجليزى .كل الباعة مشغولين، بينما الرجل يُمسك سماعة الهاتف الأسود العتيق آمرًا أحد رجاله على الطرف الآخر:

- البضاعة تأخرت في المينا، ومش لازم تبات، عندنا طلبات للعملاء لازم نوفيها ... اتصرف يا (على)، نفث فى ضجر وهو يسمع تبريرًا قادمًا من الطرف الآخر، فقاطعه فى صلف .

- ماليش دعوة بالكلام ده ... أنا بدفع كويس علشان رجالتك تخلصنى الأول .. ومفيش كلام بعد كده .. اللوارى تكون عندى قبل الساعة تسعة مساء، وإلا المعاملة هتختلف بعد كده !!.. لم يمهله فرصة للحديث، بل أغلق الهاتف فى وجهه وهو فى قمة الضجر مُغمغمًا

- أعوذ بالله ..شوية حرامية؟! قاطعته سيدة نحيلة بجوارها فتاة يافعة، مُبتسمة للحياة.

- أرجوك يا معلم عاصم، إكرمنا فى القماش، رجالتك شادين حيلهم علينا، واحنا ناس غلابة . لكنه رد عليها فى غرور.

- والله يا حاجة، دى أسعارنا، وأنت عارفة، إن بضاعتنا أحسن بضاعة فى السوق، ردت فى عجز

- بس إنتوا كده بتدبحونا، ابتسم فى برود

- والله السوق مليان قدامك!! زفرت فى غضب وهى تشد ابنتها التى اختفت إشراقتها، واكتسى وجهها النضر، بملامح انكسار مُفاجئ قائلة:

- ياما الحرير الهندى ده، مالوش زى فى إسكندرية كُلها، معلش ياما !.نظرت له السيدة الصلبة فى تحد ناهرة ابنتها

- لأ، خلاص .. مش هانجيبوا من عندوا .. حسبى الله ونعم الوكيل !!.. الناس انسعرت !!. تغيروجهه فى غضب بينما سحبت السيدة فتاتها وهما يجران أذيال الخيبة.حاول عاصم أن يُغطى على نظرات التعاطف التى كست ملامح بائعى المحل قائلاً:

- عالم فقرية ..وأنتوا مالكوا ومال الحرير الهندى، أنتوا تلبسوا كستور أو ضمور أحسن ؟! ضحك الجميع على نُكتة سيدهم السخيفة، حفاظًا على لُقمة العيش . اقتربت الساعة من السادسة، ترك مكتبه الخاص، ودلف إلى غُرفة جانبية، عاد بعدها مُرتديًا حُلة إنجليزية فاخرة، و حذاء لميعًا، وفى يده عصا أبنوسية فاخرة، وكأنها صولجان.

- هات يا محروس الدفاتر وتعالى. جلس محروس بجواره، ليطلعه على الحسابات قبل انطلاقه إلى عالمه الخاص . لكنهما توقفا بمُجرد دخول شاب أسمر قوى، حليق الرأس طويل القامة، حلو القسمات، يرتدى ملابس

عسكرية، وعلى كتفه نجمة واحدة فقط. وقف (عاصم ) يُرحب به ويحتضنه، ترك رجال الوكالة ما في أيديهم للحظات للاحتفاء بالشاب . قائلين

- حمدالله على السلامة يا كابتن (فُضيل) .جذبه عاصم من يده وهو يحتضنه بحرارة قائلاً

- حمدالله على السلامة، يا (فُضيل )؟ أنت لسة واصل ؟ رد فُضيل بهدوء

- أنا فى إجازة عشرساعات يا حاج، عديت على الحاجة، واتغديت معاها، وقلت آجي أسلم عليك. اكفهروجه عاصم قائلاً: .

- يابنى أنت بقالك أكترمن شهرين غايب، وتيجى عشرساعات بس؟!

- أعمل أيه بس يا حاج ! ظروف شُغلى كده؟!

- ما قُلنالك، نكلمولك واسطة كبيرة، تنقلك حتة مستريحة جنبنا، وتنزل مُبيت (كُل يوم)

- أنت عارف رأي فى الموضوع ده.

- ما البلد كلها ماشية كده، وماجتش عليك ؟!

- أنت عارف، أنا ما بحبش الكلمة دى، زفرعاصم فى ضيق

- زهقتنى، أنت ماشى بدماغك وراكبها، صمت فُضيل فى هدوء بينما احتد عاصم قائلاً:

- أخدت إيه من اللى بتعمله ده!! مش كان وكالتك وبيتك أولى بيك، إحنا مش محتاجين والحمدلله

ابتسم فُضيل فى هدوء قائلاً

- كُلنا محتاجين يا حاج ؟؟! غنى وفقير محتاجين!! وبعدين دى طبيعة شغلى، أمر الله .

كان عاصم غير مُقتنع

-لأ مش كلنا محتاجين !!،وسيبك من الدروشة اللى أنت فيها دى، وبعدين يا بنى أنت على طول تاعبنا،لا عارفينلك (مُعسكر) نسألوا عليك فيه، ولا بتسافرتروح فين ؟!

فضيل: أنت عارف إحنا فى حالة طوارئ، وجيت أسلم عليك قبل ما أسافر علشان ممكن السفرية تطول. لم يُمهله عاصم قائلاً:

- خلاص أقعد اتغدى، نادى على محروس مساعده

- يا محروس، اقترب محروس مُسرعًا، وهويتأمل ذلك الشاب فارع الطول ذو البزة العسكرية ويحتضنه قائلاً

- حمد الله على السلامة يا بن عمى.

فضيل: الله يسلمك محروس، إزاى مرات عمى

محروس: والله بخير، قاطعهم عاصم فى ضجرمتحدثًا لمحروس

- خلاص يا محروس، علشان وقت الكابتن!!، ابعت هات كيلو مشكل بالسلطات،علشان نغديه، قاطعه فُضيل فى أدب :

- والله لسة الحاجة مغدياني، مانت عارفها مش هاتسيبنى وكانت عاوزة تديلى أكل لزمايلى كمان

عاصم: خلاص خليها عندى

- لأ مش ها ينفع علشان، عندى ميعاد طيارة

- أنت مسافرفى مُهمة؟!

- ابتسم فُضيل فى أدب ولم يُعلق، إن نطق أبا الهول .. هو سينطق!! نظر عاصم فى يأس، مُتفهمًا ظروفه، لكنه كان مُنزعجًا من حياته بشدة، فهو منذ إلتحاقه بذلك السلاح وهو لا يعرف عنه شيئًا، ولايراه تقريبًا سوى عدة مرات،

لاتتجاوز أصابع اليد الواحدة فى العام كله؟ هو حبيبه، و ابنه الأثير إلى قلبه، أما الصغير حسين، فمزعج وكثير المشاكل، ولا يُمكنه أن يتحمل مسئولية وكالة كبيرة كهذه .ضغط الجرس مرة أخرى فجاءه محروس أشار له فاقترب منه، فقال له هامسًا:

- خليهم خمسة كيلو بسرعة، علشان حضرات الضباط يتعشوا، لما يرجع الوحدة، وبسرعة جدًّا علشان يلحق يرجع . وافق فُضيل على مضد، بينما مدّ عاصم يده فى الدُرج وأخرج رُزمة كبيرة من النقود، مد بها يده إلى فُضيل .

- خُد الفلوس دى، ابتسم فُضيل فى هدوء وهو يُخرج مبلغًا، قائلاً

- والله معايا، فلوس ... وكتير كمان، اندهش عاصم، لم يكن المبلغ الذى معه يزيد على مائتى جنيه! ومع ذلك يُسميهم . كتييير!! يُنفق هو فى حانة سبيد فاير ضعف هذا المبلغ فى ليلة واحدة ! بينما يُنفق المحروس (حسين) أكثر من مائة جنيه فى اليوم الواحد! . قال له مُستنكرًا

- يابنى عيب ؟! بتقول على المائتى جنيه كتير، أنت ابن الحاج (عاصم الغول)، أكبر مستورد قُماش فى إسكندرية ؟! ابتسم فُضيل وهو ينظر شاردًا فى السماء قائلاً:

- من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك، ويمنعك ما يطغيك... ابن عطاء الله

ما الذى جرى لهذا الولد، هل صار درويشًا ؟!، من الذى علمه هذا الكلام. هو فى أوج فتوته وشبابه، فلم هذا الزهد ؟! كان مُعترضًا على أسلوب حياته الذى يتسم بالجدية الشديدة والتقشف، ويعلم أن فضيل غير راضٍ عن أسلوب حياتهم منذ أن كان طفلاً صغيرًا، وقد يكون ذلك أحد الأسباب التى جعلته ينخرط فى الحياة العسكرية! ربما ؟!

- يا بنى أيه لازمة الحياة، من غيرما تستمتع بها وأنت صغير؟ عيش حياتك.

قال له فى حزم

- كلٌ يُسر لما خُلق له وأنا اخترت طريقى، وادع لى ينهيه الله لى كما تمنيته.

حضر الطعام، فلم يتذوق منه شيئًا وإنما حمله داخل حقيبته الكبيرة، التى تُشبه المخلاة العسكرية .

عاصم: يا بنى فى حاجات أهم من أنك تموت صُغير، و(الشهادة) والكلام اللى أنت بتوجع بيه قلوبنا، من وأنت فى ثانوى . نظر فُضيل لأبيه فى عتاب قائلاً:

- وما فائدة الحياة إن عاش الإنسان فيها بلا قيمة، يتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام ؟! شعر عاصم بوخز كلماته الأخيرة، بالطبع هو يعنيه . كان صوت المذياع الدائر فى الوكالة يُذيع خبرًا هامًا

(هذا ولا تزال الجهود مبذولة، للتفاوض مع خاطفى الطائرة، للحفاظ على سلامة الركاب ).. انتفض (فُضيل) بعد سماعه الخبر مُباشرةً قائلاً:

- أنا لازم أمشى علشان تأخرت، تأمله عاصم بحب، بينما فضيل يكبح شيئًا تلألأ فى عينيه، تعلم فى العسكرية أنها من رابع المستحيلات. فلامجال هناك للدموع، حولها إلى ابتسامة كبيرة قائلاً لعاصم.

- أشوف وشك بخير؟! بكى عاصم وهو يحتضنه بقوةٍ قائلاً

- اوعدنى الإجازة الجاية، تكون طويلة، ونقضيها مع بعض، ابتسم فضيل

- إن شاء الله .. والمهم إنك تكون بخير... انطلق حاملاً جُعبته الكبيرة خلف ظهره، بينما عاصم يُراقبه حتى اختفى فى الشارع الكبير، بعدها شعر برغبة فى نسيان كل شىء، فانطلق إلى (سبيت فاير)

*****

## - 30 -

**حانة سبيت فاير – شارع البورصة القديمة بالمنشية**

**جلس شاردًا يُدخن سيجارته، يُحملق فى الجدران ويراقب صديقته (أماليا) الجريجية، صاحبة الحانة، وهى تعطى تعليماتها من أجل سهرة الليلة. فليلة الخميس ذات طابع خاص داخل (سبيت فاير)، إنه يعشق هذا المكان العريق، مُلتقى البحارة من كُل العالم، ومُلتقى فلول الأجانب، التى عشقت الإسكندرية حتى النخاع، وقرروا أن يكملوا ما تبقى من حياتهم على رمالها مهما كلفهم ذلك من ثمن، يونانيون، أتراك، يهود مصريين، و أرمن، الكل هُنا واحد، فالإسكندرية قد صارت تجرى فى دماءهم، مجرى الدمِ فى العروق، ولن يتوقف حبها إلا بتوقف عجلة الحياة عن الدوران.**

**المكان أنيق وإن بدا صغيرًا، مرقص متوسط الحجم، صُفّطْ حوله المناضد بطريقة دائرية بارعة. ذكرته جُدران الحانة بابنه فُضيل، فهو يُشبه هؤلاء البحارة المجانين، الذين لا يستقرون أبدًا، تأمل الجدران فى حزن، فجدران سيبت فاير ليست كأية جُدران، فلقد حولها البحارة حائطًا لذكرياتهم، وعلقوا عليها كل شيء يُذَكِرِ المكان بهم. منهم من ترك شارته العسكرية، أوصورة حبيبته التى فقدها، ومعها كلمة صغيرة على الحائط، تقول إنه مر من هُنا، ومنهم من علق علم دولته، أوعلم فريق الكُرة الذى يُشجعهُ، بعضهم ترك منديلاً به كلمة وداع من حبيبته، والبعض الآخر ترك زجاجة فارغة بها رسالة وجدها فى البحر، لم تصل إلى بغيتها ولن تصل أبدًا!، نماذج صغيرة للسُفن التى يعملون عليها،**

علب التبغ الفارغة والغليونات. كان يتأمل كل تلك التفاصيل، وهو يستمع إلى الموسيقى اليونانية الحالمة .انتبه لتلك اليد الناعمة التى تُتداعب ذقنه، (أماليا) اليونانية الغجرية المجنونة بحب الإسكندرية، ورثت المكان من أجدادها، آخر ما تبقى من سلالة اليونانين بالإسكندرية، امرأة أربعينية فاتنة، تتكلم كأهل الإسكندرية، عشقها وتزوجها سرًا.لا أحد عرف به سوى مساعده (محروس)، جلست أمامه فى دلال قائلة بلغة عربية (مكسرة)

- مالك ياعاصم، شكلك حزين الليلة

عاصم: آه، الولد ابنى الكبير، أنا قلق عليه جدًا، عارف إنى مش بهتم بحد من فترة، ولكن الولد ده مُختلف .

أماليا: هو دلوقتى راجل عسكرى، مش لازم تقلق عليه .

عاصم: السبب ده، هو مصدر خوفى عليه، زارنى النهاردة، كان هادئ وغامض، حسيت فيه بحكمة وخبرة تفوق سنين عمره القليلة، تنهدت أماليا فى حكمة قائلة:

- الحروب يا عزيزى، تجعل الوليد يشيب قبل أوانه، فلا تندهش. هزّ عاصم رأسه فى أسى تأكيدًا على كلامها قائلاً وهويتناول كأسًا قدمته له .

- عارف ده كويس، لكنه كان بيعاتبنى المرة دى بحُب!! شعرت أن الأدوار تبدلت، وأنه لعب دور أبى الذى كان يوبخنى، سقطت دمعة من عينيه وهو يقول:

- أكثر ما كان يؤلمنى، أنه كان يوبخنى بأدب، أنا ظلمته كتيرأنا أب سئ، وضع راسه فوق المنضدة وكأنه يُخبئ وجهه من شىء ما، وانخرط فى البكاء، وبينما هى تحاول أن تُخفف عنه بمداعبة شعره، كان (ينى) عازف (البوزوكى)[10]. قد بدأ

---

10) (البوزوكى) هي آلة موسيقية يونانية شهيرة، وهى من الوتريات، تشبه العود قليلًا، إلا أنها تختلف عنه، فى طول عنقها، وصغر بطنها، وهى تبدو أرشق من العود فى الشكل . وكانت تسمى عند العرب قديمًا باسم ''الطنبور'' .

فى العزف، واصطف حوله رواد الحانة صفين متقابلين، عزف موسيقى (زوربا) الساحرة، فانتابت رواد الحانة حُمى الرقص المجنون على أنغامها، فجذبته من يده قائلة

- هون عليك يا عزيزى .. انس همومك وتعالى نرقص . جذبته دون تردد إلى المرقص، دخل مترددًا، لكن سرعان ما نسى كل شىء بفعل أماليا، وكئوس الخمر. استمروا يرقصون قرابة النصف ساعة حتى توقف( ينى) عن العزف، وعاد الجميع إلى طاولاتهم، بينما عاد هو ثملاً، لا يقوى على شىء . كان المذياع من المقهى القريب يذيع خبرًا عاجلاً .

- هذا وقد نجحت القوات الخاصة المصرية، من تحرير الطائرة المختطفة فى مطار(لوكا) الدولى بمالطا من أيدى الخاطفين، التابعين لجماعة (أبو نضال) الفلسطينية، وقد أسفر الحادث عن وقوع عدد من القتلى والجرحى، وإصابة الطائرة،وهى من طراز بوينج ٧٣٧

*****

## - 31 -

**صباح اليوم التالى، يوم الجمعة...الساعة التاسعة صباحًا**

اقترب شخصٌ سمين من شاطئ (الشاطبى )، عبر الكورنيش، وسار فى اتجاه الكبائن حتى ظهرله منزل خشبى جميل، لفحه هواء البحر الطيب فى ذلك الوقت الهادئ من اليوم فوقف قليلاً، يستنشقه ويراقب مراكب الصيد الصغيرة وهى تبحث عن رزقها، والسفن العملاقة التى تلوح فى الأُفق البعيد، أشعل سيجارة وجلس فوق صخرة قريبة يفكر:

- ماذا سأقول له !! إن روحه فى هذا الولد، لكن يجب أن أخبره، ولا أحد يعرف مكان تلك العشة غيرى. استجمع شجاعته واقترب من الباب الخشبى وطرقه بقوة، كان الوقت لايزال مبكرًا، ولذلك فقد انتظر لفترة، وعاود الطرق مرة أخرى. خرج (عاصم الغول) وهو لا يكاد يفتح عينيه، لكنه انتبه لرؤية مساعده (محروس)، فهولا يأتى هنا إلا إذا حدث مكروه! استداربسرعة، وتطلع إلى أماليا التى لازالت نائمة فوق سريرها، ثُم خرج صامتًا، وساربجوار محروس على شاطئ البحر.أشعل سيجارة فى توتر، وكأنه يُريد أن يؤجل الكلام .فأحيانًا تبدأ المتاعب، بعد كلمة صغيرة، وبالفعل قالها:

- خيريا محروس .. أيه اللى جايبك الساعة دى؟!

- والله ما أنا عارف أقولك أيه .. لكن (عاصم ) قاطعه قائلاً والدموع فى عينيه

- فضيل !!! مش كدة . استبدت الدهشة بمحروس، لكنه هز رأسه فى إيجاب قائلاً

- وعرفت إزاى!! . جلس على الصخرة وهو ينظر للبحر، وجسده ينتفض قائلاً

- طول الليل كان بيزورنى مُبتسمًا، زى عادته، رد عليه محروس باكيًا:

- الله يرحمه ... مات شهيد . مزقت الكلمة قلب (عاصم)، فجلس على الشاطئ يبكى، بينما أماليا، التى استيقظت على الحركة الخافتة، كانت تتابع حركاته، من خلال النافذة الدائرية للمنزل الخشبى، شعرت أن هناك مصيبة، فظلت تراقبه من خلف ستار النافذة، بينما هو يقول لمحروس، وصوته مختنق بالدموع .

- مات فى المهمة اللى كان رايحها بالطيارة؟

محروس: راحوا عند الطيارة المخطوفة، اللى كنا بنسمعوا أخبارها من يومين فى الراديو، فى بلد اسمها مالطة[١١]

- سبحان الله ! هو كان عاوز كده .. عارف يا محروس، الولد ده طول عمره ابن موت، ومش عادى، عمره ما كان بيلعب، زى الولاد الصغيرين، كنت دايمًا تلاقيه ماسك كتاب، أو بيلعب رياضة فى المركز القريب، عمره ما أرهقنى بطلبات ولا زعل أمه ... كان ماشى فى الدنيا خفيف . تذكر مشهد المائتى جنيه،

والتى كان يعتبرهم ثروة، وهو الذى أنفق فى سهرة أمس فقط قرابة أربعمائة. بكى بحرقة فحاول محروس التخفيف عنه

---

11) في 23 نوفمبر1985 أقلعت طائرة مصر للطيران الرحلة 648 في اتجاهها من مطار أثينا إلى مطار القاهرة الدولي، وبعد 10 دقائق من الاقلاع قام ثلاثة أشخاص تابعين لمنظمة أبو نضال باختطاف الطائرة وكانوا مسلحين بأسلحة ثقيلة، وأجبروا قائد الطائرة على الهبوط بها في مطار لوكا الدولي بمالطا، وبعد فشل المفاوضات مع المختطفين، قامت قوة عسكرية مصرية خاصة بعملية اقتحام للطائرة، وقامت بالاشتباك مع الخاطفين ونتج عن ذلك مقتل 56 شخص ممن كانوا داخل الطائرة.

- فضيل بطل يا عمى، والبلد كلها بتتكلم عنه.

عاصم: هو فين دلوقتى..وهايجبوه إمتى؟!

محروس: بكرة إن شاء الله، علشان ها يتعمله جنازة عسكرية هو وزملاؤه الشهداء.

- عاوز أشوفه بأى تمن، كلم الناس بتوعنا، وشوف ممكن يعملوا لى أيه ورد عليَّ.

محروس: حاضر

عاصم: خلاص رَوح، وأنا جاى حالاً. عاد ولملم أشياءه على عجل، نظر فى عين أماليا طويلاً دون أن يتكلم، ثم رحل. لم يكن يومه التالى سهلاً، خاصة عندما قابله وجهًا لوجه، كان واقفًا على غسله .لأول مرة يرى ميتًا، كان يخشى الموت بطريقة رهيبة، وكان يترك لشقيقه (عوض) رحمه الله تلك المهام الثقيلة، أما هو فقد كان مُحبًا للحياة، لدرجة أنه لم يتذكر الموت قبل ذلك. كان يبكى فى انهيار، بينما الشيخ (هريدى ) يضع فى يده قفازًا خشنًا، وفضيل مسجى ونصفه العلوى عارى بينما، غطى الباقى بملاءة بيضاء. كان هريدى يتمتم ويغسل الجسد وكأنه يعتنى بطفل. لم يتوقف لحظة عن القراءة والتمتمة، وكأنه لعبة أطفال تعمل بالبطارية الجافة .

ظل يعمل حتى جهزه، كان شيخًا كبيرًا تجاوز السبعين، لكنه كان قويًا، فى عينيه لمعة غريبة، وعلى وجهه صفاء عجيب. أزعجته نهنهات عاصم التى لم تتوقف لحظة. فتوقف عن العمل وأدار وجهه لعاصم لأول مرة واقترب، كان قصير القامة ويسير ببطء، وكأن فى قدمه إصابة، اقترب منه بشدة ونظر فى عينيه..لاحظ يومها أن الشيخ هريدى، أخضر العينين . قال له جملة واحدة

- أنت بتعيط ليه !!كاد عاصم للوهلة الأولى أن يضربه غضبًا ولسان حاله

يقول، وهل خُلق البُكاء إلا لهذا الموقف أيها الشيخ الخرف؟! كانت الجُملة تدور فى رأسه لكنه لم يقلها. بل ظل صامتًا، وهوينظر فى غضب إلى هربدى، الذى جذبه من يديه مُبتسمًا وهو يقول:

- عاوزك تشوف حاجة ! تجمد عاصم فى مكانه، وكأنه قد صار قطعة من خشب، لا يقوى على السير ولا يريد أن ينظر بينما هربدى يسحبه فى قوة شاب فى العشرين.

- تعالى بس، هاوريك حاجة، هاتنسيك الحزن كله، أوقفه أمام وجه فضيل .. ظل مغمض العينين لثوان ثم فتحها، وهربدى يقول له فى فرح:

- بص كده !!!

لأول وهلة لم يلحظ شيئًا . كانت دقات قلبه تتسارع حتى أنه ظن أنه سيموت، ثم بعد ذلك، رأى الشمس وكأنها تخرج من وجهه، حتى أن النورآذى عينيه، فخبأهما بكفيه، ثم بعد ذلك اعتادعليه، شعر بالفرحة تدخل قلبه، لاحظ ابتسامته، أقسم أنها كانت تتسع أحيانًا، وكأن فمه يتحرك. يالله، أهذا حقيقى؟ أم أنه يحلم؟ لم يشعر بلذة ولا سعادة أكثر من ذلك، قبّله على جبينه فى هدوء، ثُم وقف ينظر له وكأنه منومٌ مغناطيسيًا، إلا أن الشيخ هربدى غطى وجهه بسرعة وجذبه إلى الخلف قائلاً فى حسم.

- خلاص كده ! قال له عاصم بتلقائية:

- طيب ثانية واحدة كمان!! لكن الشيخ هربدى قال، وهو ينظر له بعينيه الخضراوين نظرة مُخيفة حازمة:

- لأ. خلاص؟! .. ده سر من أسرار الله، أنا عملت كده علشان هو طلب كده! اندهش عاصم قليلاً.

- تقصد أيه؟!، نهره الشيخ هربدى فى عصبية

- ماقصدش حاجة !!!، أنا عملت كده علشان أبشرك، وإياك تفتح بقك باللى أنت شفته دلوقتى وإلا حياتك كلها هاتتلخبط. صمت عاصم فى دهشة، لكنه توقف عن البكاء، بل الأغرب أنه قد صار مسرورًا! خرج من ذلك المشهد الرهيب، وقد شعر أنه قد دخل أحد أفران صهر الحديد، وتم إعادة تشكيله من جديد، كما تُشكل قطعة المعدن بعد صهرها فى النار. مرت طقوس الجنازة بعد ذلك، ولم يشعر بشىء، زحام رهيب، من السادة المسئولين، بوجوههم الجامدة، وملابسهم الرسمية، ومناصبهم التى أقسموا أن يحافظوا عليها مهما كلفهم الأمر!. الصناديق الحزينة لُفت بعلم البلاد، النياشين، والكاميرات، فليذهب كل ذلك إلى الجحيم، فالنور الذى رآه قد غطى على كل شىء. فى سرادق العزاء وقف صامتًا، اقترب منه رجل أربعينى قوى يرتدى ملابس عسكرية.سلم عليه ثم قال له

- مقدم ( حسام السيد )، أنا قائد الشهيد (فضيل )، وعاوز أكلم حضرتك لوحدنا . قاده الرجل حيث غرفة مغلقة قائلاً:

- تفضل. جلس الرجل بجوار(عاصم) ووضع يده على ركبته قائلاً:

- طول مدة خدمتى بالصاعقة، مرعلىّ كتيرمن الرجال الأشداء. لكننى أشهد بأننى ماخدمتش مع حد زى ابنك فضيل.هزّ الشاب العسكرى رأسه مُتأثرًا ومتخليًا عن اعتباراته العسكريه، ليلمح عاصم دموعًا فى عينيه، وهو يسترسل:

- كان بيصلى بينا كل فجر ويذكرنا بالخير، وكان زاهد فى الدنيا، وعمره ماطلب حاجة لنفسه أبدًا، وهو اللى طلب أن يكون أول من يسقط فوق الطائرة المخطوفة، ليبدأ عملية تحرير الرهائن، ورجانى أن أسمح له بالهجوم على الانتحاريين . بعد انتهاء العملية، لقوه فى المؤخرة، وهو بيحمى بجسمه سيدات وأطفال! وعندما تسلمت جثمانه، ما شفتش أجمل من وجهه على الإطلاق.

كان (عاصم) يستمع وهو لا يقوى على النظر من كثرة البكاء، لكنه كان مُصدقًا لكل كلمة قالها، فلقد رأى ذلك بعينيه، كان حزينًا وسعيدًا ولا يعرف كيف! أخرج الشاب من جيبه مُصحفًا صغيرًا تلوثت مقدمته بالدماء، وتحته ورقة بيضاء مطوية، ومسبحة، وقرص نحاسى محفور عليه اسم ملازم أول (فضيل عاصم الغول)، قدمها له قائلاً

- أوصانى الشهيد (فضيل) بتوصيل الرسالة، وباقى الحاجة لك..

****

## - 32 -

بسم الله الرحمن الرحيم ( وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[12]

صدق الله العظيم.

والدى الحبيب، سامحنى على ارتعاشة خطى، فأنا أكتب إليك من طائرة عسكرية تتأرجح مثل الكُرة، ستصلك رسالتى فى حالة واحدة فقط، يوم استشهادى ! اعلم أنها ستكون لحظات ثقيلة على نفسك، ولكنه سيكون أسعد يوم فى حياتى، أجل فى حياتى، فالشهداء أحياءٌ عند ربهم يُرزقون، سامحنى فقد كُنت ابنًا مُزعجًا، لا يُطيعك كثيرًا، لكننى كنت أسمع صوتًا يأتي من قلبى، صوتٌ أقوى من كل أصوات البشر! ولذلك لم أرضخ لكم كثيرًا. كل ما أرجوه منك أن تُسامحنى، وتطلب لى الرحمة، وكل ما أرجوه منك أن تُعيد حساباتك فى تلك الحياة التى لا تساوى شيئًا، فالله قد أعطاك الكثير من كل شىء ولكنك، لم تقدم له شيئًا حتى الآن، فأرجوك راجع حساباتك قبل فوات الأوان !! .

أستودعك الله رب العالمين.

ابنك الشهيد باذن الله

فُضيل عاصم.

أكثر من مائة يوم قضاها لا يشعر بشىء إلا بوخزات الإبر و الأدوية التى يكتبها (الأطباء)، آشعة وتحليل، وزوجته المكلومة تحاول أن تعرف ما ألم به،

12) سورة لقمان، آية:34.

ولم تجد إجابة شافية من الأطباء زوجك مصاب بمرض عضال وهو الآن فى مرحلة متأخرة، فتندهش السيدة وهى تنكر ذلك

- كيف يا دكتور، لقد كان فى صحة طيبة ويعيش جيدًا، ولم تتدهور حالته إلا بوفاة ابننا فضيل

- لا، عنده المرض منذ مدة ولكن مقاومته للحياة ضعفت فأظهرت المرض، أظهر لها مجموعة من التقارير البغيضة التى تؤكد كلامه، والتى لم تفهم منها شيئًا، وأنهاها بكلمة قاسية معلبة:

- التحاليل لا تكذب ويجب أن يستمر على العلاج، هو غالى شوية لكن لا بد منه، تعود به شبه جثة من عند الطبيب بمعاونة مساعده ( محروس ). تنظر لمحروس قائلة:

- اترك لى الأيراد يا محروس، الآشعة والأدوية مكلفة، تظهر علامات الأسى على وجهه قائلاً

- للأسف يا حاجة، المحل بيخسر كتير، بعد غياب (المعلم)، وده هو كل الإيراد، ينفحها جنيهات قليلة، فتهز رأسها فى يأس قائلة.

- معلش – ربنا يفرجها .

****

## - 33 -

راجع حساباتك قبل فوات الأوان، ما هى أولويات الحياة، السلطة،المال، النساء،أم السعادة، لقد ملك المال، والبنين فهل كان سعيدًا ؟! هو الآن يرقد فى هوة سحيقة، وجسده مُثخنٌ بالحمى،والوهن، الضباب كثيف على عينيه وكأنه على أحد الطرق الزراعية فى الصباح الباكر. بعد موت فضيل المُفاجئ، فقد الرغبة فى كل شئ،وهو الذى كان ينهل من الدنيا بملء كفيه، إنه الآن يريد أن يُغادر، سيترك كل شيء وراء ظهره، التجارة والعقارات، سيترك أسرته، وأماليا التى يحبها، سيترك سبيت فاير، وسهراته الصاخبة، حمل حقيبة خفيفة، وسار فى طريق، مُقفر ليس به شيء، الصحراء تحيطه من كل الجوانب، والحرارة تشتد، كلما توغل فيه أكثر، لازرع ولا ثمر، فقط بعض النباتات الصحراوية الجافة، التى لا تُسمن ولا تُغنى من جوع، قال لنفسه:

- سأرحل مهما كلفنى الأمر، استمر فى السير حتى جف حلقه وخارت قواه، ولم يجد قوتًا ولا ماء، ظهرت له وحوش مُخيفة، نصفها السفلى له أقدام كالإنسان، ونصفها العُلوى يقترب شبهًا من الضباع، والكلاب البرية، والفهود، بينما الغربان تنعق فوق رأسه، إنه بلا شك هالك لا محالة، حاول أن يدفع الأذى بيديه، لكن الوحوش اقتربت منه أكثر وحاولت نهشه. استسلم لمصيره، إلا أن يدًا قوية امتد لتخنق أول وحش وتصرعه، وبسلاحها قتلت الآخر، ففرت بقية الوحوش تعوى فى خوف. نام ( عاصم ) على الأرض الساخنة فى وهن، شاهد ببصره المُشوش، ذلك الوجه القوى الذى يبتسم له فى حنو بالغ، يبدو جُنديًا

نظاميًا يرتدى ملابس(كاكية ) اللون، مد يده وأخرج من حوله وسطه (زمزمية ) ماء كبيرة، فتحها وصب القليل من الماء فى فم الرجل، لم يذق فى حياته أروع من طعم ذلك الماء البارد، ماء رائق، له مذاق العسل. شعر(عاصم) بالعافية تسرى فى بدنه، فأنهضه الشاب القوى وحمله إلى ظل شجرة قريبة. تساءل فى نفسه، من أين أتت تلك الشجرة؟! لقد مسح المكان كله بعينيه فلم يجد، فتح عينيه بقوة، لكن الضباب حجب عنه وجه الشاب، وإن كان يرى بعد التفاصيل العامة كملابسه العسكرية، وزمزمية الماء الكبيرة. قال له الشاب :

- أنت بخير؟. هز عاصم رأسه، فقال له الشاب

- إزاى جيت هنا . رد عاصم فى حيرة:

- مش عارف؟ . قال له الشاب مبتسمًا

- الرحلة طويلة وزادك قليل، ولا يمكنك اجتيازوادى الهلاك إلا بزاد يكفيك

عاصم: ومن أين لى بالزاد، ابتسم الشاب فى حكمة قائلًا

الشاب :عُد وتزود، فإن الطريق طويل.

عاصم: أنا عارف صوتك، لكن الضباب يمنعنى من الرؤية .

الشاب: عد إلى صوابك حتى ينقشع الضباب، وحينها ستراني بوضوح

عاصم: أنا عرفتك، أنت الشهيد فُضيل، ابنى !غلبه البُكاء فوضع رأسه بين كفيه، ثم رفعها مرة أخرى قائلا

- أنا صرت إنسان تانى يا بنى، أعدك بذلك، وهنا انقشع الضباب، ليراه، كان كالبدر فى تمامه، مُبتسمًا وسعيدًا. احتضنه كثيرًا كثيرًا، لايريد أن يتركه، لكن الآخر قال له :

- أنا الآن سأرحل.

- خدنى معك يا بنى، مش ها قدرأعيش الحياة الصعبة دى من غيرك.

دمعت عينا (فضيل )، وهو يجذبه من يده، عدة أمتار حتى ظهر طريق آخر، ملئ بالخضرة والماء العذب. كانت الأشجار المثمرة تملأ المكان، وصوت خرير المياة العذبة، يريح النفس المتعبة، والطيور الملونة التى تطير فى سمائه تُذهب العقل لدرجة جعلت عاصم مشدوهًا تمامًا، ولا يقوى على الكلام. يالله ما كُل هذا الجمال، رد عليه فضيل فى حزم

- سر فى هذا الطريق حتى نهايته ولا تمله أبدًا، وإن وصلت إلى نهايته فسوف تلقانى، أستودعك الله.

حاول (عاصم ) أن يجرى خلفه لكن فضيل نظر له بحزم قائلاً

- عد فتزود فإن الطريق طويل، ثم اختفى. وبدأ عاصم خطواته على الطريق .

فتح عينيه، القرآن يملأ الغرفة، وصوت بكاء النسوة بالخارج، لاحظ آخر نقطة من المحلول الوريدى تسقط من الزجاجة، وأنفه مغطاة بقطنه ورأسه مربوطة من الخلف، وقف شاب طويل يضع سماعة طبية، ويكتب بجدية شيئاً مُطولًا فى ورقة رسمية، بينما يتحرك بعض الغرباء فى الغرفة بطريقة مُريبة، فتح عينيه وهو يشعر بعافية، نهض وجلس فى سريره صارخًا فى انزعاج.

- بتعملوا أيه هنا، أخرجوا جميعًا .

لم يحتاج أن يكرر ذلك الأمر، فلقد هرب الجميع، حتى الطبيب، تبعه صراخ النسوة والجيران، والكل يفر من المنزل فزعًا وهم يقولون:

- لا إله إلا الله، الراجل الميت صحى، قبل مالدكتور يكتب شهادة وفاته؟!

خرج عاصم بعدها من المنزل وهو لا يلوى على شيء، ترك كُل شيء خلفه، وبحث عنه فى كُل مكان، وأخيرًا وجده يجلس على الدكة الخشبية المُتهالكة أمام باب المشرحة. كان يشرب الشاى وهو يستمع إلى المذياع، وعندما رآه لم تبدو أية إمارات دهشة على وجهه بل قال له فى بساطة.

- كُنت عارف إنك هاتيجى، تعالى يا عاصم.

ومن يومها لم يُفارق الشيخ (هربدى ) حتى وافته المنية . أنهى عاصم قصته قائلاً لنصر:

- دى مش قصتى كاملة، ولها بقية، وهاتعرفها فى اوانها !!

*****

## - 34 -

ما نفع القلب شيء مثل عزلة، يدخل بها ميدان فكرة ... ابن عطاء الله السكندرى

قد تكون تلك المرة الأولى التى جلس فيها (نصر اليهودى ) يبكى . والشيخ عاصم يُربت على كتفه، لم يكن مُصدقًا أن هذا الرجل غليظ القلب قد تأثر بهذا الشكل، نظر نصرله والدُموع تطفرمن عينيه قائلاً:

- نفس الكلام اللى كان بيقوله (يعقوب الصايغ) قبل ما يموت .نظر له عاصم مُستفسرًا

- كان بيقول أيه .

نصر: كان بيقول دُنيا بنت كلب .. المتغطى بها ..عريان.. استطرد قائلا

- أيه ده يا عم عاصم .. ده لو كان جبل كان انهد ... لاول مرة يُناديه ( بعم) . تنهد عاصم فى هدوء وهو يُشير إلى براد الشاى الأسود العجوز، المُوقد فوق سخان بدائى فى الحديقة، بجوارشجرة الجميزالعتيقة التى تُلقى بثمارها الطيبة فى كل مكان .قائلًا فى مرح.

- تشرب شاى ؟! تردد نصر اليهودى قليلًا . وهو ينظرليد عاصم وإلى الأدوات ضحك عاصم فى هدوء .

- ما تخافش يا بنى، هنا كُل حاجة نظيفة، وزى مانت شايف، الحنفية، والحوض بره خالص فى الجنينة ... ومش بنستخدم الحوض الى جوا .. ضحك مرة أخرى بينما نصر يبدو واجمًا. وضع له الشاى والجميز فى طبق من الصاج الخفيف . وقال له

- أنت النهاردة ضيفى ... أنا هاسيبك واصلى العصر قدامك هنا تحت الشجرة ... ماتخافش من الميتين ... الميتين ما بيخوفوش .. الأحياء فقط، هم من يجب أن نخشاهم !!....، نظر له وهو يصلى فى سلام واستمتاع كبير تحت شجرة الجميز التى تسقط ثمارها فوق رأسه وموضع سجوده .هو لم يعد خائفًا بل هو الآن فى سلام نفسى وسكون لم يشعر به فى حياته قط، وفى آخر مكان فى الدنيا قد يبعث على السكون! لكنه هنا بالفعل .كان ينظر له فى سعادة . ونفسه تحدثه.

- ما هذا الإنسان؟! كيف يعيش هكذا، لقد اتخذ من الموت سبيلاً للحياة، يبدو لغزًا مُحيرًا، جبلًا صامدًا لم ينحنِ لكل تلك العواصف التى كادت تقضى عليه . أيه يا نصر ... مالك، ماهذا الزلزال الذى يجتاحك. نظر له وهو ساجد فوق السجادة الخضراء، و الدموع تطفرمن عينيه، نصف مليون جنيه، وبيوت وعدة أفدنة من أجود الأراضى فى المنوفية. ولازلت كحمار الرحى أبحث عن الراحة، لقد كان عاصم أغنى منى فى يوم من الأيام، وها هو ينتهى به المطاف وهو يرتدى ملابس فقيرة ويصلى تحت شجرة جميز، ويشرب الشاى من براد أسود صدئ، ويعقوب الذى انتهت حياته وحيدًا مسكينًا على سرير أبيض بارد داخل مُستشفى حكومى!! كان يملك الكثير. لم ينتبه ليد عاصم التى ربتت عليه فى حنو وكأنه سمع مناجاته قائلًا.

ما من نفس تبديه – إلا وله قدرفيك يمضيه .

- ممكن أسألك سؤال

- تفضل يا نصر

- أنت ليه عاملتنى كويس بالرغم أنى كنت بكرهك وبشوف أنك بتقطع على فى رزق ؟

- علشان الدنيا مش مستاهلة. أشار إلى المبنى الذى أمامه والذى تنبعث منه مدخنة كبيرة، بص جوا وأنت تعرف، وعلشان أنا كنت زيك فى يوم من الأيام وجربت الغنى وكان عندى فلوس كتير، لكن ما فيش حاجة ريحت قلبى.

كان الليل قد حل بينما هما يتحدثان، انعكست أضواء المئذنة العالية الخضراء على الحديقة. وانطلق الآذان. ظل نصر مُطأطئ الرأس، باكيًا وكأنه يسمعه لأول مرة. جذبه من يده وأغلق الباب الكبير جيدًا، وتحرك به فى اتجاه المسجد بينما الآخر يسير خلفه كطفل يصطحبه والده أول مرة للصلاة. دخل بجواره للوضوء خجلًا، فهو لا يتذكر متى كانت آخر صلاة صلاها، لقد نسى الوضوء، تركه يُقلده دون أن يوجهه حتى لا يُشعره بالحرج، شعر بالامتنان أكثر له، فهو لا يُريد أن يفضحه وسط الرجال الذين تزدحم بهم قاعة الوضوء، وهم مُنكبون على وضوءهم. ظل يتأمل المصابيح الأنيقة التى تُزين سقف المسجد، وهمهمات الرجال، حتى سمع الإقامة فاصطف بجوار الشيخ. كان الإمام يقرأ بخشوع من سورة الحديد، قوله تعالى:

" أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ " الآية: ١٦ ..

كان جسد (نصر) يغلى كالمرجل من كثرة البكاء، ما الذى حدث هو لايدرى، لكن يبدو أن دعاء أمه المسكينة قد أصابه " ربنا يهديك ويفتح قلبك قبل ما

تواجه رب كريم وأنت بتشتغل الشُغلانة دى"، كانت قد حرمت كُل مليم من ماله عليها، واكتفت بالمائة جنيه، معاش زوجها تعيش بهم، كانت تدعو له ليل نهار وبدو أن دُعاءها قد أصابه . ظل يبكى ويبكى، وهو يهمس:

بلى قد آن يارب ... بلى قد آن يارب. وفى الصباح الباكر، شاهد عاصم ونصرمن الداخل، رجال الحارة المُخلصين، ومعهم بعض رجال الكنيسة، ينتظرون جثمان يعقوب الصائغ، ليحملوه إلى مثواه الأخير.

****

## - 35 -

جلست ( أمينة زين الدين)، زوجة نصرعبدا لله الشهير(بنصراليهودى)، على كرسيها الخشبى المُتهالك، تتطلع إلى الغُرفة الداخلية، التى يجلس فيها نصر، أصابه منذ أن زار يعقوب فى المستشفى، شهرًا كاملًا لم يخرج من غرفته إلا للوضوء، ثُم يعود للصلاة، وينكب على كُتبه التى أحضرها، لم يعّد نقوده مُنذ شهر، ولم يزره أحد من الناس الذين يطلبون قُروضًا!.كان هادئًا جدًا، لا يأكل إلا القليل، ولا يطلب شيئًا، على عكس ما سبق. كانت تشعربدهشة لكنها كانت سعيدة، فلقد بدا أفضل كثيرًا، تنهدت قائلة لنفسها:

- من يدرى، لعل الله يصلح حاله وحالنا . اقتربت منها ابنتها الأكبر هُدى، قائلة

- هاه .. كلمتيه يا ماما ؟

أمينة: لسه والله يابنتى .. أديكى شايفة حاله، لا بيخرج ولا بيتكلم .

هدى: ياماما عاوزين، لبس للشتا، أديكى شايفة البلوفر اللى حيلتى داب، والبنات بيضحكوا علىّ فى المدرسة. والولاد بيعايروا سمير وبيقولوا له، (يابو جزمة مقطوعة )..أنا تعبت .

بكت هدى، بنشيج مكتوم، حتى لايسمعها نصر ويضربها كُكل مرة. كان بكاؤها يُمزق قلب (أمينة ) قليلة الحيلة:

- والله وأنا كمان يا بنتى تعبت، لكن نعمل أيه.. أمر الله قدرنا كده . كان

الغضب وحماس الشباب قد تملكا من هُدى، فقالت لها بصوت عال هذه المرة:

- لأ، ربنا ما أمرناش نسكت على الظلم؟!، إنتى ضيعتينا بسلبيتك دى، أنا هاخش أكلمه واللى يحصل يحصل . بكت أمينة قائلة:

- هايضربك يا بنتى زى كل مرة .

- يضربنى .. أنا خلاص ما بقاش يهمنى!. اقتحمت الغرفة فوجدته جالسًا على الأرض يقرأ فى هدوء وقد طالت ذقنه، فى غرفة استقبال صغيرة بها مكتب عتيق، فوقه لوحة خشبية كبيرة محفور عليها بيت شعر بخط كوفى أنيق .بيت شعر عن المال!!، وكرسى جلدى، وأريكة وعشرات من الدفاتر السميكة، والتى يُسجل فيها نصر حسابات العُملاء. ونظارة القراءة فوق أنفه، لقد صار أكثر هُزالًا فهو لا يتناول سوى لُقيمات معدودة خلال اليوم . لم يكن مسموحًا لأحدهم بدخول غُرفته السرية، ومن كان يتجاوز ذلك فيعلم أنه مُعرض للعقاب .وقفت أمامه ترتجف كقطة خائفة، أما هو فتركها واقفة لثوان وهو يُطالع الكتاب الكبير.

أصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة، عدم الرضا منك عنها ولأن تصحب جاهلًا، لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالمًا يرضى عن نفسه، فأي علم لعالم، يرضى عن نفسه ؟ وأي جهل لجاهل، لا يرضى عن نفسه ؟ ...ابن عطاء الله السكندرى

أغلق نصر الكتاب، ونظر إلى هُدى قليلًا، هاله منظر ثيابها الرثة، وجسدها الهزيل الذى تربى على سوء التغذية وحياة الشظف!!، كيف لم ينتبه لذلك يومًا، هل حجبت شهوة المال عنه، كُل هذه النقائص . رق قلبه لها، وهو يراها ترتجف كعصفور مذعور، ونظرات الخوف تملأ عينيها، فتش فيهما فلم يجد لمحة حُب واحدة، غالبه الدمع، وبدله بابتسامة خفيفة، من وراء كلماته الحازمة قائلًا وهو ينظر إليها من طرف نظارته الطبية السميكة.

- مالك ياهُدى .. صوتك عالى ليه، وإزاى تُدخلى علىّ كده .. انتفضت الفتاة فزعًا !. آخر مرة ضربها فيها، كسر لها ذراعها . فبكت فى قهر قائلة:

- معلش .. أصل ... قال لها مُبتسمًا فى حنو.

- خلاص هانخرج كُلنا دلوقتى، وأجيبلكم اللى عاوزينه، بدا وقع الكلمة غريبًا على الفتاة ( هُدى)، لم تُصدق ماسمعته الآن !. نصر عبد الله الذى تعرفه الحارة باسم (نصر اليهودى)، سيشترى كل ما يطلبونه !! اعتقدت أن فى الأمر شيئًا ما، لكنها ارتمت فى أحضانه باكية . فبكى رغمًا عنه .لاحظت تلك اللوحة الخشبية التى كان يحفرها بأدواته، كان بارعًا فى النقش على الخشب، ويُعلق الكثيرمن اللوحات فى الغرفة، لكنه توقف عن ذلك الفن الراق، باعتباره عبثًا!. سألها فى هدوء، وهو يتأمل اللوحة فى إعجاب .

- ها ..أيه رأيك ..ابتسمت فى خجل قائلة:

- طول عمرك فنان! رفع اللوحة الكبيرة المنقوش عليها بيت الشعر بالخط الكوفى

(والمال يرفع أقوامًا، ويُلقى بقوم فى الحضيض الأسفل) . أزالها من فوق حائط مكتبه ووضع مكانها الآية القرآنية التى نقشها بنفس الخط الكوفى.

بسم الله الرحمن الرحيم (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ) !!. هناك مُتعٌ فى الحياة، تبدو بسيطة وتافهة لمن لم يتذوقها بعد ولا يشعر بها من عَشِقَ الماديات فقط!. كان يتأمل فرحة الصغير (سمير) بالحذاء الجديد، وهو يقفز حولهم، غير مُصدق، بينما ترك (هدى) تتجول، وتعوض كل ما فاتها، من كل شىء . لقد ذاق المُتعة لأول مرة، عندما قبّلته ابنته فى محل الملابس بحُب، ولأول مرة يرى الرضا فى عين زوجته، وهى تشترى لوازمها دون تنغيص . كان يسير بجوارهم، وهم يحملون ملابسهم الجديدة، وكل الأشياء التى طلبوها، وهو يشعر لأول مرة منذُ زمنٍ بعيد بأنه يعيش!.لأول مرة لا يشعر برعشة فى جسده ولا بالعرق الغزير

يتصبب منه وهو يدفع المال، تلك النعمة والنقمة فى آنٍ واحد!! كيف كانت تلك الحقيقة البسيطة غائبة عنه، لقد خلق الله المال ليخدمنا لا لنخدمه. هو جُندى من جنود الله يعمل على إسعادنا لا لنعمل نحن عبيدًا فى بلاطه . بدأ الأطفال يتجرأون عليه أكثر، فقال الصغير سمير أنه جائع!! قالها وعيناه الصغيرتان تلمعان فى اتجاه أصابع الكُفتة المشوية التى تتزفوق الشواية الكبيرة لحاتى العائلات، والتى تفوح منها رائحة زكية تُصيب الأنوف المُتحرقة شوقًا على بُعد أميال. لم يتردد (نصر) لحظة، مد يده إلى الصغيروجذبه إلى المطعم، بينما أمينة تنظرله غيرمُصدقة ذلك التغيرالجذرى الذى حدث له فى شهرواحد .كان لسان حالها يُحدثها .

- بالتأكيد ليس هو!!.يبدو أن روحًا أُخرى أكثرطيبة قد سكنته، فلقد فعلها مرة واحدة فقط، طوال الخمسة عشرة عامًا من الزواج. عندما قام بخطبتها؛ لينفى عن نفسه صفة البُخل، لكن كُل تصرفاته وقتها كانت توحى بعدم رضاه، تعرق وجهه، ومُراجعته الكميات التى طلبتها وقائمة الأسعار!.لكنه الآن يجلس فى المطعم هدئًا، يأكل باستمتاع، ويُلبى طلباتهم بكُل بهجة، لم يسأل أحدهم عن الكميات، ولا الأسعار، كان يشعربرغبة عارمة فى إسعادهم، فقط إسعادهم هى غايته المنشودة.

كانت ليلة خميس رائعة على تلك الأسرة المسكينة التى ألقاها حظها العاثر فى قبضة أب بخيل، ولكنه استيقظ الآن وقرر التكفيرعن خطئه فى حقهم، لله فى خلقه شئون !!نسوا كُل شىء، كانوا يضحكون ويلعبون، يُداعبونه بدلال، يطلبون منه، يجرون خلفه، وهو صبور، يُلاطفهم ولا يرد لهم طلبًا.تذكر كلمات (يعقوب) وهويحتضر، "دول هما الثروة الحقيقية".انتهت ليلتهم السعيدة، كما ينتهى كُل شىء جميل فى هذه الحياة، وآن للجميع الرحيل إلى المنزل. لم يتخل (نصرالهودى)،عن نوبة الكرم الحاتمية التى داهمته الليلة، فأوقف (تاكسيًا)، استقلوه جميعًا، بينما أمينة تُمتع رئتها بالهواء البارد المُنعش،لاوتدعو الله أن

تسكنه تلك الروح الطيبة للأبد، وأن يرحل الشيطان البشع من روحه وجسده بلا رجعة.!!.وصلت السيارة حيث منزلهم بحارة الغول، فقال للسائق:

- انتظرنى دقيقة، هاحتاجك فى مشوار قريب .سمعته أمينة فقالت له فى دلال.

- مش هاتطلع معانا، كانت تبتسم له بودٍ صافٍ؟! اندهش قليلاً، فلقد كانت تهرب منه فى السنوات الماضية، وتقبل دعوته على مضض!.أجابها فى عُذوبة وهو يُمسك بيدها على مرأى من الناس، وهو شىء لم تعتده من قبل.

- عندى مشوار قريب، وسأعود حالًا بإذن الله.

****

## - 36 -

انطلق التاكسى مرة أخرى إلى وجهته، توقف أمام ذلك المبنى الصغير ذو الحديقة الواسعة، والتى يُحيط بها السور الحديدى، من كُل جانب. وقف نصر فى هدوء يبحث عنه من بين أسياخ الحديد الخضراء.سمع همهمات بسيطة قادمة من الجانب القبلى للحديقة، حيث كان يجلس على أريكته الخشبية، فى المرة الماضية، بالفعل وجده هناك، جالسًا على نفس الأريكة، يقرأ القرآن فى صفاء عجيب، وبصوت رائع، ونظراته الطبية السميكة، تتدلى قليلاً فوق أرنبة أنفه، بينما براد الشاى الأسود، يغلى فوق السخان العتيق ناشرًا شذا رائحته الجميلة التى اخترقت أنف (نصر) الذى ظل صامتًا يُراقب ذلك الرجل الذى باع الدُنيا كُلها،وصادق الموت، إنه يتعايش معه بطريقة غريبة . كان شاردًا ينظر فى هدوء فى اتجاه عاصم، وكأنه يُشاهد أحد أفلام السينما الحالمة. انتبه عاصم لذلك الواقف فى هدوء يُتابعه من بين قُضبان السور الحديدى، الذى يُحيط بالمبنى والحديقة . فقال فى دهشة:

- نصر ؟! خيريا بُنى !! أيه اللى جابك الساعة دى؟.لم يرُد السؤال بل ظل مُحملقًا فيه بدهشة، فهو لا يعلم ما الذى أتى به إلى هُنا، هو فقط يُريد أن يراه، وأن يشعر بتلك المُتعة التى شعر بها فى المرة السابقة، لقد صار يحن إلى هُنا، كما يحن الإنسان إلى مسقط رأسه!، على الرغم من أنه يعلم بشاعة المكان، فلا أحد أبداً يُمكنه أن يعشق مشرحة الموتى!! لكنه حدث ! فلقد ولد هنا بالفعل، رد عليه فى رجاء قائلًا:

- عاوز أشرب شاى معاك ؟! عاوز أُصلى العشاء، فأنا لم أُصلِ بعد.

تطلع عاصم فى عينيه، إنها عين الضال عندما يبحث عن طريق، لقد شاهد تلك العينين من قبل، شاهدهما فى المرآة، لهفته للراحة والسكينة، رغبته فى فهم حقيقة الدُنيا التى يجهلها الجميع، إنه يرى ولادة نفس جديدة، تتوق للبحث عن الحقيقة، هل يُعيد التاريخُ نفسه!.فما أشبه وقفة (نصر) أمامه بوقفته أمام الشيخ هريدى فى نفس المكان مُنذ خمسة عشرة عامًا. ابتسم (عاصم) قائلا

- الباب مفتوح، ادفعه وادخل، تركه يدخل وحده عبر مبنى المشرحة، مارًا بثلاجة الموتى، دون أن يُساعده، أو يُضئ له الأنوار. كان ذلك بمثابة اختبار القبول؛ لدخول ذلك العالم الغريب. كان (نصر) يسير بثقة، وكأنه يسير فى طرقات منزله، لم يشعر بوحشة، ولم يعرف الخوف طريقًا إلى قلبه، كان يبحث عن ما هو أبعد من ذلك، باب الأُنس بالله !!.

متى أوحشك من خلقه، فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به، ابن عطاء الله السكندرى.

قابله بترحاب:

- أهلاً،وسهلاً...

نصر: أهلاً بيك يا عم عاصم . أشارعاصم للصنبورالمُعلق فوق حوض عتيق فى الحديقة، وبجواره فُرشت سجادة الصلاة، بجوار شجرة الجميز الكبيرة، التى ثبت بها مصباح صغير، ليُعينه على القراءة

- الماء هنا، توضأ وصلى، وبعدها نشرب الشاى .

كان يُراقب جسده الذى ينتفض مع كل سجدة، كم أنت رحيم يارب، آخر شخص كان يتوقعه، هاهو يبكى مُبللاً الأرض بدموعه . ظل يُراقبه حتى انتهى . جلس بجواره صامتًا .أخذ عدة رشفات من كوب الشاى . وهو يتأمل السكون من حوله .قال له عاصم مُشجعًا :

- مالك ؟ أنت بخير. ظل مُحملقًا فى الأشجار قائلا

- صدقنى، عمرى ما كنت بخير، زى النهاردة؟!

- الحمد لله، لكننى سألت عليك فى مقهى بيومى، وفى منزلك، أكد الجميع أنك لا تخرج من غرفتك إلا قليلاً. وافتكروا إن ده حُزن على صديقك (يعقوب الصائغ). ضحك نصر، ضحكة تهكمية قائلاً:

- من مفارقات القدر أن يكون (يعقوب الصائغ) والذى كان سبباً فى احتراقى للربا، هو السبب أيضًا فى رجوعى .! ابتسم عاصم وكأنه يختبره

- كيف ؟!

نصر: شفت مصيرى زيه؟، امتقع وجه عاصم، وكأنه رأى شيئًا مُخيفًا.

- عافانا الله، أشاح بوجهه مرة أخرى فى صمت، فقال له نصر فى فضول:

- شفته؟!

. نظر عاصم فى عينيه بقوة، قائلًا فى حزم:

- ما دُمت جئت إلى هذا المكان فلا تسأل عنهم، فكُل شىء هُنا بإذن !. ازدرد نصر لعابه مُعتذرًا عما بدر منه قائلاً

- طيب ممكن أسألك سؤال:

عاصم: تفضل

- بتاخد فلوس من عملك هنا. قال له عاصم بحزم

- عملى هُنا لوجه الله فقط، وقد ينوبنى مما رزقنى الله، على هيئة مُكافأت

نصر: طيب إزاى بتحصل على رزقك، ومنين الفلوس اللى كنت بتديها للناس؟! أشار لحقيبة الظهر الكبيرة، الموجودة بجوار الأريكة .

- نسيت أننى تاجر أقمشة، فأنا باسرح على باب الله، أبيع الأقمشة للعرائس والسيدات. لكن، ليه بتسأل؟

نصر: خلاص، مش هاشتغل تانى فى الربا.

- الله أكبر، ده اللى قلته لك قبل كده، بس أنت مافهمتش.

- المشكلة، هاشتغل أيه دلوقتى ؟! .أجابه عاصم فى هدوء

- افتح، ورشة الخشب التى كان يمتلكها والدك، فى المنشية، وارجع لمهنة أجدادك .انتفض جسد نصر قائلاً:

- لا؟ إلا الورشة!!. ابتسم عاصم وهو يُمسك بذراعه اليُسرى الصناعية، ويكشف قميصه قائلاً:

- الماكينة الكبيرة، قطعت ذراعك وأنت صغير؟! . انفعل نصر فى هيستيريا، ويده تتحرك فى عصبية

- ماحدش فى المنطقة، يعرف الحكاية دى ..عرفت إزاى؟! رد عليه عاصم بهدوء

- والدك أحضرها إلينا هنا!! كانت أول شىء غسلته وكفنته فى حياتى، و صلينا عليها أنا والشيخ هربدى ووالدك الحاج (عبد الله ) الله يرحمه! كان صديقًا للشيخ هربدى جدًا .أنا عرفتك من أول يوم شفتك فيه، كان بيتكلم عنك كتير. وإزاى أنك تركت الورشة بعد الحادث الأليم، وانطلقت للعمل مع (يعقوب الصائغ)، وصرت غريب الأطوار. لكن يظهر أن دُعاءه لك بالهداية قد أتى ثماره .

عاد نصر برأسه للوراء، وكأنه يغترف ذكرياته، من بئر سحيق .

- لا زلت أتذكر صوت المُنشار الألمانى العتيق وهو يجذب ذراعى كسمكة قرش متوحشة، ثُم يلتهمها بلا رحمة، مُخلفًا وراءه كمًا رهيبًا من الألم والدماء والصراخ فى كُل مكان. عارف يا عم عاصم أنه يزورنى فى منامى مُنذ عشرين عامًا، وإلى الآن أنا أشعر بالألم الرهيب !!. هذه الماكينة الوحش، هى أول سبب فى ما وصلت إليه، فلقد جعلتنى أكثر جُبنًا من غدر الزمان وتحول الأيام، ومن

الفقر، أكبر آفة فى الوجود!! يومها أبويا ما لقيش ثمن علاجى، ولولا الخواجة ( بابادوبلوس)، سفرنى أثينا، للعلاج فى مستشفى شقيقه، جراح العظام العالمى آنذاك، لعشت مُتسولًا بعاهتى حتى الآن. ومن يومها عرفت قيمة المال، عملت فى اليونان خمس سنوات، فى كل المهن الحقيرة التى تتخيلها، كنت أجوع بالأيام لأوفر لنفسى نقودًا، أعيش منها، لقد كان هدفى أن أكون غنيًا لأقصى حدٍ ممكن، ولما رجعت تلقفتنى يد(يعقوب) ؟ اعتبرنى ابنًا له، وتعلمت منه (الفايظ) .وما عرفتش أبيع الورشة؛ لأنها إيجار قيمتها الحقيقية فى دوران الماكينة العجوز اللعينة اللى حولتنى إلى شخص عاجز،علشان كده كنت باخاف من الفقر، تذكر نصر شيئًا فخبط يده على رأسه قائلًا فى مرح:

لحظة واحدة، عم (هريدى) التمرجى العجوز، اللى كان بيدينا الحقن فى البيت ؟!هو ده نفس الراجل؟ أومأ عاصم برأسه ضاحكاً-

- نعم هو من تلقفنى هُنا، مُنذ خمسة عشر عامًا، بعد وفاة فُضيل ابنى، وكُنت وقتها على مشارف الضياع، فكر نصر قليلاً

- يعقوب ساب لى المحل، واشترط على عدم بيع الذهب! هاحوله إلى بقالة، أرتزق منها .ابتسم عاصم فى رضا قائلًا:

- على بركة الله .قطع كلامهم،صوت طرقات على الباب الخارجى. قطب نصر حاجبيه، لكن (عاصم)، استرق السمع على الباب. صوت شخص يناديه من على الباب .

- افتح يا عاصم، ضرورى .. افتح، ميز صوت صديقه (فؤاد فواز).لا أحد يعرف عنوانه، إلا هو، والآن صار نصر هو الآخر يعرف السر. فتح الباب على عجل

- خير يا فؤاد فيه حاجة، لم ينتبه فؤاد لوجود (نصر الهودى) بالداخل، لكنه قال فى وجل

- لازم تيجى دلوقتى يا عاصم، الحاجة (فيروز) تعبانة قوى. ركب الجميع السيارة التى توقفت على باب الحارة، كان الجو متوترًا، القرآن يصدح من مأذنة المسجد القريبة، جاهد عاصم الزحام الذى ملأ الحارة والمنزل، كان جسده يرتعد ومعه فؤاد ونصر يساندانه، لكن عاصم توقف فجأة وهو ينظر إلى المنزل فى دهشة، ثم قال لفؤاد

- لا إله إلا الله ... حصل إمتى؟!

- من شوية !، والرجالة دوروا عليك، علشان كدة جيتلك، دلف إلى باب المنزل فى هدوء، عبر مجموعة النسوة المُتشحات بالسواد فى الصالة وعلى الأريكة وفى كُل مكان، سيدات الحى لم يتركنها لحظة، نظرن إلىهن جميعًا، كان الطبيب خارجًا لتوهه من عندها بينما نورا زوجة خميس الحلوانى، تبكى بالباب، وبجوارها وقفت (مشيرة) تبكى هى الأخرى .اقترب من الطبيب، وهو يقول

- خير يادكتور، ربت الطبيب على كتفه قائلاً

- البقاء لله

- أيه اللى جرالها ؟.

- نزفت كتير من فمها، وأدى ذلك، لهبوط فى الدورة الدموية .. أمر الله يا حاج، أخذ حسين تصريح الدفن من الطبيب، ونزل إلى الشارع باكيًا. قال عاصم لهن فى حزم :

- سيبوني معاها

خرجوا من الغُرفة جميعًا، وقف ثابتًا أمام وجهها، ويديه معقودتان أمام صدره، كان يُتمتم فى خفوت. تغير وجهه بعدها، وضاقت عينيه إلى أقصى درجة .جلس قرابة الساعة بالداخل وهو فى عالم آخر.

خرج بعدها، مُسرعًا من باب المنزل، لكن يدًا جذبته من ذراعه قائلة .

- دقيقة واحدة يا عم عاصم، كانت نورا زوجة خميس، جذبته من ذراعه ودخلت به، إحدى الغرف المغلقة بمنزلها، وأخرجت مظروفًا كبيرًا، أصفر اللون، أعطته إياه قائلة:

- المظروف ده، خبته الحاجة فيروزعندى أمانة، وأوصتنى إنى أسلمه ليك، لوجرالها حاجة!

- فيه إيه المظروف ده؟

- الله أعلم، هو أمانة، وماعرفش فيه أيه.

*****

## - 37 -

بسم الله الرحمن الرحيم

لمن يهمه الأمر

هذه حكايتى، أنا (حميدة أبو النور ). أكتبها حتى أبرأ من ذنبى أمام خالقى.

كنت أجمل بنات مركز البدارى، بمحافظة أسيوط، أرمح فى طرقات البلدة، كالفرسة الجامحة، لا أحد يستطيع اللحاق بى، كُنت حلم كُل شباب، وجدعان البلدة، لكننى كنت أحلم بواحد فقط، كنت أعيش من أجله، وأنتظر إشارة منه، كى أعيش، وأتهنى، إنه (عبد الله العايق) ابن عمدة قريتنا (المحبوبة) .كان عبدالله عائقًا، جميل الطلعة، ملون العينين، حلو الكلام، ويدرس فى الجامعة، يسير بفرسه العاجية فى طرقات البلدة، فتنخلع خلفه قلوب العذراوات وكنت أنا إحداهن، بل كنت أجملهن، لكننى كُنت فقيرة ويتيمة، كان والده يحسن علينا. اقترب عبدالله منى وأسمعنى حلو الكلام، وشيئًا فشيئًا، خارت قواى، عشت معه الوهم، بأننى سوف أكون زوجته، وبعدما وقعت الكارثة، ألقانى هو ووالده خارج القرية، وكتب لى قيراطين من الأرض، خارج زمام القرية، تعويضًا لى عما حدث، وحتى أسكت، لكنهما ظلا يهددانى حتى هربت.اضطررت للعمل (غازية) بالموالد ثلاثة سنوات كاملة، إلى أن شاهدنى (بدرى)، أحد لصوص الجبل.كان يريدنى بأية طريقة، هددنى، ثم خطف طفلتى (مشيرة)، حتى أرضخ له .اضطرت أن أجاريه، حتى أحصل على طفلتى، بعدما ماتت أمى كمدًا من

جراء ما سببته لها من عار. خدعت (بدرى) الذى كان يهددنى بقتل طفلتى، هربت وهو نائم، وفررت إلى الإسكندرية.

دُرت فى الشوارع، وعملت خادمة فى المنازل، حتى تعلمت الكتابة والقراءة، والتحقت كعاملة بمدرسة (العروى الوثقى)، حينها تعرفت على عم (نبيل الراوى)) الرجل الطيب، الذى كان يكبرنى بثلاثين عامًا، لكنه كان أبًا حنونًا، حكيت له قصتى. كان وحيدًا ومسكيناً، عرض على ـ الزواج فوافقت، تزوجته وتمكن من إخراج شهادة ميلاد باسم مشيرة، ووضع اسمه فى خانة الأب، بعدما سقط قيدها، هذا الرجل أنقذ حياتى، وجعلنى أبدأ من جديد. كبرت مشيرة فى كنفه وتعلمت، كان يحنو عليها وكأنها من صلبه، ولذلك لم تشعر مشيرة بشىء، فهى لهذه اللحظة، تعرف أنها ابنة (نبيل الراوى )، لكن دائمًا ما تنتهى الأوقات الجميلة، فلقد عرفت إحدى بنات بلدتى، طريقى، وفضحتنى عند (نبيل)، ومن يومها ومعاملته تغيرت معى، ومع مشيرة صار يضربنى ويضربها، وهددنى بالطرد وبفضح أمرى وبحرمان مشيرة من نسبه، خفت كثيرًا، وهنا ظهر( سبع الليل مناع) فى حياتى، أحد الذين أُغرموا بى فى شبابى، ظل يطاردنى ويوسوس فى أُذنى كشيطانٍ رجيم !!. وكانت النتيجة أننى ارتكبت أكبر جريمة فى حياتى. لقد دسست لنبيل السُم فى الطعام، وأخفيته بمعاونة سبع الليل مناع !!، لم نجد حلاً أفضل من بناء (عشة الحمام)، ذات القُبة الخضراء، لإخفاء عظامه بداخلها!!

نعم أنا قاتلة، وأدفع الآن ثمن ما اقترفته منذ زمن. مع الرجل الطيب الذى أكرمنى، ثم تغيرت معاملته بسبب الوشاة، نسيت الألم، و أكملت طريقى ولم أتوق. ربيت (مشيرة)، شقيت وتعبت، حتى تصبح فتاة صالحة. وتبتعد عن ميراث الدم، لكن الديان لا يموت، ولأن العرق دساس، شبت مثل أبيها، نزقة مغرورة، شريرة، لا تشكر الله، تبحث دومًا عما ليس لديها وتنظر لما فى يد الآخرين، وتعتز بجمالها لأقصى حد.

وبعد وفاة (نبيل )، تزوجت من (سبع الليل مناع)، كنت أحتاج من يرعانى ويرعاها، لكنه كان قذرًا لأبعد الحدود، وكنت أكرهه، كان عكس نبيل فى كل شيء، قوى كالثور، لكنه كان قذرًا وحقيرًا، لم أتخيل نهايته هكذا، لقد قتلته مشيرة، وأخفت جثته فى مكان ما!! بمعاونة صديقها(حسين عاصم)، لقد رأيتهما وهما يقطعان جثته، نفس الطريقة التى تخلصنا بها من نبيل !! فلقد أتيت مُبكرة من عند أختى فى بحرى، وعندما وجدتهما اختبأت فى برج الحمام حتى الصباح، للأسف لقد رأيت كل شيء، لكننى خشيت أن أبلغ، حتى لا يمثلان بجثتى كما فعلا، ولأننى قد أتهم أنا الأخرى بقتله، فأنا الوحيدة المستفيدة من موته، ومن يومها، ومشيرة تنظر لى نظرات قاتلة، أشعر أن نهايتى سوف تكون على يديها، لكننى قررت الاعتراف، حتى أبرئ ذمتى ! وكفى ما اقترفته من ذنب!!

الإمضاء

حميدة سعيد أبو النور

انتهى عاصم من قراءة الرسالة القاتلة التى كانت تحتفظ بها فيروز. مد يده إلى ورقة صفراء قديمة، داخل المظروف. فتحها على مهل، كانت ورقة قديمة من أوراق الحيازات الزراعية، ورقة تمليك القيراطين، باسم حميدة أبو النور. كان مُنكبًا على مكتبه وظهره للباب.كان المنزل هادئًا بعد انصراف جموع المعزين، ولا أحد بالخارج، إنها مصيبة ، جريمة قتل، اشترك فيها ابنه الضال، إذن فإشارات فيروز، رحمها الله كانت صحيحة، لم يكن موتها طبيعيًا !! لقد أخطأت باخفائها ذلك السر، و قتلتها تلك الرسالة بالفعل نهض من مكانه، خرج إلى الصالة، كانت مظلمة تمامًا،ولا أثر لحركة فى المنزل، أضاء المصباح الصغير، حتى لا يجذب انتباه حسين ومشيرة، كان يبحث عن شيء بالقرب من منضدة فيروز، اقترب من أريكتها، منطقة القهوة، كما كان يسميها، بحث بجوار السبرتاية وعلى المنضدة، كان الضوء الخافت يساعده على البحث، جلس على

الأريكة، مد يده فى الجيب السرى الذى كانت تخبئ فيه علبة القهوة، تحسس جيدًا، لكنه لم يجدها.

- فين علبة القهوة، كانت فيروز بتخبيها هنا. لازم أتأكد من المعلومة، قبل ما أبلغ البوليس. شعر بحفيف أقدام تتحرك خلفه، حاول أن يتحرك بسرعة، لكنه تلقى ضربة من آلة حادة أرسلته إلى المجهول.

بعد نصف ساعة

بلاغ إلى سيارة الإسعاف ٢٨٢

الرجاء التوجه إلى ٢ حارة الغول، شخص مُسن سقط على السُلم، وينزف من رأسه وفى حالة غيبوبة كاملة!

*****

# - 38 -

غرفة العناية المركزة بالمستشفى العام

بعد الضربة، مررت بنفق طويل جدًا ملتوى أوصلنى إلى هنا، أعرف تلك المرحلة جيداً، فلقد حكى لى عنها أصدقائى الموتى، أو من هم على وشك ذلك، أشعر الآن بما كانوا يشعرون به.أنا الآن أفضل، أشعر بقوة وكأن جسدى قد شُفى تماماً من كل الأوجاع التى حلت بى، الحديقة الورافة التى سقيتها بيدى شجرة المانجو المثمرة التى كانت صغيرة كبرت وصارت تؤتى أُكلها بإذن ربها كل عام، وشجرة الجميز العتيقة، زرعة الشيخ هريدى، نباتات النعناع والريحان والياسمين، تُرسل شذاها فى الفضاء، ليعم المنطقة بأسرها، كم سهر يُقلمها ويرعاها، ويرويها فى ليالى الصيف، والآن ها هو مساعدى الأمين (نصر) يرويها كما أوصيته، كان يسيرمعى كظلى، لقد تعلم كل شىء، صارماهرًا بالعمل، وكأنه قد خُلق له !! عجيبة هى تصاريف الله سبحانه وتعالى فى خلقه، آخر شخص فى العالم، كنت أتخيل أن يكون مكانى،(نصر اليهودى) سابقاً، الشيخ نصر حاليًا، يجلس مكانى تحت شجرة الجميز العتيقة، يحتسى الشاى من برادى الأسود العتيق، ويقرأ القرآن من مصحفى المفتوح دائمًا، فوق الحامل الخشبى الفاتح ذراعيه للسماء دومًا.لم يلحظ نصر وجودى وأنا أقف أمامه، أكبر دليل على أننى قد خرجت عن هيئتى البشرية، فربما الآن أنا على جناح فراشة، أو فى حويصلة طائر الله أعلم ؟! ربع ساعة كاملة، وأنا أتأمل ملامحه التى تحولت إلى النقيض، من الغضب إلى الرضا، ومن الشقاء إلى الصفاء، ومن الجشع والموت على الدنيا

إلى القناعة، ومن القسوة إلى الرحمة، سبحانك يارب، تهدى من تشاء، وترزق من تشاء بغير حساب، ليس هذا نصر الهودى عابس الوجه شره النظرات، القابض طوال اليوم على حقيبة نقوده. لقد كشفت له الدنيا عن وجهها الحقيقى، وجه ميدوزا بشع، يختفى خلف كل هذا الكم من المساحيق، لازال يردد كلمة، أستاذه ومعلمه الأول يعقوب الصائغ الذى مات وحيدًا غريبًا،على الرغم من كم تلك الكنوز التى كانت بحوزته

- دنيا بنت كلب .. المتغطى بها عريان ؟! . ألقيت على نصر نظرة أُخرى وهو يقرأ القرآن بصوتٍ عذب، ثم تركته ورحلت، دخلت إلى الثلاجة حيث أصدقائى كنت أعرفهم واحدًا واحدًا أتذكرهم ويتذكروننى جيدًا، يقفون بجوار أدراج الثلاجة الكبيرة الدُرج الأول (ابنى فضيل )،والثانى (فيروززوجتى)،الدرج الثالث الفتاة البدوية (سليمة)، والدرج الرابع (خضير) بطل المُصارعة الضخم، والخامس(أماليا بابا دوبلوس) صديقتى القديمة، والسادس قائدهم الشيخ الصالح، صاحب الكتاب الأسود.

الدرج الأول، فُضيل

ابتسم له فى حُب كان واقفًا ببزته العسكرية، لايزال مُبتسمًا قويًا، احتضنه فى حنان بالغ

عاصم: كيف حالك يا فضيل

فضيل: أنا بخيروالحمد لله، اختلفت هيئتك عن آخر مرة تقابلنا فيها

عاصم:نعم .. كثيرًا .. لكننى تركت وادى الهلاك ؛ لكى ألحق بك فى تلك الحديقة الغناء التى وجدتك واقفًا بها .

فضيل: أنت أهل لها إن شاء الله .ولكن ليس الآن ..

عاصم: كيف وأنا معكم ؟!

- عد وواجههم.

- كيف يابنى

- عد وواجههم وخذ بثأر أمى، أشار إليه، ليجدها هناك، كانت فيروز تجلس على أريكتها فى سلام وتمسك بمطحنة البن العتيقة

الدرج الثانى ..فيروز

بدت جميلة جدًا، عادت شابة صغيرة، ضفيرتها الكبيرة مُسترسلة فوق ظهرها. كانت تجلس تحت شجرة كثيفة الخُضرة بها ثمار صغيرة حمراء، تشبه العنب ولكنها أصغر فى الحجم، كانت تأخذ منها حبات طازجة ثم تعرضها للشمس قليلاً لتتحول إلى حبيبات قهوة. أول مرة يرى تلك الشجرة، شجرة القهوة[13] كانت جميلة ونضرة ومغسولة بماء المطر المنهمر. ناداها :

- لقد أحزننى فراقك جدًا، نظرت له فى عتاب، تألم له كثيرًا

- لقد حذرتك منها مرارًا، لقد قتلتنى.

- ولكن كيف حدث هذا، أخرجت تلك العلبة التى كانت تخبئها طوال الوقت، علبة القهوة المحوجة التى كانت تشرب منها .

- بنفس الطريقة التى كانت تقتل بها القطط والكلاب قديمًا .. بالسم

- لكن .. الطبيب أكد لنا أنها أزمة قلبية ؟! ضحكت فيروز فى ضجر.

- الطبيب ؟! ياعزيزى، الطبيب له شواهده وعلاماته التى درسها، لقد تعدت تلك القاتلة هذه المرحلة منذ زمن، فهى يُمكنها القتل دون ترك أي آثار! لقد غدرت بى، وحان وقت الانتقام، أريد أن أراها ضيفة عندك !

- ولكن حسين ؟!

---

13) تنمو شجرة البن طبيعيًا في المناخ الاستوائي الذي يكون حارًا رطبًا في موسم النمو، وحارًا جافًا في موسم القطاف.

- فيروز: لقد حلت عليه اللعنة. وانتهى أمره. لقد ترك تلك القاتلة تفعل بنا ما تشاء ؟! وقد حان وقت الانتقام. وقفوا أمام الشيخ الوقور، الواقف بجوارى وهو يضع يده على كتفى، قال لهم:

الآن جاء وقت رد الجميل، جاء دورنا لنرد بعض الدين الذى طوقت به أعناقنا. سرت موجة مغناطيسية دفعت عاصم إلى الوراء، بينما الشيخ يتلو بصوته الجهورى .

بأمر الله .. بأمر الله بسم الله الرحمن الرحيم « إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا». سرت الدوامة القوية بينهم، تضاءلت أجسادهم تتدريجيًا،حتى تحولوا إلى أجسام مُضيئة تُشبه الفراشات، كان عاصم يُراقبهم فى دهشة، وهو يخرجون معه من بوابة الثلاجة الكبيرة، إلى الحديقة الواسعة، حيث كان مُساعده الشيخ (نصر)، لايزال يقرأ القرآن، تحت شجرة الجميز. التفوا حوله مرةً أخيرة ثم طاروا على ارتفاع شاهق،عابرين السور، ظهروا فى السماء، كسرب من الطائرات المنظمة لها قائد تسير خلفه، ظلوا هادئين كنجوم مُتلألئة فى السماء حتى طار كبيرهم وسقط بسرعة نيزك فضائى، فى اتجاه قط كان يسير فى سلام، فاخترقه، لينتفض القط وكأن صاعقة من السماء ضربته، وهو يتلوى حول نفسه ويصرخ فى ذعر، ثم خر على الأرض وكأن روحه قد فاضت إلى بارئها، لكنه بعد عدة ثوانٍ عاد ووقف على قوائمه مرةً أخرى، وهو ينظر إلى السماء، وكأن الهالة الضوئية الثانية، كانت تنتظر الأمر، فسقطت هى الأخرى بقوة فى اتجاه قط ثانٍ، ليتكرر ذلك الموقف مع باق الهالات. ست هالات اختفين داخل ست قطط سوداء، كانت لهم جميعًا وجهة واحدة .

****

## ٢ حارة الغول

**أشهر طويلة والرجل لا يزال يرقد فى غيبوبة**

كانت (مشيرة) تصعد السلم، الليل مظلم، والجو شديد الحرارة، الهواء الساخن يمؤ بقوة مُعلنًا عن قدوم رياح خماسينية، الوقت لم يكن متأخرًا، لكن الجو كان شديد الحرارة، فخبأ كل شىء من مظاهر الحياة، شعرت أنها وحدها فى المنطقة، كانت تفكر شاردة.

- مصيبة، لو فاق الراجل ..هايحكى عن كل حاجة، ويضيع كل اللى خططنا له . ياريته يموت ونستريح .!!، لمحت تلك العيون الحمراء التى تراقبها فى صمت.

- أيه ده .. القطط كترت كده ليه اليومين اللى فاتوا ؟!، داست بالخطأ على ذيل إحداهن، فخرج منها صوت حشرجة مُزعجة، لا تشبه مواء القطط، فاقشعر جسدها رغمًا عنها، فاندهشت من نفسها، تلك التى تقتل دون أن يطرف لها جفن، أسرعت ففتحت باب الشقة، حاولت إضاءة الأنوار لكن زر المصباح لم يستجب، قالت لنفسها فى ضجر

- الكهرباء مقطوعة!! فين حسين ...لسة مارجعش

جلست على الأريكة الموجودة بالصالة، والرياح تضرب الشباك القريب، وتملأ الجو بمواءها المرعب.. تشعر أن الرياح مُحملة بأرواح القطط السالفة، وأنها قد عادت جميعها لتنتقم فى آنٍ واحد، زاد توترها، وهى تسمع صوت القطط

السوداء وهى تخمش باب الشقة بأظافرها القوية . همّت بالجلوس على الأريكة، لكنها لمست بجسدها، جسم لدن لإنسان نائم، صرخت فى فزع، تناولت عودًا من الثقاب أشعلت به موقد الكحول القريب، واقتربت من الجسم الغريب. ندت منها شهقة فزع، فلقد كانت هى كما تركتها يوم الحادث، جُثة (حميدة أبو النور) نائمة، والحقنة لم تزل مغروزة فى عنقها، ألجمتها المفاجأة تمامًا، لكنها لم تكن كل المفاجأت، فلقد فتحت حميدة عينها، وجلست وهى تمسك بجسد مشيرة التى احتبس صوتها، جذبتها بقوة من ملابسها وهى تقول لها فى فحيح مُزعج، ولكنتها الصعيدية:

- ولد الحرام، زرعته خايبة

صرخت مشيرة، وحاولت الهرب إلى الباب، لكنها اصطدمت بحسين الذى فتح الباب فى نفس التوقيت، وأضاء الغرفة، فاختفى كل شىء . كان وجهها شاحبًا كالموتى، فاندهش حسين، أول مرة يرى فيها تلك الحية الرقطاء فى حالة خوف، يُخيل إليه من قسوتهاأنها ولدت بلا أعصاب! .

- أيه ؟! مالك، سألها فى دهشة ؟! حكت له ما حدث، وأن جثة أمها كانت تُكلمها منذ قليل، ابتسم فى بلاهة قائلاً:

- أمك ماتت واندفنت من زمان، ده بس من تأثير المورفين، ردت بعصبية وهى تصرخ فى وجهه:

- بقولك شوفتها،وبعدين أنا ماضربتش النهاردة ؟! تنفست قليلًا، ثم قالت فى جدية

- عندى خبر مش كويس . قطب حاجبه فى فزع:

- أبويا جراله حاجة ؟! يبدو أن تأثير المُخدر هو الذى أثر عليه بالفعل؟! قالت له :

- أنت إتجننت يا حسين، الخبر الوحش أنه ما يجرالوش حاجة !!وهو ده اللى حصل

حسين: مش فاهم؟!

مشيرة: أبوك لو فاق، هانتسجن؟

حسين: خلاص .. يفوق، أنا زهقت

مشيرة: لا يا بنى آدم كل اللى عملناه كده هايروح ؟! عمومًا أنا مرتبة كل شىء مع نعمة الممرضة هناك.

حسين: يعنى أيه؟

مشيرة: يعنى سيبنى وأنا هاتصرف.

حسين: تانى الله يخرب بيتك، هو أنتِ ما بتشبعيش دم؟، قالت له فى يأس:

- خلاص الكلام ده فات أوانه .

اليوم التالى .

استيقظ حسين فجرًا على صوت خرير الماء القوى، القادم من الحوض الكبير، وسمع صوت القرآن الكريم قادم من حجرة الشيخ، هز رأسه فى عجب، فلقد أغلق المذياع بنفسه ومع ذلك فالجيران يؤكدون أنهم يسمعونه كل يوم فى نفس التوقيت !!كانت مشيرة لازالت تغط فى نومٍ عميق، بينما انتهت كل حواسه، فلقد تذكر كلامها بالأمس، ما لذى فتح الصنبور وأدار المذياع ؟! نهض من فراشه وسار بحذر عبر الطرقة الطويلة، صدمته رائحة القهوة .ارتعشت قدماه عندما رآها على أريكتها المُفضلة، ماهذا !! فيروز ماتت منذ زمن !! فهل وصلا لمرحلة الجنون !! ومع صوت ابتهالات الفجر الناعمة، من المأذنة القريبة، التفتت إليه فى غضب، قائلة:

- ليه سيبتها تعمل فينا كدة ..طول عمرك ضعيف ؟! وماشى وراء شهواتك،

ياريتك أنت اللى مت مش فُضيل، كانت هيئتها مُخيفة، فالدماء كانت حول فمها، وبطنها المُنتفخة، تتناثر منها الدماء، جعلت حسين يلتصق رعبًا فى الحائط المواجه لها وقد سقط على ركبتيه، وابتل سرواله، وقلبه يكاد يقف وهى تقول له. والدماء تنزف من فمها وبطنها، وعيناها تُشع غضبًا.

- خلاص، اللعنة حلت عليك، ملعونة البطن اللى شالتك ؟؟!!

كان صوت الابتهالات التى تشق السماء تعلو وقرقرة القهوة فوق موقد السبيرتو، تحطم أعصابه أكثر. فارت القهوة، واستمرت فى الفوران، فاكتشف أنها دماء غزيرة أغرقت المكان.

*****

## - 40 -

لقد زارتنى أمى بالأمس كما زارتك أمك ! ردت عليه مُشيرة فى توتر

- ماصدقتنيش لما قلت لك أن أمى زارتنى بالفعل ؟! وكلمتنى

قال حسين فى توتر:

- إزاى، الأموات مايرجعوش للحياة تانى؟ ردت عليه بتلقائية

- ولكن الأشباح ممكن تعمل أكترمن كدة، البيت ده بقى مسكون ! ارتعدت فرائص حسين، وهو يستعيد مشهد أمه التى كانت تنزف منها الدماء حتى قهوتها قد صارت دمًا، رغب بشدة فى حقنة مورفين، تلقى به فى التهلكة! فقال لها فى يأس، مرددًا كلام أمه بالأمس:

- خلاص، إحنا حلت علينا اللعنة، زى ما قالت أمى، كانت مُشيرة تُفكر فى كلامه ؟ يبدو أن كلامه صحيح هذه المرة، فلقد سمعت نفس الكلام من أمها (حميدة أبو النور)، فقالت له فى حزم.

- خلاص نمشى، ونسيب البيت ؟!

حسين –إزاى، وهانروح فين؟

مشيرة: مش مهم، المهم اتفق مع المعلم (حنا) المقاول الراجل طلب شراءه أكترمن مرة، وممكن نطلب منه يوفرلنا سكنًا آخرفى أسرع وقت، وانقل الملكية، لما تخلص من إجراءات الميراث.

حسين: لكن الوالد لسة عايش ! تجاهلت جُملته الأخيرة، وكأنها لم تسمعها، وقالت

- حدد له موعد بكرة، قاطعها صوت القطط المُزعجة التى استوطنت سُلم المنزل، وصارت تتشاجر باستمرار. قالت مُشيرة فى ضجر

- القطط كل يوم تزداد توحشًا ؟! لازم نتخلص منها .ابتسم فى تهكم قائلًا:

- وطبعًا أنتِ أستاذة فى المجال ده ! للمرة الثانية تجاهلت نبرة السخرية فى صوته، وكعادتها فى المواقف الصعبة، كان عقلها يعمل فى صفاء . أخرجت من حقيبتها قفازًا مطاطيًا خفيفًا، ومعه علبة صفراء، صغيرة الحجم، تُشبه علب التحاليل الطبية، ذهبت إلى المطبخ ثُم عادت بقطع من الدجاج، فتحت العلبة، وبدأت فى دس حبيبات السم الخضراء بحرفية شديدة، تحت جلد الدجاج النيئ.

قال لها حسين:

- القطط مش هاتموت بالطريقة دى؟ القطط بتشم السُم، ولها حاسة قوية جدًا، ابتسمت من سذاجته، قائلة:

- مش معايا أنا الكلام ده ؟! وترته نظراتها القاتلة، إنها تعشق القتل، تُمارسه كما يعزف أحد الهواة على آلة الكمان الخاصة به، إنها موهوبة بالفعل! ولكن ما أسوأها من موهبة !!.انطلقت إلى السُلم، جلست على ركبتيها الجميلتين وهى تضع قطع الدجاج المسمومة فى الأركان، وفى أماكن أخرى، اختارتها بعناية شديدة، كانت ترتدى ملابس قصيرة كشفت جمالها الأخاذ، أراد حسين أن يمسك بفرشاته، ويرسمها لوحة الجمال القاتل ؟! كان يتأملها حائرًا، وهى تتفنن فى إيقاع القطط فى فخ الطعام المسموم ! كيف يخرج كل هذا القتل من كل هذا الجمال والأنوثة ؟!.لم تتحرك القطط من أماكنها، بل كانت تنظر

لها شزرًا، وكأنهم يعرفونها جيدًا، ازدردت لُعابها عندما وجدت القطط تنظر لها مليًا فى هدوء، تشعر أنها قد رأت تلك النظرات من قبل، وكأنها تعرفهم من عيونهم سألت نفسها

- هل من الممكن ؟! لكن صوت القوة قد تغلب فى النهاية فقالت:

- ممكن أم غير ممكن، يجب أن أتخلص من تلك الكائنات السخيفة، قبل أن يأتى المقاول غدًا. ابتسمت لهم فى تحدٍ قائلة .

- بالهنا والشفا .

فى الصباح كانت قد اطمأنت بأن جميع القطط قد اختفت، وأن قطع الدجاج قد اختفت أيضًا شعرت بارتياح، فالقطط قد التهمت الدجاج، ورحلت من هنا كى تموت بهدوء! . ذهبت إلى عملها، بينما ظل حسين نائمًا، وعندما عادت فى المساء، كان المعلم حنا يجلس على المقهى فى انتظارها. نهض واقترب منها .

- مساء الخير، أنا مُنتظركم حسب المعاد، مع الأستاذ حسين .

- اتفضل يا معلم، هو فى انتظارك فى البيت. دلفا إلى باب المنزل، وصعدا على السُلم، بدت درجات السُلم كبيرة جدًا ومُتباعدة، شعرا بمشقة رهيبة، على الرغم من أن المنزل فى الدور الثانى فقط، علق المعلم حنا قائلاً:

- أيه ده .. السلم ده غريب ليه كده، أنا طلعته زمان، ما كانش كده.

لم تعقب مُشيرة حتى لا يهرب الزبون . كان الهواء مُعبئًا برائحة كريهة، أرجعتها مُشيرة لقطع الدجاج التى باتت على السلم منذ الأمس، لكنهما وصلا إلى الباب، طرقت الباب، بعدما وصلا إليه بشق الأنفس، ففتح لهما حسين قائلًا بترحاب:

- أهلاً معلم حنا .. اتفضل، بدا كُل شيء هادئ، عاين المعلم حنا المنزل بعينٍ خبيرة وهو يحسب صفقته الرابحة عندما يهدمه، ويبنى مكانه بُرجًا شاهقًا، حاول حنا التفاوض

- المنزل قديم ومتهالك والأرض هتحتاج شغل كتير، ردت عليه مشيرة بجمود.

- مالك انت والبيت، أنت هاتهده وتبنى مكانه برج، صفقة مش هاتتكرر، سمعوا صوت القرآن القادم من غُرفة (عاصم) .سمع حنا لمصدر الصوت ثم قال :

- ممكن أشوف الغرفة دى، أجابته مشيرة فى توتر

- حاضر، حاولوا فتح الباب، لكنهم فشلوا، قال لهم حنا فى ضجر

- القرآن شغال جوا، إزاى مش عارفين تفتحوها !! أجابه حسين فى استخفاف

- الباب قديم، وساعات بيعلق.إيدك معايا نفتحه.عاد الاثنان إلى الخلف، وضربا الباب بكل قوة، فانهار المزلاج، وفُتح الباب. فانقطعت الكهرباء فورًا !!وكأن طاقة من الجحيم فُتحت معه، وقف الثلاثة فى حالة ذهول لعدة ثوانٍ يشاهدون ستة أزواجٍ من العيون الحمراء، تُحدق بهم وتقترب منهم وهى تُصدر زوامًا رهيبًا، صرخت مُشيرة فزعًا، بينما سقط حسين أرضًا، عندما طارت القطط المتوحشة فى اتجاههم، خمشت إحداهن وجه مشيرة، بينما سقطت الأخرى على كرش المعلم حنا فأخذ فى الصراخ:

- يا عذرا يا أم النعم ..غتينى، بينما تجمع عد أكبر فوق جسد حسين الساقط فوق الأرض يحاولون الفتك به، حاول حسين ومشيرة الخروج من الغرفة بصعوبة، بينما اتجه المعلم (حنا) إلى باب الشرفة المفتوحة، لكى يهرب من هذا الجحيم، هرب مسرعًا بجسده السمين إلى الباب، لكنه اكتشف بعد

فوات الأوان، أن الشرفة بلا سور. ليهوى من الدور الثانى إلى الشارع، وهويصرخ صرخة مدوية، وتحطمت عظامه مُحدثة دويًا رهيبًا. تبع سقوطه كمًا كبيرًا من الحجارة، سقطت من البيت من كل اتجاه، وكأن المنزل يقذف الجميع بالحجارة، مُحدثًا حالة من الفوضى العارمة فى الشارع، صوت فرامل السيارات القوية التى تتفادى الارتطام، مع صراخ الناس فى المنطقة

- البيت مسكون ... البيت مسكون

استغل حسين ومشيرة حالة الهياج وهربا من المنطقة بأسرها.

****

## - 41 -

غرفة العناية المركزة –المستشفى العام

وقف الدكتور سامح كبير ألأطباء الشرعين بجوار زوجته الطبيبة (سها ) أمام عاصم المسجى على سريره فى الغرفة . كان الطبيب يتأمله فى ألم والدموع تزور مقلتيه، فُيداريها عن زوجته، وهو يهمس له فى هدوء

- قوم يا عم عاصم، أنت قوى وتحملت الكثير، قوم إحنا لسة محتاجينك.

ربتت سها على يد زوجها فى تعاطف:

- عارفة أنك بتحبه، ولكنها إرادة الله يا سامح تشجع .

سامح :هى حالته مينوس منها؟

سها: حالته ثابتة، مافيش مؤشرات بالتقدم حتى الآن!، لكن فى النهاية، هو أمر الله

- سامح: ونعم بالله، أنا واثق بأن الله هايكتب له الخير، ومش هايتخلى عنه

- عارفة أنك بتحبه جدًا.

سامح: مش لوحدى، المصلحة كلها بتحبه، هو مُختلف بالفعل، الرجل ده، فيه شىء لله !.

سها: إزاى ؟ صمت قليلًا، ثم قال

- اللى هاقوله مالوش تفسير علمى، لكن ثبت لى أنه يتواصل معهم بطريقة ما، يعرفهم ويعرفونه، طبعًا هو لم يبح بالسر ده لحد ولكننى لمسته بنفسى، ابتسمت سها وهى تقول.

- كلكم هذا الرجل، ما حدش فيكم بيبوح بسرعمله أبدًا !!

سامح :دى أمانة عظيمة ورسالة، لكن اللى حصل فى اليوم ده كان شيء له العجب

سها: أيه اللى حصل فى اليوم ده ؟ نظر سامح فى سقف الغرفة، وكأنه يستحضر الحدث.

عثرت سرية من القوات المُسلحة، على جثة مجهولة، تم دفنها فى الصحراء الغربية، كانت تبدو قديمة وملفوفة بعدد كبير من طبقات الكتان، فظلنوا فى بداية الأمر أنها إحدى المومياوات، وأرسلوها إلينا ... وهنا بدأت الأحداث، حيث حملها عاصم ووضعها فى الدرج رقم ٣

*****

# - 42 -

درج رقم ثلاثة.. سليمة حسن رحومة.

انهض يا عم عاصم، هل تتذكرنى، أنا تلك الفتاة البدوية البائسة التى برأتها!! أنا سليمة حسن رحومة . هل تذكر ذلك اليوم، أومأ عاصم لها وهو يتذكر ذلك اليوم العجيب .

لقد وضع تلك الجُثة البائسة فى درج رقم ثلاثة، حتى يأتى الدكتور سامح ليقوم بتشريحها فى الصباح، أنهى مُهمته وأرهقه التعب، جلس تحت الشجرة الوارفة يشرب الشاى ويقرأ القرآن كعادته دومًا بعد إنهاء إجراءات الحفظ . بعد دقائق نام من فرط التعب فوجدها أمامه، تفض ذلك الشريط الكتانى القذر، وتظهر من تحته . كانت صبية مليحة ترتدى زيًّا بدويًا مُزركشًا، ألوانه زاهية، ويُزين ذقنها وشم أخضر خفيف، وفى قدمها اليُمنى خلخال فضى سميك تحته حذاء بلاستيكى أحمر اللون. وقفت تبتسم له، لكنه كان وجلًا من هيئتها الأولى فسألها فى دهشة .

من أنت؟ قالت له بلهجة صحراوية غريبة على أُذنيه

- أنى سليمة حسن رحومة، راعية الغنم

عاصم: أيه اللى حصلك ؟!

- كلام الناس قتلنى ... أنا مظلومة.

عاصم: كيف ؟!

- أبى وإخوتى شكوا فىّ بعدما أطلقت (نسوان النجع) ألسنتها علىّ بكلام سىء، علشان كنت حلوة، وعايقة، لكن عمرى ما عرفت العيب ؟! أخى (جبر) تاوانى فى الصحراء، لكن ليس هذا هو المُهم الآن ؟!

عاصم: ما المهم إذن؟

الفتاة:- خمسة عشرة عامًا وأنا أنام فى قلق، أشعرأن ألسنتهم لازالت تلوكنى بسوء ؟! لقد ساقنى الله إلى هُنا لتُبرئ ساحتى ؟!اهزعاصم رأسه فى حيرة.

- ولكن يابنتى .. من خبرتى لا يمكن إثبات ذلك فى حالتك، فالوفاة حدثت منذ زمنٍ بعيد،ابتسمت فى هدوء

- أعرف هذا، ولكن فقط كل ما أطلبه منك، أن تذهب إلى أهلى وتخبرهم بذلك، لا أحد يعرف بشخصيتى غيرك وغير أهلى، تبدو شخص مؤتمن ؟! اذهب فقط واخبرهم بالقصة، هم سيصدقونك، لأنك لا تكذب .

عاصم : وكيف سيعرفون ذلك .

الفتاة : إن كذبوك فقل لهم إن( البشعة بينى وبينكم بحق الله) !!. كانت الجملة غريبة عليه، أول مرة يسمعها .

- وماذا يعنى هذا؟

- اذهب فقط وقل لهم هذا الكلام ؟!

وفى اليوم التالى، كان الدكتور سامح يقوم بمهمة شاقة داخل حوض التشريح .بينما كان عاصم شاردًا فى مكان آخر، قال الدكتور سامح:

- طلق نارى من خلف الرأس !!مين دى، ومين عمل فيها كدة، كان عاصم شاردًا ويهذى قائلاً:

- سليمة حسن رحومة، من(نجع الجلايلة) فى الصحراء الغربية، قتلها

أخوها( جبر) لشكه فى سلوكها، كان يُذيع الخبر كمذيع، فى نشرة الأخبار ؟!مما أثار دهشة الدكتور سامح ؟!

- أيه ياعم عاصم؟! الشرطة نفسها، لم تستدل على هويتها، كيف عرفت أنت كل ده ؟! قال عاصم فى ثقة :

عاصم: اللى عندى قلته، الفتاة بريئة واتقتلت غدر.

سامح: مستحيل إبلاغ الشرطة بالخرافات دى، دون دليل رسمى، فأنا لست مُتأكدًا، وسأبقى الموضوع كما هو إلى أن يجد جديد .... جثة مجهولة الهوية؟!

عاصم : مش مهم الأوراق الرسمية .. المهم البراءة .أومأ الدكتور سامح برأسه عجبًا من هذا الشخص المجنون !! . سافر عاصم إلى النجع، قطع المسافات الطويلة على الرغم من أعتلال صحته، لم يسمع تحذيرات صديقه الوحيد الأستاذ فؤاد، بأن هؤلاء البدو لا يتهاونون فى مثل تلك الأشياء، وأن فتح ذلك الموضوع قد يجرعليه الكثير من المتاعب.اقترب عاصم من مضارب قومٍ بها عدد قليل من الخيام، مساحة خضراء جميلة، حول نبع ماء صافٍ ترعى به الكثيرمن النوق والأغنام، مناخ صحراوى مثالى لحياة هادئة، بقعة مجهولة بعيدة عن الصخب والتلوث البيئى، وإن كانت غير بعيدة عن تلوث الفكر !!سأل عن الشيخ رحومة، هو شيخ القبيلة، رجلٌ جاوز الثمانين، حوله جلس العديد من الرجال فى خيمة واسعة، يتوسطها مستوقد فحم كبير داخل حفرة، وعليه إناء نحاسى كبير بدا السواد من قاعه، ورائحة القهوة العربية تفوح من المكان بأسره، وبجواره منضدة صفت عليها أطباق التمر. وقف (عاصم) أمام (رحومة) الذى كان ينظر له بكثيرمن الريبة، ووجهه المُتغضن بالتجاعيد، يتفحصه مليًا، فالغريب هنا مُتهم حتى تثبت براءته، دعاه للجلوس وشرب القهوة، ظل عاصم صامتًا وهو يتناول القهوة والتمر، مال إلى الأمام بالقرب من رحومة قائلاً

- أريد الحديث معك بينى وبينك، أشار الشيخ رحومة بعدها بيديه، قائلاً لرجل خمسينى أسمر ضخم الجثة شرس الملامح، لا ينم وجهه عن ذكاء

- يا جبر. فض المجلس؟! كان عاصم يتأماله فى ذهول، لم يعد هناك مجال للشك أن ما رآه أول أمس، ليس بأضغاث أحلام. إنها رسالة حقيقية أرادت تلك المسكينة إيصالها، فجثتها التى تشبه المومياء، موجودة هناك بالمشرحة، وهاهو النجع كما وصفته هى تمامًا، وهاهو (رحومة)، والآن ( جبر) الأخ القاتل ؟! فرغ المجلس فى دقيقة واحدة، وبدت الخيمة خالية. فمال عاصم مرة أخرى فى هدوء وهو يقول.

- عندى رسالة، أردت توصيلها لك، فهى أمانة !

رحومة:رسالة مِنْ مَنْ!! بدا وجه عاصم جامدًا وهو ينظر فى عينيه بقوة قائلاً:

- من سليمة حسن رحومة، تمكن عاصم بعدها من سماع دقات قلب الشيخ رحومة على الرغم من تعابير وجهه المُتجهمة، لكن عاصم الخبير بلغة الأجساد شعر بانهياره .

رحومة: إيش؟ أنا ما عندى بنات بهذا الإسم ؟! لكن عاصم تجاهل كلامه قائلاً .

عاصم: ياشيخ رحومة، أنا مش جهة تحقيق،والحكومة مش هاتاخد بكلامى دون دليل، ولكن الرسالة أمانة، وعلىَ تأديتها مهما كلفنى الأمر! جثة ابنتك الآن فى المشرحة، وتم اكتشافها بعد موتها بخمسة عشرة عامًا.

- رحومة: أنت مجنون ؟! أية جثة واية رسالة، أنا لا أفهم شيئًا. رد عليه عاصم

- بنتك سليمة بريئة من سوء السمعة، و ماتت وهى عذراء ؟! احتقن وجه (رحومة) غضبًا، وظهرت علامات الشر على وجهه، وقال بحدة:

رحومة: وكيف عرفت؟

عاصم: هى خبرتنى!

رحومة: أنت كاذب، ماحدا يعرف بها الموضوع من الأساس، من وين جبت هدا الكلام ؟

عاصم : قلت لك هى أرسلت لى رسالة، وقالت لى أيضًا أن الذى قتلها هو جبر، أوسط إخوتها، لاحظ عاصم فتاة عند البئر تطعم الماعز أمام الخيمة، كانت هى !! فأشار بيده إليها قائلاً

- هذه الفتاة تشبه سليمة تمامًا، تقريبًا أختها .شرد رحومة للحظة، ثم قال

- هى ابنة أختها! ولكن كيف عرفت ملامحها، سليمة ماتت من زمنٍ بعيد، أنا مش فاهم غرضك، وأنا إيش يدرينى أن سليمة بريئة، تذكر عاصم جملتها فقال له.

- أنا صادق و"البشعة بينى وبينكم بحق الله" .قطب رحومة حاجبيه قائلاً:

- كيف عرفت البشعة بحق الله، وأنت لست من البدو!.

- سليمة هى التى طلبت البشعة لتبرئ نفسها. أطرق رحومة برأسه فى دهشة، ثم قام واستدعى كل الرجال وقص عليهم الأمر، وقال لعاصم:

- اليوم نستضيفك وفى المساء سنعقد جلسة البشعة، تحضرها كل القبيلة، وإذا تم تبرئة سليمة، سنكرمك، وننزل ونستلمها من المشرحة، ندفنها فى مضاربنا، وإن كان هناك ملعوب، فلن تخرج من هنا حيًّا!!. جلس عاصم فى خيمته بعض الطعام شعر بتوتر شديد، فما الذى أتى به إلى هنا؟ لقد ورط نفسه، بحرق لسانه بنار مستعرة رهيبة، قد تحرق لسانه، أو تقطعه فلا يتكلم مرة أخرى، كما قال له (فؤاد)، وقد تأتى فى غير صالحه، فيُصاب بأذى، لكنه قال لنفسه مشجعًا .

- لا تخشَ شيئًا يا عاصم، لقد أرسلك الله لتبرئة فتاة مسكينة، فهو لن يضيعك أبدًا .

انعقدت الجلسة فى المساء، كل القبيلة تجلس فى حلقة كبيرة فى الساحة، بينما جلس عاصم على ركبتيه أمام المُبشِع، الذى سخن محماس البن المعدنى لدرجة الإحمرار، كان منظره رهيبًا، لدرجة أن عاصم خاف بشدة من هيئته، إلا أنه تحلى بالثبات من أجل تلك الفتاة المسكينة، أمره المُبشع بإخراج لسانه قبل اللمس للحاضرين ففعل، وبعد ذلك أمره بإخراج لسانه، وقربه من محماس البن المتوهج وهو يقول (بسم الله)، ولمس به لسان عاصم، الذى أغمض عينيه مُستسلمًا هادئًا، فكرر المُبشع هذا العمل ثلاث مرات، وبعدها أعطاه كوبًا من الماء، بصقه على الأرض، ثُم نظر إلى لسان عاصم، والصمت يسود القبيلة بأسرها انتظارًا لحُكم البشعة. كان صوت الرياح قويًا فى الصحراء، عندما تأمل (المُبشع) لسان عاصم ثم قال بصوتٍ مُرتفع، مُفعم بالبهجة:

- الرجل صادق،والفتاة بريئة، تصاعدت الزغاريد فى مضارب القبيلة كلها، بينما جلس عاصم يقول: اللهم لك الحمد.

الدرج الرابع : خضير البطل الضخم، ذو العضلات المفتولة

أحببتك كما لم أحب أبى وأمى، فلقد سترت عيبى، وحافظت على آخر رمق تبقى من كرامتى المُهدرة. كانت الرياضة هى كل مقصدى، أعيش من أجل حلم البطولة، أعمل فى الصباح حدادًا وفى المساء أتدرب بكثافة حتى أصل لمستوى عالى يليق، وأتمكن من شراء اللحوم والبروتينات، كانت حياتى هادئة تسير وفق تخطيط مُنظم، ورغم فقرى إلا أننى لم أسعَ مثل شباب الحارة، وراء جلسات المقاهى، أو مواعدة الفتيات فى الخفاء. كُنت أحلم بالوقوف فوق منصة التتويج فى الأوليمبيات، لم لا، والإسكندرية تحمل تاريخًا مُشرفًا

**لحصد الميداليات الأوليمبية[14]، وبالفعل بدأ إسمى يلمع،بعد حصدى للكثير من البطولات، وأنضمامى لمنتخب المصارعة لكن حظى العاثرألقاها فى طريقى ... (هند) الفاتنة!!. تسكن إحدى الحارات القريبة من سكننا،بيضاء كالقمر، لها خصلات شعر كستنائى لامع، تظهر من تحت حجابها !، ولها جسد خرافى بض، لاحظت أن له قدرة عجيبة على إيقاف حركة الشارع أو إصابتها بالارتباك، بمجرد طلته، وتلك هى بداية المُعاناة! كانت تتهادى كغزال صغيربجوارنبع الماء.**

**جميلة بريئة فى الصباح وهى تسيرمرتدية حجابها فى خجل، لفتت انتباهى، وهى تسير أمام ورشة الحدادة تراقب جسدى القوى النصف عارٍ صيفًا، وأنا أطرق على الحديد أمام الفرن، كانت تنظرلى فى إعجاب وترحل، ومن أول نظرة سقطتُ فى الشرك الذى نصبته لى! لم أكن خبيرًا بالنساء، ولم أعرف منهن سوى أمى، فلقد حمتنى الرياضة من الرذيلة حتى ذلك اليوم الذى رأيتها فيه، وبعدها تغيركل شىء، وشيئًا فشيئًا تخليت عن حلم الرياضة، هربت من معسكر المُنتخب المؤهل للأوليمبياد وتوقفت عن العمل!!، وتعلمت كُل شىء على يديها، وتمنيت أن أمتلكها وأن تصبح لى زوجة !!، بعد أن تأكدت من إحكام الفخ حولى، أخذت تتمنع على وتصدنى، وتتذرع بانشغالها، تطلب منى نقودًا!!! .وقعت أسير هواها، وتتبعت حركة سيرها صباحًا ومساء.**

**وعرفت أن المساء عندها كان له شانٌ آخر!! فهى تعمل راقصة فى أحد المحال الرخيصة فى وسط البلد، واجهتها بالأمر، فاعترفت لى بحبها، واعترفت أيضًا بعدم قدرتها على ترك تلك المهنة، إسطوانة قديمة محفوظة عن الأب الذى ترك لها تسعة أشقاء يعيشون جميعهم فى جُحر، وأم مريضة بالشلل ؟!لم أتمكن من مقاومتها وسرت وراءها مُغيبًا، وعملت عندها حارسًا عرفت الخمر**

---

14) ويذكر ان مدينة الإسكندرية كان لها نصيب الأسد فى الميداليات الأوليمبية التى حصلت عليها مصر حتى الآن حيث نجح أبطالها فى الحصول على 13 ميدالية من أصل 25 حتى الآن أى أكثر من نصف ما حصدته مصر من ميداليات، كما حظيت ب- خمس ميداليات ذهبية من أصل سبع ميداليات حصلت عليها مصر فى الأوليمبياد .

والمخدرات !! وسرت فى طريق اللاعودة، حتى ذاع صيتها، وانتقلت إلى أحد المحال الفاخرة، وعملت بالسينما، صارت تعاملنى كالحشرة، تُهيننى وأحياناً تضربنى! وأنا خانع مُستسلم !، إلى أن جاء ذلك اليوم المشئوم، ورأيت ذلك اللعين فى الصالة وهو يلقى بشباكه عليها، كان صديقى لكنه عاد من الخليج غنيًا يلعب بالنقود ! خرج معها من الملهى، وركبا السيارة الفاخرة، حاولت الركوب معها فرفضت ونهرتنى، بينما ذلك الحقير، ينظر لى ضاحكًا باستخفاف،هربا بالسيارة، كنت أعلم المكان الذى تقصده لقضاء الليلة،تلك الشقة المُطلة على البحر، والتى اشتراها لها أحد الأثرياء العرب . قررت يومها أن أنهى كُل شىء، انتظرتهما مُتخفيًا أمام العمارة، وبمجرد نزولهما من المبنى، أطلقت عليهما النار، فقتلتهما. طاردنى بعض المارة، وشرطيًا من حراسة أحد البنوك القريبة، حاولت عبور الكورنيش، دهستنى سيارة مسرعة، لتنهى معاناتى وحكايتى. لم يُكرمنى أحد فى حياتى مثلما أكرمتنى، لم أنس إشفاقك عليّ، وطردك للصحفين، من حول المكان، الآن تذكرتنى الصحافة؟! بمانشيت ساخن «نهاية المُصارع القاتل»، آه لو تعلم الناس تلك الكلمة التى لقنتها لى: (الستر)، تلك الكلمة السحرية التى لوكنت عرفت قيمتها فى حياتى لما كنت وصلت لهذا المصير، ولما فضح الناس بعضهم بعضًا؛ ابتغاء لمنصب زائل، أو حفنة من النقود، رأيتك وأنت تصرخ فى وجه الصحفين، بتركى وشأنى، حتى أظل البطل المُحترم فى عيون الناس، وانصرفوا دون أن يحصلوا منك على كلمة! أعلم أنك قد رأيت أماكن غرز الحقن فى ذراعى، ورأيت كل الأذى الذى أحدثته فى جسدى، ومر الأمر بسلام!! لذلك أبدًا لن أوفيك حقك !!

****

# - 43 -

**درج ٥... أماليا**

**إن الليل والنهار، يعملان فيك، فاعمل فيهما، ويأخذان منك، فخذ منهما ..الخليفة عمربن عبد العزيزرضى الله عنه**

**جريدة أخبار اليوم ... العثور على جثة سيدة أجنبية مُسنة داخل شقتها بالإسكندرية.**

**هذا وقد تبين أن السيدة العجوز من الطائفة الأرمنية، وكانت مالكة سابقة لحانة (سبيت فاير) الشهيرة، وتُدعى( أماليا بابادوبلس)، وكعادته كل مساء، تسلم عاصم الوارد الجديد من صديقه (عبودة) التمرجى الخائف دومًا، وضعها على الترولى، قرأ اسمها فى الورقة التى سلمها له (عبودة)، جلس بجوار الترولى فى الحديقة فى حزن، كشف وجهها قبل أن ينادى على الحاجة (عائشة) المسئولة عن النساء، وبعدها توقف كل شىء، ما الذى تفعله بنا الأيام! إنها تقضى علينا كما يقضى النمل الأبيض على الأشجار الضخمة، دقيقة بعد دقيقة وساعة بعد ساعة، ثم ينتهى كل شىء ولايبقى سوى شىء واحد .. قلبٌ سليم، هل هذه هى أماليا الفراشة الراقصة ؟ لم يبق لها شىء سوى مشاعرها الطيبة الفياضة، لم تكن مجرد جسدًا جميلًا، بل كانت روحًا طيبة مُحلقة فى الفضاء، كانت أُختًا وأحيانًا أُمًا للجميع داخل ( سبيت فاير)، لذلك أحبها وتزوجها، ثم تركها بعد موت ابنه دون سابق إنذار، كانت تواسى البحارة، وتقرضهم المال، وترسل الرسائل لحبيباتهن نيابةً عنهم، عندما يتعذرعليهم ذلك، أو تحتفظ برسائلهم**

حينما يعودون، كانت تعرفهم واحدًا واحدًا، وتشاركهم قصصهم الشيقة، هذه قبعة "جونى" البحار الإيطالى المجنون، مات فى الحرب العالمية الثانية ودُفن فى مقابر الحلفاء والمحور بالصحراء الغربية فى مصر. وهذا غليون " باندرياس " البحار اليونانى العجوز الذى مات وهويحاول إنقاذ ركاب السفينة التجارية قبل أن تغرق، وهذه عصاة "عبدون" الملاح النوبى الشاب صاحب الصوت النحاسى الرائع الذى هام فى البحر بعدما تخلت حبيبته عنه !!وهذا "مارك "الذى صار تاجرًا كبيرًا فى فرنسا، والكثيرمنهم !! جلس بجوارها والدموع فى عينيه، لقد كانت تحبه بصدق، ولذلك رفضت أن تترك الدنيا دون وداعه.

الدرج السادس :العابد

العثورعلى جثة رجل سبعينى، مصابة بعدة إصابات فى الجسد .

اقترب الدكتورسامح من ذلك الرجل العملاق أبيض البشرة نضر الوجه ذى اللحية البيضاء المُشذبة، كان عاصم يقف خلفه، مد يده بالمشرط ليحدث جرحًا طوليًا باليد، لكن المشرط سقط من يده أكثرمن أربع مرات، مما أصاب الدكتور سامح بارتباك شديد. استخدم مشرط أكبر، وبمجرد أن قربه من جسد الشيخ الذى أمامه حتى انغرز فى إصبعه، وصرخ الطبيب بشدة، وقبل أن يضمد له زميله الجرح، زلزل المبنى، انفجار مدوى، ورائحة حريق حيث احترق المحول الروسى الكبيرفى الحديقة، هرول الجميع لمحاولة، تفادى الكارثة فى الحديقة، لكنهم سمعوا صرخة مدوية من(عطيات الدبدوبة) الممرضة التى انكسرت ساقها الغليظة، أثناء انزلاقها على أرضية المشرحة، خرج الجميع مشغولين بما حدث لهم من إصابات ولم يقترب أحدٌ من جسده، انتهى رجال الإطفاء من إخماد الحريق، وعاد الهدوء إلى المكان، تركوه وحيدًا، ونائماً فى سلام فوق المنضدة الكبيرة، بينما عاصم يقف مشدوهًا أمامه، رأى بالقرب منه على الطاولة كتابًا أسود كبيرًا، وقف مُبتسمًا فى فرح!! عملاق يقترب طوله من

المترين !! لحيته بيضاء، وشعره ناعم وعينيه خضراوين، وكأن مصابيح إستاد الإسكندرية قد ضربت فى وجهه، من فرط النور، كان مُبتسمًا ورائقًا وكأنه ذاهب إلى نُزهة. جلس عاصم أمامه فى فرح يهمس وعينيه على اتساعها:

- المؤمنون ...أولياء الله، قال له الشيخ هريدى معلمه، الذى كان يعمل قبله هنا.

- دول هاتحس بيهم بقلبك، وهاتعرفهم على طول، لكن إياك ثم إياك إهانتهم. لذلك ابتسم عندما رأى الجميع يفرون من أمامه . اقترب من إذنه فى احترام قائلاً:

- عملت أيه علشان توصل لهناك يا مولانا !! دلنى .. أنا تايه ومش لاقى الطريق قلب كفيه، ليجد ذلك الوشم الرهيب ينظر له!!، أسد ضخم له عينان قويتان . لا ينساهما أبدًا، أخذته غفوة على الأريكة الخشبية، بعدما أودعه الثلاجة، ليجده يقف فى مكان فسيح، يُشبه مدرج الطائرات، كان يقف فى سعادة، ويشير إلى مركبة، ظلت تقترب من المدرج حتى توقفت، ما كل هذه الروعة، تبدو كطبق طائر بلورى يخطف البصر، كان واسعًا جدًا وكأنه كون فسيح، به مقاعد وثيرة، وخُضرة، وماء رقراق به وجوه فرحة، وعيون ضاحكة، لايكسوها شقاء، ولايعلوها اكتئاب. وقف ثابتًا عندما مُد له سلم، فصعد عليه بثبات. فرح عاصم، واقترب هو الآخر ليركب معه، ومد ساقه على السلم، إلا أن الدرج ظل يبتعد، وجده عاليًا جدًا، لم يتمكن من الارتقاء درجة واحدة! بينما الوجوه الفرحة، تنظر له فى إشفاق، وتشجعه .

- لا تحزن، يومًا ما سترتقى، كل له مكانته ورزقه انطلق بهم الطبق وهم يمرحون كأطفال فى رحلة مدرسية. نهض عاصم من فوق أريكته باكيًا بحسرة قائلًا، حيا الرجل باحترام وأودعه درج رقم ستة . وهو يقول لنفسه

- ياه .. أنا لسة بعيد قوى!! لكن الدهشة أصابته عندما وجد الكتاب قريبًا منه، فهو لا يعرف من أين أتى ولا كيف أتى، وكأن الرجل قد تركه ليدُله على الطريق لا يفارقه أبدًا مع مصحفه الصغير.

فرغ قلبك من الأغيار، يملأه بالمعارف والأسرار... ابن عطاء الله

- كيف حالك يا عاصم، فزع عاصم وهو يراه واقفًا أمامه مُبتسماً، ويناديه باسمه . لم يتكلم

- ألا زلت تبحث عن الطريق، ابتسم عاصم قائلاً

- نعم .

- إن شاء الله تسير فى الطريق الصحيح، تلفت حول عاصم فى هدوء وقال له وهو يشير بأصبعه حول دائرة:

- مُنذ متى وهم يطوفون معك، قطب عاصم حاجبيه فى دهشة قائلاً

- ماذا تقصد، ابتسم الرجل فى قوة، وهو يقول:

- أنت تعلم، ماذا أقصد جيدًا، سأقول لك أنا:

- مُنذ خمسة عشر عاماً، مُنذ أن فقدت ابنك فضيل وغسلته بيديك، وتعلمت مهنتك من الشيخ (هريدى)، يا(كاتم السر)، لا أحد يعرف هذه الكُنية غير (الشيخ هريدى) والذى كان يكنيه بها. مسح الرجل بيديه البيضاء على صدره قائلاً:

- كم سترت أجسادًا، و أخفيت عيوبًا، وصبرت على فراق أحب أبنائك، حولت وجعك إلى خير للجميع، فسيؤتيك الله من فضله بإذنه.

بكى عاصم فى تأثر، لقد عانى كثيرًا بالفعل ولكن الله كريم .

- من أنت قالها عاصم فى فضول لكن الرجل تجاهل سؤاله .وقال له

- ابنك فُضيل، يُسلم عليك، اندهش كثيرًا قالا

- كيف عرفت

- لاتندهش يا (كاتم السر)، كُل شيء وله أسراره، اذهب إلى مسجد العابد، اقترب واحضر الذكر مع الرجال، في غُرة الشهر العربي، فهم في انتظارك.

- اذهب إلى هناك، سوف تعرفني جيدًا!! لكنك الآن يجب أن تعود بإذن الله. تجمع أصدقاءه، ووضعوا يدهم على صدره، وكأن صاعقًا كهربيًا ضربه وهم يكلمونه، كانت سليمة تمسك بيده وهو في الغيبوبة انهض يا عم عاصم ... سترك الله في الدنيا والآخرة كما سترتني، انهض ياعاصم فلازال الرجال في الحضرة يتظرونك، كان فضيل مبتسمًا وهو يعطيه ذلك الشراب حلو المذاق قائلًا، اشرب يا أبي تبرأ من مرضك بإذن الله. بينما فيروز تقف بجواره تدفعه، وخضير الضخم يدفعه في صدره انهض يا عاصم فلم يحن الوقت بعد ففتح عينيه بقوة .!!

هم سامح بمغادرة الغرفة بينما سها تتابع بعض الحالات، رأته يحرك ذراعيه ويفتح عينيه، فهرولت مبتسمة وهي تنادي على الدكتور سامح :

- تعالى يا دكتور سامح، مساعدك بيتحسن .عاد مرة أُخرى ليجده فاتحًا عينيه، والطبيبة تزيل جهاز التنفس الصناعي من على وجهه .

اقترب منه قائلًا:

- حمد الله على السلامة يا عم عاصم .. لقد نجاك الله . أومأ عاصم برأسه في وهن وهو يقول بصوت ضعيف :

- الحمد لله، أشار للدكتور سامح أن يقترب فاقترب منه، همس له بشيء بدت الجدية على وجه الطبيب

- كده، طيب أنا هاتصرف.

****

## - 44 -

مُنذ هروبهم من ٢ حارة الغول، وانتقالهم إلى منزل حميدة أبو النور، وحسين لا يكاد يخرج من غرفته إلا نادرًا، بدا أشعثًا، مُهملاً لنفسه بشكل مقزز، لا يكاد يفيق من المخدرات، حتى يطلب جرعة أخرى ينفصل بها عن الحياة مُجددًا، وكانه يعيش على هامشها، عكس مشيرة التى تجاوزت ذلك الحادث المُروع بكل هدوء، تتمتع بصلابة غريبة أحيانًا ما يحسدها عليها، فلو كان قويًا من البداية، لما انحدرت حياته بهذا الشكل، كان يُمكنه أن يكون إنسانًا آخر.. لكن لا فائدة الآن فكل شىء يسيرمن سىء إلى أسوأ، فهذا هو قانون الطريق؟، فالطريق المُستقيم دائمًا ما يسير بك من ضيق إلى أوسع، أما الطرق المُعوجة، فغالبأ ما تنحدر بك إلى طُرق أكثر اعوجاجًا حتى تقذف بك إلى هوةٍ سحيقة .

كان نائمًا عندما اندفعت مُشيرة كالإعصار، وهى توقظه بقوة.

- إصحى يا حسين ...مصيبة. فتح حسين عينيه بسرعة وهو يتأفف.

حسين: فيه أيه ؟!

مشيرة: أبوك فاق النهاردة الصبح ... وطلب الشرطة علشان عنده اعترافات مُهمة، لسة نعمة المُمرضة مبلغانى !! بدا مُتبلدًا ولم يهتم وهو يحملق فى سقف الغرفة

- مش مهم !!

- إزاى مش مهم ؟! كدة هانضيع. خلاص السفر الأسبوع الجاى، حياة جديدة ودنيا جديدة . بدا مُخدرًا وهو ينظر لها باحتقار

ثم يعود ويُحملق فى سقف الغُرفة. وهو يهذى:

- نضيع، إحنا ضعنا خلاص ! وحياة أيه اللى هنبنها على دم أعزناس لينا!.. ربنا ينتقم منك .

- أنا مش هاضيع كل ده علشان غبائك، أنا هاتصرف بالليل قبل ما يجى الظابط الصبح

حسين: يعنى أيه .

مشيرة: يعنى اتفقت خلاص مع نعمة، إنها هاتسيبنى بالليل أتصرف، وهاتاخد مبلغ محترم، وبعدين نسافر برا نبدأ حياة جديدة .

كانت تحدثه عن الحياة الجديدة، ونقود الخليج التى ستنهمر عليهم، وهى ترتدى ملابسها لتقابل نعمة، حتى ترتب لجريمة المساء، ارتدت خاتمها الفضى،الذى لاتخلعه من يدها، وكعادتها تأنقت كثيرًا، وكأنها تستعد لمقابلة غرامية، لا لُتدبر جريمة قتل جديدة !! ظل صامتًا بينما هى تتحدث فى هدوء، سمعت صوتًا معدنيًا خلفها، وبشىء يمر بخفة شديدة فوق رقبتها، كان حسين قد سحب مديته بسرعة خاطفة، ومررها ببراعة على رقبتها من الخلف، ثم أعادها إلى جيبه فى ثانيتين التفت له فى ذهول، عندما انفجرت الدماء من رقبتها وهى تصرخ .

- غدرت يا بن الكلب، أنا هاقتلك، تفادى ضرباتها الشرسة، حتى خارت قواها، نظر لها فى حسرة وهو يقول :

- أنت بالفعل قتلتينى، قتلتينى ألف مرة ..خلاص كل شىء راح .. كل شىء راح . أخذ يضحك بشدة ثم خرج إلى الشارع، وملابسه مُلطخة بالدماء، وهو يهذى قائلاً:

- خلاص كل شيء راح ؟! لاحظه عدد من المارة، بهيئته الغريبة وقميصه الملوث بالدم، لكن الأمر لم يفت على سيارة الدورية الراكبة التي مرت بجواره بالصدفة، حيث تجاوزته قليلاً، ثُم عادت مُسرعة، بينما كان هو يسير مُرتعدًا، وإمارات اللوثة بادية عليه! نزل من السيارة ثلاثة رجال أشداء، يرتدون ملابس مدنية، دفعوه إلى الحائط بسرعة، وكبلوا يديه خلفه، وهو يبتسم دون مقاومة قائلاً

- خلاص كل شيء ضاع... كل شيء ضاع

*****

## - 45 -

مشروع تطوير المحجر القديم

كانت أدوات الحفر تعمل بقوة فى أرض المحجر، والعمال مُنهمكون فى الحفر، ضرب أحدهم الأرض بفأسه، لكن الفأس توقفت! يبدو أن هناك حجرًا كبيرًا تحته ! انحنى العامل ليُزيح الحجر، إلا أنه صرخ فى رُعب.

- أعوذ بالله ..قتيل قتيل، هرول العمال فى فزع ليجدو هيكلاً عظميًا ضخمًا، وعلى الجانب الآخر من المحجر، وجدوا حقيبة كبيرة حمراء اللون ...دقائق وانتشرت الشُرطة فى كل مكان، والكلاب البوليسية الضخمة تبحث عن جُثث أُخرى بينما، وقف المُقدم (طارق الأغا ) رئيس مباحث القسم ومعه مُساعده النقيب (على السليتى)، أمام الهيكل العظمى المُغطى بقماشة بيضاء اللون، والذى تجمهر حوله عشرات الأهالى والعُمال، وأمامهم الحقيبة االحمراء الكبيرة . أخذ على السليتى يُقلبها يمينًا ويسارًا، لعل بها ما يُفيد فى عملية البحث، لكن الحقيبة كانت فارغة تمامًا وليس بها أى شىء .قال النقيب على لرئيسه.

- الجثة بقالها سنة تقريبًا، وكل شىء اختفى بسبب الجير، الموضوع شكله صَعب ابتسم طارق المُحنك قائلاً

- كُل شىء فى أوله صعب، لكن القاعدة الأساسية التى تعلمتها، أن كُل جريمة، تُشير فى النهاية إلى مرتكبها فما تستعجلش!. وأيه هى تقديراتك المبدأية؟

على: ممكن تكون نتيجة ثأر، أو مشاجرة بين أشقياء.

طارق: الخطأ التانى ياعلى، الشنطة هنا بتعمل أيه؟ الراجل ده ماتقتلش هنا !! حك على أنفه فى خُذلان، دائماً ما يُظهر أستاذه تفوقًا عليه فأومأ قليلاً:

على: معك حق يا فندم، الجريمة تمت فى مكان ما وتم دفن الجُثة هُنا، وغالباً ما تم استخدام الحقيبة فى نقلها إلى هنا، كان طارق قد وضع الحقيبة على ظهر سيارة الشُرطة البيجو، واستخدم كشافًا قويًا وهو يفحص كُل جزء فيها بدقة، أشار إليها وهو يقول لعلى

- البداية من هنا، شعر بإحباط شديد فلم يكن بها شىء على الإطلاق !! قام بمحاولة أخيرة، قبل أن يُرسلها إلى المعمل الجنائى، وضع يده على بطاناتها الحمراء المُطرزة من قُماش (الستان)، توقفت يده تحت شىء بارز صغير، ما بين البطانة والجلد، مد يده فى الجيب السرى الذى قلب فيه مئات المرات، ثُقب صغير مرر ذلك الشىء إلى بطانة الحقيبة، مد يده بمقص خفيف وسع الفتحة وغاص بأصابعه خلف الشىء، وخرج به، ورقة حكومية وردية مبرومة، بدت كإيصال، أو تعريفة مرور، فتحها فى شغف تحت الكشاف القوى، وإبتسم لعلى وهو يقرأ الورقة القديمة البالية التى طويت بعناية :

- منفذ السلوم البرى ....

الاسم : سبع الليل على مناع ١٢ ش راغب محطة مصر (منزل لمعى).

انتشر رجال المباحث فوق سطح العقار، يبحثون عن أى خيط يدلهم على مقتل سبع الليل مناع، تفحص المُقدم طارق المكان جيدًا، بدت الغُرفة موصدة فاستدعى صاحبة المنزل، حتى يتمكن من فتحها.انتبه إلى ذلك البُرج الأخضر الكبير ذى السلالم الحديدية ، بينما جاءت مدام أزهار زوجة (لمعى)، وهى فزعة من استدعائهم لها . سألها المقدم طارق وهو يتفحصها بحُكم عمله قائلاً:

- فين صاحب البيت يا مدام، ردت عليه وهى تبكى بصوت عال يحمل الكثير من التصنع .

- مات يا سعادة البيه .. وأنا مراته

طارق : طيب فين أسرة سبع الليل مناع؟!

أزهار: هو اختفى من سنة تقريبًا، و(حميدة أبو النور) مراته ماتت من شهور، وساكن في الغرفة دلوقتى بنتها ( مُشيرة) وزوجها حسين بعد ما بيتهم اتهد .

طارق: طيب .هما فين؟

أزهار: الله أعلم . لكن مفيش حد، شكلهم خرجوا. انتبه طارق لذلك البُرج الأخضر ذى السلالم الحديدية القوية، ودون تردد صعد إلى البُرج الأخضر، أ صابه الذهول من هول ما رأى !! بواجير جاز قديمة، ومجموعة من الأوانى النحاسية التى تسخدم فى غسيل الملابس فى المناطق الشعبية والملوثة بالدماء، جُثث مُحنطة لحيوانات، كلاب مُخيفة، وقطط وفئران وقنافذ، مشارط، وسكاكين من كل الأحجام ومناشير.. كتم طارق أنفاسه، وتهيجت معدته،

- ماهذا الجنون !!، إنها سلخانة، سلخانة كاملة، لقتل وتوضيب الضحايا، و أى نوع من الضحايا، بشرًا كانوا، أم حيوانات، فلا فرق، هناك قاتل طليق يستعذب القتل ويرى فيه حياة . نزل من فوق السلم الخشبى وهو فى حالة استنفار شديدة، فوجه سؤاله لأزهار

- عشة الحمام دى بتاعة مين، ومين بيخزن فيها الحاجات دى ؟

أزهار: دى بتاعة حميدة أبو النور،وجوزها (سبع الليل) هما اللى كانوا بيربوا فيها الحمام، وبيخزنوا فيها أدوات الغسيل . حميدة كانت بتغسل الهدوم للناس، واحنا كنا بنسيها تسترزق ! هو فيه حاجة يابيه، لم يهتم طارق بالإجابة على سؤالها وإنما سألها وعقله يعمل فى مكانٍ آخر، ويمسك بجهاز اللاسلكى وهو يسألها:

اسمها مشيرة أيه؟

- مش عارفة والله يابيه، لكن أبوها كان اسمه الحاج نبيل. قاطعها طارق وهويتحدث فى اللاسلكى لمساعده على السليتى آمرًا بلهجة عسكرية

- النقيب على السليتى ... النقيب على السليتى

على : أوامرك يافندم

طارق : المحضر اللى قدمه الراجل المريض فى المستشفى العام أمس، كان بيتهم مين بالقتل

على: واحدة اسمها مشيرة نبيل درويش ؟! وزوجها حسين وهو ابنه، واحنا بدأنا التحقيقات

طارق : طيب هاتلى صورة من المحضر، وتعالى فورًا، فيه مُصيبة هنا!!

على : تمام سعادتك يا باشا.

نظر طارق إلى غُرفة حميدة المُغلقة، شعر بأنها تحمل بين جنباتها أسرارًا، أخرج من جيبه ورقة أعطاها لأزهار قائلاً :

- هانكسر الباب، فأومأت أزهار برأسها فى رعب. ليعطى أمرًا لرجاله قائلاً

- اكسروا الباب!

ثوانٍ، وانهار المزلاج الصدئ من قوة ضربات الرجال، الذين انتشروا فى الغرفة بطريقة منظمة وخبيرة، ولدهشة الجميع، وجدوا بركة من الدماء، ومشيرة مسجية على الأرض، اقترب أحدهم من وجهها قائلاً

- دى بترمش يا فندم .. لسة صاحية، استند طارق على ركبتيه فى لهفة، ووضع رأسه على صدرها، كان نبضها ضعيفاً، فهرول سريعًا مُستدعيًا سيارة الإسعاف.

****

## - 46 -

شهر كامل بعد الحادث... غرفة بيضاء

أفاقت مشيرة، نظرت حولها فانتبهت إلى أنها ترتدى ملابس بيضاء، وعليها بطانية رمادية أميرية، وحول رقبتها الكثيرمن الضمادات والدعامات، لقد تذكرت، فالحقير حسين ذبحها، ولاتدرى لماذا لم تمت، إن الموت أهون؟! فهى الآن فى قبضتهم، حاولت أن تنادى أحدًا، لكن صوتها لم يخرج، حاوت مرارًا وتكرارًا، لكن فمها كان يتحرك دون أى صوت يخرج منه. انتبهت لذلك الزر الأبيض المُعلق بالقرب منها، ضغطت عليه، فجاءتها على الفور فتاة عشرينية جميلة ترتدى ملابس وردية. انتبهت لها وهى تقول :

- حمد الله على سلامتك . أشارت لها، تطلب كوبًا من الماء، عادت الفتاة وقدمت لها الكوب، وهى تنظر لها بابتسامة مُغلفة، لم ترتح لها مُشيرة، عندما لاحظت تلك الأشرطة الأميرية التى تُعلقها على ذراعها الأيمن، كما انتبهت لذلك الصفد الأميرى الذى يُكبل معصمها فى رأس السرير الإيديال . إذن هى فى السجن، أو مُستشفى تابع له. كانت الغرفة هادئة تمامًا، فسمعتها وهى تتحدث فى التليفون قائلة:

- ألو . هنا المستشفى يا فندم .صمتت قليلاً وهى تقول :

- الحالة اللى فى غرفة ٢٢ فاقت يا فندم . صمتت قليلاً وهى تستمع إلى عدد من الأوامر. قالت بعدها:

- التاسعة صباحًا، تمام يا فندم. نظرت مُشيرة فى السقف، إنها تستدعيهم، لقد حانت لحظتها، كانت هادئة وهى تضغط على الزر الأبيض، طلبت قلمًا وأوراقًا . كانت الساعة تُشير إلى التاسعة مساء والغرفة خالية، قالت لها الممرضة بعدما أحضرت لها الأوراق والقلم:

- أنا هنا جنبك، إذا احتجتِ أى شىء، فاضغطى على الزر، سمعت صوت ذلك العسكرى الذى يجلس على كرسى خشبى أمام غرفتها مباشرة .هدأت الغرفة تمامًا ظلت تنظر مليًا إلى الخاتم العقيق الأخضر، من حسن حظها أنه ظل ملتصقًا بها، ولم يخلعوه عنها، نظرت له فى فرح، وهى تكلمه:

- كنت عارفة إن هايجى يوم واحتاجك فيه، أنت المنقذ والخلاص! أدارت رأس الخاتم برفق حتى خرج رويدًا رويدًا، وانفصل عن تجويف الخاتم، واستقر تحته مسحوق خشن قليلاً يحوى بلورات خضراء زاهية اللون. نظرت لها وهى تبتسم، ولونها الأخضر ينعكس على وجهها مع الإضاءة الخافتة للغرفة، تلمست حبيباتها فى سعادة، وكأنها تتقرب من حبيب، همست باسمه فى حنان

- الغصن الأخضر، حلال المشاكل، راحة المتعبين، والبوابة الخضراء للسعادة الأبدية، إذا كان بهذا البلد إنصاف، لحصلت على وسام وبراءة الاختراع ؟! قبلت الخاتم فى تقديس وسحبت كوب الماء من فوق المنضدة، سكبت حبيبات الكرستال الخضراء فى الكوب، فأحدثت فورانًا قويًا، ورائحة ذكية، تشبه الفواكه، تذوقته بتلذذ من يشرب مشروبًا مُنعشًا فى إحدى ليالى الصيف الحارة . جلست مُسترخية تمامًا، ثم مدت يدها وأخذت تكتب وتكتب حتى أفرغت كل ما فى رأسها، خطت ثلاثة خطوط تحت ما كتبت ثم وضعت فوقها الخاتم. وأغمضت عينيها فى راحة .

صباح اليوم التالى ....الساعة التاسعة صباحًا .

خطوات ثقيلة لمجموعة من العسكرين يتوسطهم شخص يرتدى بذلة

مدنية أنيقة كاملة وبجواره المقدم طارق الأغا، اقتربوا من الباب، فنهض الجندى فى احترام مؤديًا التحية العسكرية .استقبلتهم الشاويش (ياسمين) المرضة المشرفة على الغرفة ٢٢، فسألها المقدم طارق

- كل شىء جاهزيا ياسمين

ياسمين: جاهز سعادتك يا فندم .

طارق: هى صاحية؟

ياسمين: صاحية من ساعتين وفطرت. فتحت الباب، فوجدت كل شىء كما هو لكنها كانت نائمة، وقف الرجال حولها نصف دائرة وياسمين توقظها.

- إصحى يا مشيرة، الهوات جاين ياخدوا منك كلمتين، كانت مشيرة نائمة فى هدوء ولم تستجب لنداءات ياسمين، حاولت معها تكرارًا، ثم قالت للمقدم طارق الذى كسا الإحباط وجهه .

- إلحق يا باشا دى مش بترد ؟!

- اقترب وكيل النيابة منها، ولحق به الأطباء، إلى أن قال أحد الأطباء.

- دى ماتت.

لا حظ وكيل النيابة تلك الأوراق والخاتم، فأخذها، وأمر إيداع الجثة المشرحة الأميرية، لتشريحها وإرسال تقرير بالوفاة .

****

## - 47 -

يوم الخميس الموافق ٢٩ ديسمبر عام ٢٠٠٠م

أعلم أنكم بحثتم عنى كثيرًا، لكن هذا هو اختيارى فأنا من سلالة العظماء، أنثى العقرب الشرسة، التلميذة النجيبة لجوليا توفانا(١٥)، أشهر صانعة سموم فى التاريخ!! فلا يمكن أن أموت كفأر فى مصيدة، لقد اخترت بوابتى الملكية للعبور إلى العالم الآخر، لقد قررت الموت على الطريقة الملكية، طريقتى التى أعدت لها نفسى منذ زمن، لا طريقتكم. لقد فعلت كل تلك الجرائم عن اقتناع، الحياة قاسية، ولا تقدم لأمثالنا من الفقراء الذين يعيشون معظم حياتهم، فوق أسطح العمارات، أو فى أسفلها، أماكن قذرة، رطبة، لايدخلها شمس أو هواء، لا نملك الكثير من الخيارات الجيدة، كل الخيارات المُتاحة الكئيبة تكون من نصيبنا نحن، فالحياة درجات، والأغبياء والضعفاء فقط هم من يكون مصيرهم بأيدى غيرهم، أما أنا فلا؟!!

أنا اخترت المجد، كنت أحب العلم، لكن ظروف فقرى هيأت لى دراسة التمريض فقط! ولكننى برعت فيه لأقصى حد، كنت أهوى قراءة كتب الطب والصيدلة والكيمياء، صرت أقوى من أى خبير سموم دون مبالغة، فأنا أحب هذه الهواية وأمارسها بحب منذ أن كنت طفلة فى العاشرة، واغتصبنى (لمعى) الحقير صاحب المنزل الذى كنا نعيش فيه أنا وأمى، فقررت الانتقام يومها،

---

15) جوليا توفانا، صانعة سموم إيطالية اشتهرت ببيع سم "أكوا توفانا" الذي ابتكرته وسمي باسمها للنساء اللاتي يرغبن في قتل أزواجهن ولتعدم على الكرسي الرسولي بأمر من البابا بالدولة البابوية في شهر يوليو عام ١٦٥٩م.

وكشفت من قدراتى، وبحثت عن طريقة مناسبة للانتقام إلى أن وقع فى يدى كتابًا قديمًا ابتعته بخمسة قروش من شارع النبى دانيل معقل الكتب القديمة، إنه كتاب عن سيدة إيطالية - تدعى جوليا توفانا، أشهر صانعة سموم فى القرن السابع عشر. قتلت زوجها بالسم، ثم قتلت أكثر من ستمائة زوج بالسموم المبتكرة التى باعتها للزوجات، وحاكمتها الكنيسة وقامت بحرقها، أعجبتنى قصتها، بل عشقتها بجنون!! وصرت أتعلم كل يوم حتى توصلت لتركيبتى الخاصة، والتى لا تترك أثرًا!!! استخدمتها كثيرًا لحل مشاكلنا أنا وحسين زوجى ومساعدى فى جميع الجرائم!!، لم نكن نرغب فى قتل أحد من البشر فى البداية، وكنت مُكتفيةً، بهوايتى فى تصنيع ومزج السموم واستخدامها على الحيوانات، إلى أن جاء اليوم المشئوم الذى حاول فيه سبع الليل اغتصابى وأنا نائمة، حاولت التخلص منه بأية طريقة، فلم أتمكن، قتلته بسكين الفاكهة الموجودة على المنضدة، وأجهزت عليه، وقمنا بالتخلص من جثته، أنا وحسين فى أرض المحجر القديم، ثم بعد ذلك جاءت أمى (حميدة ابو النور) وهددتنى، فلقد رأت كل شىء، وهى تختبئ فى البرج الأخضر!، تحينت الفرصة، تركتها نائمة وغرزت برقبتها الحقنة المسمومة، وماتت دون أثر، ثم تخلصنا به من ( لمعى عبد العاطى) تاجر الغلال، ذلك الحيوان القذر الذى قضى على طفولتى، ثم جاء يبتزنى، بعدما وقعت فى يده بطاقة حسين وهو ينقل جثة سبع الليل، وضعت له السُم فى قطعة الجاتوه التى التهمها كالحيوان الجائع ! ثم جاءت فى النهاية فيروز حماتى التى تدخلت فيما لا يعنيها، وحازت أوراقًا، كانت كفيلة بفضحى وتشريدى واتهامى بالقتل وهددتنى، فوضعت لها السم فى القهوة التى تعشقها، كما اشتركنا فى قتل واخفاء جثة سبع الليل مناع زوج أمى . لقد حاكمناهم واعدمناهم بتهمة الغباء والوقوف فى طريقنا، فنحن لم نعتدِ عليهم، هم الذين اعتدوا علينا، من بداية ذلك الحيوان النجس (لمعى)، ثم(سبع الليل)، ثم الجميع.

**أحياناً يجب أن يموت بعض الناس؛ لكى يعيش البعض الأخر حياة هادئة!!... ولقد اخترت البوابة الملكية لخروجى من تلك الحياة البائسة، فأنا قوية ..قوية وأبحث دومًا عن الخلود.**

**مشيرة نبيل الراوى ..**

*********

## - 48 -

**ليلة رأس السنة عام ٢٠٠١م**

جلس عاصم وعلى وجهه علامات الهزال الشديد، بينما كان مساعده نصر يحتفى به بعد أول ليلة يخرج فيها من المستشفى، كالمعتاد فى الحديقة وأمامه مصحفه الكبير المُعلق على الحامل، والكتاب الأسود الذى كان الشيخ يدون فيه ملاحظاته.

نظر إلى نصرالذى يعامله كما يُعامل الوالد أباه، وتذكر حسين الذى انتهى به المصير إلى الجنون فحزن ودمعت عيناه، شعربه نصر، فربت على يديه قائلاً.

- أنت مش عارف أنا فرحان قد أيه، إنك رجعت لنا بالسلامة ياعم (عاصم).

عاصم:عارف يا نصر، الله يكرمك يا بنى .

نصر: لى طلب عندك

عاصم :خيريا بنى

نصر: أنا خلاص جهزت لك غرفة فى البيت عندى،هاتعيش معايا، السوبر ماركت بيكسب كويس قوى والحمدلله، .ابتسم عاصم ودموعه تملأ وجهه .

بسم الله الرحمن الرحيم

"إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ"

لقد تمنى أن يُدرك ابنه الوحيد حسين من الغرق، ولكن حسين نفسه أبى،

واختار طريقه. سمع صوت صلصلة الباب وعبودة التومرجى يدفع ترولى فوقه جثة مُغطاة بملاءة زرقاء .نظر له نصر مُبتسمًا .

- ده عبودة التومرجى جايب الوارد، فتح له نصر مُبتسمًا تعالى يا عبودة، لكن عبودة بدا مُتجهم الوجه، على غير عادته وقال لنصر بجدية .

- عاوز أشوف عم عاصم ضرورى يا نصر، لازم هو اللى يستلمها، اندهش نصر، فهو يتعامل معه منذ عدة أشهر، وأثناء مرض عاصم ولم يطلب هذا الطلب .

- بس عمك عاصم لسة صحته مش ها تستحمل شيل وحط .

- لازم أشوفه، هز نصر كتفيه فى استسلام قائلاً.

- أهو أنت عارف مكانه، رحله فى الجنينة،

- احتضنه عبودة بقوة وهو يبكى، بينما بكى عاصم كثيرًا

- كل يوم كنت بروحلك وأنت نايم، أوصى عليك وأرجع . أطلق عاصم ابتسامة باهتة فى وجه عبودة قائلاً:

عاصم:عارف ياعبودة، ابتسم عبودة قائلاً:

- لأ أنا مش هاخاف منك تانى، أنا بحبك، أنت أعظم رجل شفته . بكى عبودة ثم قال له، سامحنى ياعم عاصم، بس الوارد النهاردة يخصك، أعطاه الورقة التى بها الاسم ...(مشيرة نبيل الراوى)

انتبهت حواس عاصم، وارتعد جسده، وهدأت كل حواسه .ارتدى ملابس العمل ودخل إلى الثلاجة، كشف وجهها وهو يتأملها فى حزن، كان يشعر بعقله يتقبل إشارات قوية من عقلها الرهيب .

عاصم :وفى النهاية، تموتين منتحرة

مشيرة: بيدى لا بيد عمرو!!

عاصم : كان يمكن أن تعيشين أفضل من ذلك

مشيرة : الفقراء مثلى ليست لهم اختيارات

عاصم: كنتِ عنيفة منذ طفولتك

مشيرة: كنت أرفض الذل، ولا أقبله

عاصم: وهل أنت الآن فى عز؟

مشيرة: لله الأمر من قبل ومن بعد .هى النهاية إذن، ولقد اخترتها بشجاعة!!.

عاصم : بالفعل هى النهاية إذن .

نادى على نصر، ليسلمها للحاجة عائشة. لتقوم بإيداعها أحد الأدراج، تابعها وهى تدسها داخل أحد الادراج، وخرج إلى الحديقة مرة أخرى، وجد صديقه العزيز، الكاتب( فؤاد فواز) يجلس بجوار نصر، احتضنه بشدة . فقال له:

- نصر بلغنى أنك أول يوم النهاردة، فجيت أسلم عليك .قال نصر فى مرح:

- النهاردة هايجى معايا افتتاح حلونى خميس وها يقعد على القهوة كمان، عن إذنك يا عم فؤاد، لسة عندى شغل وهاخلصه، تابعه فى دهشة وهو يزرع الحديقة ويعد إفطارًا خفيفاً، قبل آذان المغرب . ويكنس الساحة. هز رأسه فى عجب قائلاً لعاصم:

الفضل يرجع لله، ثم لك فى تغير شخصية الولد ده، لاحظت أن عمله، صار كله لله .أطرق عاصم برأسه فى أسى:

عاصم: ولكنى فشلت مع أقرب الناس لى .

فؤاد: ده لايعنى إنك فشلت، فالهداية من عند الله، وفى النهاية كلهم أولادك يا عاصم وثوابك عند الله كبير، خيرك وخير الحاجة فيروز على الحى بأكمله، بيومى وخميس الحلوانى ونورا ونصر وأسرته، كلهم أولادك . صمت عاصم، ثم قال:

- إزاى بنتك منى، عاملة أيه فى أمريكا؟ ابتسم فؤاد ودموعه على وجنتيه، وهو يتطلع إلى باب الثلاجة الكبيرة قائلاً:

- تعرف ليه أنا اخترتك صديق لى دونًا عن كل من حولى من ناس؟ ابتسم عاصم فى وهن قائلاً ..

- لا، بس يهمنى أعرف؟

فؤاد: لأنك أعظم كداب فى العالم يا عاصم !. صمت عاصم فى دهشة! فأكمل فؤاد والتأثر باديًا على وجهه.

- عشر سنوات وأنت واقف معايا فى مرضى، مازهقتش ولا مليت، شايف صورها، وبتسمع منى أخبارها، وبتبتسم مثلى، وأنت عارف وأنا عارف، أنها ماتت فى حادث قبل ما ترجع أمريكا !! والغريب أنك أنت، اللى دفنتها بإيديك يا صديقى، خلاص أنا خفيت، ومش هاعيش فى الوهم تانى!!. ابتسم عاصم فى وهن قائلاً:

- مادمت رأيتها حية فهى حية تُرزق فى قلبك وعقلك يا صديقى، أنت عارف أنا بحب المكان ده ليه يافؤاد ؟ نفى فؤاد مُتسائلاً:

- لأنه نقطة رمادية فاصلة بين الحياة والموت، علشان اتعلمت فيه معنى الموت وقيمة الحياة، فهناك أحياء أموات وهناك أموات أحياء والفرق كبير، المُهم أن تصدق وتختار وتؤمن، وعليك الاختيار لأى من الفريقين تنتمى، وعلشان كده صدقتك يا صديقى، لما تجاهلت موت بنتك، إذًا فهى حية بالفعل، نفس الشىء حدث لى مع ابنى فُضيل، هو لم يمت أبدًا !! أراه كُل يوم، وأشعر به، ويشعر بى، يكلمنى وأكلمه، أما الآخر فلقد مات من زمنٍ بعيد !! فهمت ما أقصده بأن هناك أحياء أموات وأمواتًا أحياء . ابتسم فؤاد قائلاً:

- هاستناك هناك !! تردد عاصم قليلاً قائلاً:

- لكن ؟! نهض فؤاد دون أن ينظر له قائلاً:

- هستناك هناك ! عاد نصر منهكًا بعدما أغلق الأبواب قائلاً:

- فين الأستاذ فؤاد؟

- مشى وقالى، هاستناك هناك. ابتسم نصر قائلاً:

- كلنا هانستناك هناك . سمع آذان المغرب، جلس عاصم ونصرعلى الأرض، يتناولان طعام الإفطار، طبق واحد من البطاطس المسلوقة، ودورق من الخروب، تناول عدة لقيمات، ونظر إلى الكتاب الأسود الكبير الذى معه قائلاً:

- أنا رايح مشوار.

نصر:على فين يا شيخنا؟

عاصم:عندى دعوة من صاحب الكتاب، ولازم ألبى، حمل الكتاب الكبير المكتوب عليه "مقتطفات الحكم العطائية والوصايا الشاذلية بتصرف من مولانا الشيخ العابد المُلقب بالهصور العائد من أرض السباع"أ

****

## - 49 -

أنهى (عاصم) صلاة القيام بالمسجد الكبير. وجلس هادئًا يُسبح، فى سكينة. مساجد الله بيوت الله على الأرض، لكنها ليست مثل بعضها، فهناك من تقضى صلاتك وتغادره سريعًا، وهناك مساجد تتمنى أن تقضى بها بقية حياتك! هذا المكان مُختلف، ولقد جاء بُناء على دعوة الشيخ الوقور صاحب الكتاب الأسود الذى طلب منه الزيارة، وأبلغه سلام ابنه فضيل، ثم أمره برد الأمانة إلى أحبائه، لكن كيف سيتعرفون عليه، هاهو جالس ينتظر فى سلام. كاد اليأس يتسلل إلى نفسه بعد رحيل العامة، وبقاء عدد قليل جدًا من الجُلساء، يقرأون القرآن حول أعمدة المسجد، أو يتجاذبون الحديث بصوت خفيض، كاد أن يهم بالانصراف، خاصة بعد قطع الإضاءة بالمسجد، لكن يدًا حانية فى الظلام ربتت على كتفه وقال صاحبها:

- أهلاً وسهلاً يا كاتم السر؟! نفس الكُنية التى أطلقها عليه الشيخ المهيب عندما قابله فى منامه مرات، وأقرأه السلام من ابنه فُضيل، انتبه على ذلك الصوت الرجولى وهو يقول له:

- شرفتنا بالزيارة، اندهش (عاصم) من ذلك اللقب الذى سمعه من الشيخ الوقور، وأرسل له سلام ابنه فضيل، شعر أن الرجل جلس أمامه مباشرةً قائلاً:

- أعتقد أنك قصدت الشخص الخطأ، فلست أنا من تقصد. رد الرجل على الفور:

- بل أنت من أقصد ! امتدت يده فى الظلام وتناولت الكتاب من أمامه قائلاً:

شكرًا على توصيلك الأمانة !!

- من أنت وكيف عرفتنى فى الظلام، ابتسم فى طمأنينة قائلاً:

- عرفتك من جلبابك، !! نظر عاصم إلى جلبابه فى الظلام وسقطت دموعه، وهو يحملق فى جلبابه الفقير، الذى زانته خيوط من ذهب !! . كان يتمتم:

- لا إله إلا الله، أيه ده. هدأ الرجل من روعه وهو يقول:

- لا تندهش يا كاتم السر، تمعن قليلاً في من حولك، وفى مساعدك( بائع الذهب)،الذى يحمل معك الأسرار، اندهش عاصم قائلاً:

- لماذا سميتموه هكذا (بائع الذهب)، لسنا نحن من نسميه، نحن فقط عرفنا.

- عرفتم ماذا؟

- عرفنا صفاتكم، فأنت تكتم أسرار عبادٍ اطلعت على أسرارهم يوم فاضت أرواحهم إلى بارئها، فحفظت سرهم، وسترت عيوبهم بأمر الله . أما مساعدك فلقد باع الذهب والمال واشترى بها نفسه وحياته الأبدية. دمعت عينا عاصم وهو يرى نصر أو (بائع الذهب) الذى يصلى بجواره فى خشوع و مجموعة أخرى من الرجال الذين انخرطوا فى صلاة فردية، يرتدون نفس الملابس التى كانت تضئ الظلمة صمت الرجل بينما همس الشيخ فى إذنه،

- لا تعجب يا كاتم السر، إنه رداء الذكر!!، هو رداء تُقاتلك عليه الملوك لو علموا به، لكن الله اختص به القليل من عباده !!.همس عاصم:

- كيف ذلك، قال الرجل بصوت رخيم .

الشيخ:أولم يقل سبحانه وتعالى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) صدق الله العظيم

صمت عاصم، كانت فرحته عارمة فى تلك الليلة، فقال:

- من أنت يا شيخ

الشيخ: لا تتعجل الأمور، ستعرف كل شىء باذن الله .

عادت الإضاءة فظهر الرجل، هو يشبه الشيخ، ولكنه أصغر كثيرًا . اقترب رجل أسمر مُضئ الوجه، حلو القسمات وهو يأذن بأدب، المقرأة جاهزة يا شيخ إبراهيم . ابتسم الشيخ قائلاً

- ها أنت عرفت اسمى دون أن أجيبك !

انتقلوا إلى المنزل الكبير، الملاصق للمسجد، شعر أنه رأى ذلك المكان من قبل ! الحديقة العظيمة المحيطة بذلك القصر الأسطورى الذى يبدو كأسد يزأر من بعيد !!، دخل إلى المندرة الواسعة، وقف مشدوهًا أمام صورة الشيخ الكبير!! هو بعينه نفس الشيخ الذى رآه فى المشرحة، وصار يزوره بشكلٍ مُنتظم، وها هو يرى صورته تتوسط المكان التى تُطل على الحديقة الغناء التى ينبعث منها رائحة الفل، وكأنه فى عالم آخر، أصوات عذبة ولغة سليمة، ظل صوتهم يتردد باستمرار، وقد أصابتهم نشوة، وانفصلوا تمامًا عن الحياة، تشعر أن هؤلاء القوم قد أتوا من عالم آخر!!، فوجوههم الصبوحة وملابسهم النظيفة، وتلك الساعات القيمة التى يرتدونها، تشعرك بأن هؤلاء القوم لايرتادون الشوارع ولا يتزاحمون فى طابور (العيش )، ولا يعانون من زحام الشوارع، فوجوههم نظيفة وأياديهم بيضاء، وأجسادهم قوية، تشعر أنهم قد خلقوا لتلك المهمة فقط (الذكر) وتلاوة القرآن، ولاشىء آخر. جلسوا فى حلقة بعد انتهاء الذكر ولسانهم يلهث بالشكر، جاء صوت شيخهم القوى الذى جالسه، مد الشيخ يده بالكتاب فرأى ذلك الوشم لأسد قوى، نفس الوشم الذى رآه على يد الشيخ المهيب .

تسمر جسده عندما دخل إلى المندرة،

- من الشيخ بحق الله، وكيف جاءنى فى المنام، وما سر وشم الأسد المخيف الذى يربط بينكم؟!

- إنه جدى الشيخ (سيد العابد) والملقب بالقائد (الهصور)[16] أما بالنسبة لقصة الأسد والوشم، فستعرفها جيدًا، عندما تزورنا الشهر القادم . فلقد أعدت الكتاب وحفظت السر، فأنت الآن منا، وسننتظرك. أنت ومساعدك (بائع الذهب) ....خرج عاصم ونصر من حديقة القصر الأسطورى إلى الشارع. سارا قليلاً فى الشارع الهادئ، كانت الأضواء تنبعث من المساجد القريبة بمناسبة شهر رمضان المُعظم، كما كانت المحال والكنائس تزدان بالأنوار احتفالاً «بليلة الكريسماس ». اقتربت منهما سيارة فاخرة طراز مرسيدس، كان عاصم يسير بجوارها دون أن يلتفت إليها، بينما نصر كان ينظر لها بقلق وفى النهاية توقفت السيارة، وهبط منها رجل أسمر يرتدى بذلة كاملة، اقترب من باب السيارة الخلفى مُبتسمًا فى أدب وفتحه قائلاً

- تفضل يا حاج عاصم ؟! فرد عاصم ظهره ودخل إلى السيارة بطريقة أرستقراطية، بينما وقف نصر مذهولاً، لكن عاصم قال له، اركب يا شيخ نصر! ظل نصر مشدوهًا ومتوترًا، لكن عاصم ابتسم قائلاً . اركب وها تعرف كل حاجة !! ثم نظر للسائق الأسمر قائلاً

- اطلع يا عوض على ٢ حارة الغول .

****

16) )راجع رواية الهصور (العائد من أرض السباع ) لنفس المؤلف

# (النهاية)

## الناس موتى، وأهل الحُب أحياءُ.

ليلة رأس السنة الميلادية عام ٢٠٠١.

جلس نصر فى السيارة والذهول واضح على وجهه، بينما عاصم يُكمل قصته.

- والآن، أكمل لك الباقى من قصتى ..كما وعدتك!! .لقد انتهى عهدى بالحياة يوم أن أعلن الطبيب وفاتى !، لقد سرت مع الموتى وتحدثت مع ابنى فضيل، وشاهدت مصيرى المحتوم بعينى، ذلك المصير الذى لا يتمناه أى أحد ...لكن الله قد شاء لى أن أحيا مرة أخرى، فرصة جديدة وحياة جديدة، ففعلت كما فعلت أنت ... تركت كل شىء، وعشت»عم عاصم «، الشيخ البسيط الذى يعمل على خدمة الموتى!.. لكنها حياة حقيقية، حياة لا صخب فيها ولا نصب، عهدٌ أخذه علىّ ابنى الشهيد فُضيل، وأنا التزمت به، فتركت تجارتى لابن أخى وشريكى (محروس) ليُديرها، وبالطبع دبرنا قصة بيع كل شىء، حتى لا يؤذيه (حسين ) .نظرله نصرفى عتاب وأسف قائلاً.

- طيب وحسين، أنت ظلمته . هزرأسه فى أسى قائلاً:

- حسين ظلم نفسه بأوهامه، كنت عاوزه راجل زى أخوه فضيل، ولكنه رفض، أجبرته على العمل فى وكالة الأقمشة مع محروس لكنه رفض العمل (موظف)عند محروس، ومع ذلك كنت أترك له شهرية مع محروس كل شهر، كان بينفقها على المخدرات. ومشى وراء الشيطانة (مشيرة)، دخلها البيت، علشان تقتل فى النهاية أمه الست الطيبة.

نصر: يمكن لو علم أن ده ماله، كان حاله انصلح. ابتسم عاصم وهو ينفى برأسه.

- عرف أن المال ماله زمان! كان بيعمل بيه أيه، بيصرفه على البغايا والمُخدرات!! كان ينفق فى اليوم الواحد، ما يُنفقه شقيقه الشهيد المُكافح فى عدة أشهر. ولذلك كان علينا جميعًا أن نتطهرونعود إلى منزلنا القديم فى ٢ حارة الغول، المنزل الأسطورى الذين يطلقون عليه تارةً أنه مسكون، وتارةً أخرى أن به كنز.

شخص نصر بعيدًا ببصره، وحرك إصبعه أمام عينيه، وكأنه يحل لغزًا مُستعصيًا .

- لما كنت بتسلف الرجال بدون فوائد، كنت بسأل، منين بتجيب الفلوس دى كلها، وأنت رجلٌ سريح على باب الله، دلوقتى فهمت ؟! يبقى أنت الرجل الخفى فى الحارة!! أنت اللى دفعت عملية (مرسى العجلاتى)، واشتريت محل «سابليه الحلوانى»باسم خميس!!، ودفعت مصاريف علاج زوجة بيومى. وكنت بتبعت الشهرية لزوجة مساعدك (جابر)، لك الله يا أخى !

- لقد وعدت ابنى فضيل، وأتمنى أن أكون قد وفيت، ابتسم نصر وهو يُقبل يديه قائلاً

- لقد وفيت وكفيت يامولانا!!.ابتسم عاصم، وهو يقول له: عاوز أعاهدك على شيئين، تُقسم بهما

نصر: عارف، ماحدش ها يعرف السر، وهايبقى الرجل الخفى مجهولاً!!

أومأ عاصم برأسه موافقًا، وأكمل:

- أنت ومحروس هاتكملوا ما بدأته ولا تتوقفا أبدًا .

نصر:حاضر

عاصم : أما العهد الآخر فاهتم بضيوفك كويس زى ما علمتك، لا تبخل عليهم، دول اللى ها يشهدوا علينا أمام الله.

نصر: تقصد الضيوف هناك !! حاضر.ولكن ليه، أنت بتودعنى؟!!. تجاهل جملته عندما اقتربا من المنطقة قائلاً:

- ها نتزل هنا يا عوض .كمل أنت ..وسلم على محروس . ابتسم عوض فى أدب، قائلاً:

- حاضريا حاج!! نظرإلى الزفة القريبة من الحارة، حول» حلوانى سابليه«.

كانت الفرحة عارمة، بينما لاحظ عاصم لافتة السوبر ماركت الكبير المكتوب عليه «النصر، نصر عبدالله وأولاده»، فابتسم لنصر قائلاً:

- الله يرزقك يا نصر.. خير الحمد لله، ابتسم نصرفى سعادة، واقتربا أكثر من مكان الحفل، اللافتة القماشية الكبيرة بالحارة، افتتاح حلوانى «سابليه الجديد «(خميس السيد). الموسيقى الصاخبة تملأ المكان، والسعادة تملأ أهالى حارة الغول، احتفالاً بليلة رأس السنة وشهر رمضان المُعظم. وقف خميس بداخل المحل يوزع الكنافة والقطائف مجانًا على أهل الحارة، بينما بيومى صاحب المقهى يلتهم الكنافة بتلذذ وبجواره زوجته نجوى، تحمل طفلاً جميلاً لم يتجاوز عامه الأول .

وقفت نورا زوجة خميس بملابس زاهية تطلق الزغاريد، وبجوارها بناتها الثلاثة يحملن الحلوى والشربات، بينما كانت (أمينة ) زوجة نصرتطلق الزغاريد، و أطفالها يرقصون فى مرح، والأستاذ فؤاد يضحك فى سعادة.

توقف كل شيء بمجرد ظهور (عاصم ) ونصر. لم تطأ قدمه الحارة منذ أشهر طويلة، بعد كل تلك المحن !! صمتت الموسيقى وهرول الجميع إليه يحتضنونه، ويقبلون وجنتيه ورأسه، قبلت نورا زوجة خميس رأسه قائلة:

- حمد لله على السلامة يا عمى، اقتربت البنات بالحلوى والشربات، تناول القليل وهو يسأل عن أحوالهن .احتضنه خميس باكيًا ومعاتبًا

- كده تسيبنا المُدة الطويلة دى، والله إحنا عايشين على حسك .

- معلش يا خميس يا بنى ..أنت عارف الظروف.

- ولا يهمك يا عم عاصم ... إحنا أولادك، نظر باكيًا له، ثم قبل يديه فى فرح، فسحبها عاصم قائلاً:

- يابنى ليه كده، نظر له فى فرحة قائلاً:

- حلمى تحقق يا عم عاصم بفضل الله ثم بفضلك

عاصم: الفضل من عند الله،

خميس: فاكر الكلمة، ابتسم عاصم قائلاً:

- الاستغفار.

- خميس: من يومها وأنا ما بطلتش، مين كان يصدق إن فى واحد اشترى المحل باسمى .. نفسى أعرفه، ابتسم عاصم قائلاً:

- أنت ابن حلال يا خميس .. وتستاهل كل خير. اقترب بيومى صاحب المقهى هاتفًا فى حماس :

- ودين النبى النهاردة عيد بجد ... ضحك عاصم قائلاً:

- لسة بكاش زى مانت يا بيومى !! ضحك الجميع بينما حمل بيومى طفله الصغير وقربه من وجه عاصم قائلاً:

- «رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ »، فاكر؟! فأجابه عاصم وهو ينظر
ى الطفل أيوة فاكر!! فقال بيومى وهو يناوله الطفل شفت ده مين . ؟! حمله
عاصم فى فرح، فقال له بيومى والدموع فى عينيه .

- ده ابنى ..فضيل، سميته على اسم الشهيد، انهمرت دموع عاصم، ومعه
انخلعت قلوب الجميع نساءً ورجالًا، لكن نصر قال لهم :

- النهاردة فرح يا خوانا .. عاوزين نفرح كلنا، صمت الجميع فقال له بصوت
مرتفع، اليوم عيد وبداية سنة جديدة، نحن أولاد الحياة القاسية، تركنا
أهالينا من زمن بعيد، وجينا هنا، كنت لينا أب والحاجة فيروز رحمها الله كانت
لنا أم، جذبه من ذراعه قائلاً:

- تعالى علشان تشوف المفاجأة. انتقلوا جميعاً إلى المسجد القريب من
الحارة، لقد تم تجديده وصار كبيرًا. وقفوا جميعاً أمام باب جانبى به لافتة
كبيرة كتب عليها جمعية الفيروز، (قروض صغيرة- مشغل الفتيات- دار أيتام)
..بكى عاصم فرحًا بينما قالت له نورا.الشيخ نصر وناس تانية أهل خير، اتبرعوا
بأموال كثيرة لتجديد المسجد وإنشاء الجمعية!!، نظر عاصم لنصر بابتسامة
لها مغزى، فضحك نصر.

- كلنا بنشتغل فيها ونساعد البنات وبنكمل اللى كانت بتعمله الحاجة
فيروز.شكرهم عاصم وفرح معهم . وبدأ الجميع فى دعوته ليعيش معهم، لكنه
نظر فى اتجاه المنزل النصف مُتهدم قائلاً فى حزم .

- هانام الليلة فى فرشتى، حتى لو كان المنزل خرابة، كان مُصرًا على ذلك،
فنظروا لبعضهم جميعًا دون كلام، واتجهوا إلى هناك

٢ حارة الغول .

****

# المراجع والأبحاث

كتاب الروح: للإمام ابن القيم الجوزية

الحكم العطائية للإمام : ابن عطاء الله السكندرى

كتاب الطب الشرعى .. مبادئ وحقائق د:حسين على شحرور

المواقع العلمية والطبية المتخصصة

http://www.compoundchem.com

موقع الباحثين السوريين

شكرًا» للمراجعة المتميزة والمناقشة

م:عمرو بسيونى، د. أحمد بسيونى، المستشار:عمرو الشاذلى، أ: داليا الشيخ

د: مارجريت يوسف

شكر خاص لفريق دار (ن) للنشر

أ:حسام حسين – أ:طارق وافى – د: سيد محمود الشريف

# ٢ حارة الغول

يدخل (عاصم )،إلى ذلك المبنى القصير،ذو الدور الواحد والحديقة الكبيرة،الملاصق لمبنى المستشفى الضخم، يرتدى ملابسه الرسمية االغريبة، ويبدأ عمله فى المساء،داخل ثلاجة الموتى، بسحب أحد الأدراج،ليخرج الضيف الذى بها ويُكرمه، ،يعرف أن مهنته هى الأكثر رعباً فى العالم،لكنه يعشقها إلى حد الهوس!! ،لغة ما نمت بينهم،يرسلون له إشارت،صار يفهمها ،ويتعامل معها،كانت مواجهتهم كل ليلة ،أسهل كثيراً من مواجهة (مشيرة)،خبيرة السموم،التى تقتل ضحايها،بتركيبتها الملكية المُخيفة،كلاً منهما له قدراته الخاصة، التى تؤهله للفوز بالصراع المُحتدم ...إنه الموت على الطريقة الملكية.

